منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

أمين الزاوي

الملكة

رواية

الملكة

الفاتنة تقبِّل التنّين على فمه

رواية

أمين الزاوي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-02-1172-8

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: +966509337722
هاتف بيروت: +9613223227
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: +213 21676179
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

طبع في لبنان

مفتاح:

شرعت في كتابة هذه الرواية وأنا بشنغهاي الـــتي وصلتها ربيع 2008، ثم ببكين لاحقًا. في هـــاتين المدينتين روى لي أحد أقارب بطل هـــذه الروايـــة جزءًا من هذه الحكاية، وحين رجعت إلى مدينـــة الجزائر استكملت بقية أطرافها، لكن على طريقتي الخاصة.

1

واقفة في البلكون، أنظر إلى ميناء مدينة الجزائر، وأنتظر عودة يو تزو صن. أرقب ظهوره كأنني لم أره قبل اللحظة. أبحث له عن شَبَهٍ، لا شبيه له في هذا الخلق الذي يسير في الشارع كما في الحشر.

الزْواج ليس خاتمة الحب، الحب ليست نهايتُه الزواج.. نهاية الحب هي الحب.

الإدهاش الذي يثيره الغريب يتطلب الحفاظ عليه في باب اللغز، متى سقط اللغز عن الغريب مات في قلبنا، وأصبح ظل حائط.. برودة.

في أحشائي ينام شيء من دم يو تزو صن.. يتحرك.. تتحرك البواخر على الميناء.

لا زلت أحب الغريب، أحبه لأنه لا يزال غريبًا بغموض عسله، فيه أكتشف كل يوم سماء أو حكاية أو شبقًا.

حين يفقد الغريب شهوة الغريب فيه، أفقد أنا السماء التي غرست فيها جذوري.

حين يفقد يو تزو صن شهية الغريب سأتركه؛ سأغادره، لأن صدأ الروتين سيسكن مفاصل حكايتنا. وسيكون سعيدًا لأنني أنا الأخرى أكون ساعتها قد فقدت غرابتي في عينيه، ولم أعد ملكة عسل.

الحب ليست نهايته الزواج، والغريب ليست نهايته أن نعرفه، بل أن يظل غريبًا؛ كي يكون مثيرًا لرغبة الاكتشاف المستمرة التي هي أصل الحب.

أنا حامل من غريب. في شهري السابع، وسيجيء من هذه الغربة طفل يكون أول السلالة الجزائرية الصينية التي ستحكم البلاد مع نهاية هذا القرن.

أمير الغرباء.

أطفال الحب يكونون أمراء.

أطفال الخطيئة يكونون جميلين.

أطفال الممنوع يكونون أذكياء.

أنظر إلى البحر وأنتظر بحرًا آخر، البحر لا يخرج إلا من بحر.

سنون مرت، اكتملت الحكاية أو كادت، حكاية الغريب تبدأ، لا تنتهي أبدًا، لذا قررت أن أحكي لكم من قصة الغريب الذي دق قلبي دون أن ينسى أو يتنازل عن غرابته التي تثير سخط الكثيرين من حولي، غضبهم مني، خصامهم معي: أمي وأبي، والجارة التي تحلم أن تحج العام القادم، حلم يراودها منذ توقف الدم عنها وهجم عليها ليل اليأس الأنثوي، وبائع النعناع الذي لا رائحة فيه، وتلاميذ المدرسة التي تقابل شقتنا.. حتى السيد قاسي الذي أحببته حد العشق، غَضب السيد قاسي من غيرته، والسيد قاسي هذا هو والد زوجي الأول.

أنتظر عودة يو تزو صن، وأستعيد شريط سنواتنا القادمة أو الماضية، لست أدري؟

استعادة الشريط نحو الأمام ونحو الخلف، كمن يفرد زربية، يفرشها لحفل أكثر بهجة من رسوم فراشات الزربية نفسها.

الغريب يعرف كيف يحكي لأنه غريب، وأنا أيضًا أحكي وأعرف كيف أحكي، دون خوف أو تردد أو بهتان؛ لأنني أحكي للغريب، أحكي له حكايتنا هذه فاسمعوها.

هذه حكايتنا، أنا ساكو أو سكورا ويو تزو صن الشينوي، أو يونس كما يسميه أهل الحي وساكنة مدينة الجزائر من معارفنا.

•

2

هل يمكن لامرأة ولدت بحي العناصر في أعالي العاصمة، أن تعشق رجلاً صينيًا جاءت به الأقدار ولهفة رأسمال شركة بناء صينية من ضواحي بكين، ليحط بهذه المدينة التي بدأت ذاكرتها تتشوش شيئًا فشيئًا؟

قلت ليو تزو صن أو يونس الشينوي:

"الصين بعيدة، بعيدة جدًا، أبي شريف آيت صالح الذي لم تتح له الفرصة كي ينهي دراسته الجامعية؛ إذ غادر مقاعد كلية الحقوق وهو في السنة الأولى، لينخرط صغيرًا في صفوف جبهة التحرير الوطني، ما فتئ يردد في أذني كل صباح، قبل أن أغادر إلى المدرسة أو بعد العودة منها متعبة: "قال الرسول عليه الصلاة والسلام: اطلب العلم ولو في الصين". كنت أتصور بأن الجنة التي يتحدث عنها أستاذ التربية الدينية مكانها يوم القيامة على أرض الصين، طفلة، ولمرات عديدة، كنت أتصور بأن هذا البلد موجود على سطح كوكب آخر لم يزره من البشر إلا الرسول الذي صعد ببراقه إلى السماء السابعة. وقد ظل الحديث النبوي "اطلب العلم ولو في الصين" يتبعني طوال حياتي مكتوبًا بخطوط مختلفة على باب المدرسة والثانوية، وفي قاعة الدرس وفي جميع كتبي المدرسية، وفي دروس الأخلاق والتربية الإسلامية والتربية المدنية والأدب. ظل يتبعني

في جميع مراحل الدراسة من الحضانة مرورًا بالصف الابتدائي، فالمتوسط، وصولاً إلى الثانوي والجامعة".

لهذا كلما فكرت في الصين، فكرت في الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، مع أن أثقل الدروس على نفسي كانت دروس التربية الدينية، لقد أدخلت في قلبي الهلع، كل أشكال الهلع، وأسكنتني بالموت وأنا طفلة لم أتجاوز السبع سنوات.

ضحك يونس، كانت ضحكته مثل لؤلؤة نادرة، ضحكة من فصيلة أخرى، للضحك فصائل وملل وسلالات. تناول وجهي بين كفيه الصغيرتين الناعمتين اللتين تشبهان صورة ملونة في كتاب حكايات الأطفال، نظر في عيني، تأمل لونهما الأخضر ثم قال:

"عندنا في الصين عبارة تتكرر بشهية هذه السنوات الأخيرة، يرددها الصينيون بجميع لغاتهم المحلية التي تبلغ السبعة وهي: "اطلب المال والعمل ولو في أدغال إفريقيا".

سكتَ قليلاً ثم واصل الحديث بنوع من التأمل العميق المشوب بسخرية أو حيرة:

"مرات يا سكورا أفكر في تأسيس حزب سياسي يجمع أفراد الجالية الصينية المقيمة بالجزائر، والذين بلغ عددهم اليوم قرابة الثلاثمائة ألف، وهم في زيادة متصاعدة قوية تماشيًا مع تحول الجزائر إلى أوراش مفتوحة في كل الميادين: البناء والفلاحة والصناعة والتجارة والماء والطاقة، وحسب إحصائيات استشرافية حصلت عليها من مركز الإحصاء الوطني ببكين، سيصل عدد الصينيين المقيمين بالجزائر مع حلول منتصف هذا القرن عشرة ملايين،

وستكون هناك مليونا عائلة مؤسسة على زواج مختلط ما بين الصينيين والجزائريات والصينيات والجزائريين، وستصبح إفريقيا أكبر القارات التي تستقبل الاستثمار الصيني والهجرات البشرية الصينية، وسيكون لنا صينيون سود البشرة. إنني أفكر بجدية في تأسيس هذا الحزب لأن التوقعات تقول: سيحكم الجزائر رئيس من أصل صيني في الربع الأخير من هذا القرن، وأنا أحلم أن يحظى ابننا بشرف قيادة هذه البلاد العظيمة التي لها ثورة كبيرة، وثروة كبيرة أيضًا. الصينيون يدخلون الجزائر من الجنوب، وليس من الشمال كما قام بها المستعمر الفرنسي الغبي، حين أنزل جيوشه الغازية على شاطئ سيدي فرج. نحن لن ننزل رمال الصحراء الكبرى الساخنة كغزاة نجرب فيها الأسلحة النووية من الجيل الثاني والثالث، إنما سننزل هناك لتحويل تلك الأرض الفارغة الصامتة إلى مدن خرافية بمؤسسات اقتصادية ومساحات زراعية للقمح والشعير والذرة، والبرتقال والرمان والخوخ، واللوز والفراولة والبطيخ، والشمام والعنب وكل ما تشتهيه الأنفس. وسنقيم مطارات دولية ضخمة حديثة وحداثية، مطارات ذكية، تنزل بها الطائرات العملاقة التي تشتغل بالطاقة الذرية. سننزل مطرًا صناعيًّا كي تتحول الصحراء إلى جنة لا تشبهها سوى الجنة التي جاء ذكرها في الكتب السماوية، في التوراة والإنجيل والقرآن، وستبدو دبي بعماراتها الزجاجية وناطحات السحاب فيها عبارة عن قرية صغيرة أمام مدن تمنراست وجانيت وتندوف وأدرار وتيممون وبرج باجي مختار..".

كنت أستمع إليه وهو يتحدث بعمق، وفراشات الحلم النورانية تحوم حول عينيه، وتمنيت لحظتها أن يكون لي منه ولد بعينين

أسيويتين مقوستين مشدودتين، ولد يحقق حلم تأسيس جزائر الغد، الجنة التي تبدأ من رمل الصحراء إلى رمل الشاطئ.

أن يكون لي طفل من صيني؟! لو تسمع أمي هذا الذي يدور في ذهني ستأكلني نيئة!

كان يتكلم طورًا كالشاعر، وطورًا آخر كالسياسي، وثالثًا كالعاشق، وفي الحالات جميعها كان يتسلل كالنَّفَس إلى تلافيف الروح. كان غريبا بفتنة العريب.

قدم لي كأس ماء دافئ، قلت في نفسي:

"أيشرَبُ الماء ساخنا في هذا الجو الحار؟! شربت الماء من باب المجاملة، وقد صعب علي بلعه، جسدي يغلي لا يفيد لإطفاء ناره سوى قنينة ماء باردة، لكنني بعد أن رشفت الماء جرعة جرعة شعرت بنوع من البرودة والهدوء يسكنني، هل هو تأثير الماء الساخن على الجسد الأسخن الملتهب؟ هل هي دهشة الغريب؟".

بطفولة بادية أخذ يحدثني عن أول صورة التقطها له صديقه سون با سن على جبهة البحر، والتي بعث بها إلى عمته التي كانت تعتقد بأن الجزائر مدينة تسير الجمال والأفيال في طرقها غير المعبدة، حيث تنصب الخيام وتنزل عراجين التمر من شجر النخيل الحاني.

وضحكنا كطفلين، شعرت به يتغلغل إلى دمي! بكل غربته وغرابته.

قلت له:

"عربيتك جميلة.. أفضل من عربيتي، أنا الجزائرية الأمازيغية لا أتحدث بالعربية إلا في المدرسة، في البيت لا نتكلم سوى القبائلية،

والدي، الذي كان من قادة الثورة، منع علينا الحديث بالعربية بعد مجازر الربيع الأمازيغي الذي جاء ردًّا على رفض النظام الترخيص لمحاضرة كانت مبرمجة للكاتب مولود معمري بمدينة تيزي وزو. كان أبي يحب روايات مولود معمري **الربوة المنسية، ونوم العادل، والأفيون والعصا**، يعيد قراءهما مرتين في السنة، واحدة في الشتاء والثانية في الصيف، وكانت لا تفوته فرصة إلا ونصحنا بقراءهما".

أنا لا تعجبني روايات مولود معمري ولا محمد ديب، كتابات باردة لا مكان فيها للقلب ولا للقبل، روايات البؤس والجد والدروس في الوطنية.

شقته هذه التي قال إنه اشتراها بعد أن قضى سنتين في الإقامة الجماعية المحاذية للورشة، توجد بحي اسمه حي العجائب السبعة أو حي الشناوة. شقة صغيرة تطل على بحر العاصمة، وبحر مدينة الجزائر لا يشبهه بحر. من بلكون الشقة يبدو الميناء في الأسفل عند أقدامنا، تحيط به العاصمة في شكل هلال، جالسة بأبهة على التلال المشجرة التي تشبه مسرحًا رومانيًّا. أول ما أثارني في هذه الشقة المرتبة بإحكام، حين دخلتها أول مرة، هي رائحة البهارات والتوابل وأنواع الشاي، لم يكن بالصالون كَراسٍ، خلعت حذائي وهممت بالجلوس على مخدة ملقاة على سجاد، قال لي قبل أن أقرفص مُرَحِّبًا بخجل طفولي:

"إنه سجاد أصلي، جلبته من بلادي حتى إذا جلست عليه أشعر بأني أجلس على قطعة من الصين الواسعة، وحتى لا أنسى الأرض التي خرجتُ منها، واليد التي منحتني كثيرًا من العطف وأرشدتني إلى طريق النجاح، إلى طريق الجزائر، طريق الخلاص..".

سكت قليلا ثم أضاف بارتباك وبصوت يكاد لا يسمع، صوت كتمتمة صلاة:

"... الطريق الذي أوصلني إليكِ".

حين شعر بأنني شبه محرجة، بدأ في حديث طويل عن فن صناعة الزرابي في الصين ومنافستها للزربية الإيرانية والأفغانية. الصينيون قادرون على تغيير موضوع الحديث بدرجة 360 دون خلل أو قلق، من حديث القلب إلى صناعة الزرابي وحرث الأرض البوار!

مذْ تخطيت عتبة باب شقته لم يتوقف عن الترحيب بي بحركات تشبه حركات الصلاة، عينه إلى السقف وهو يحدثني. أخجلني وأدخلني في دهشة بهذا العالم الجديد الذي يتأسس في مدينة الجزائر التي ظلت رهينة الثقافة وأسلوب العيش الفرنسيين.

في الشقة: كل شيء يوحي بالهدوء والسكينة، بعض التحف الموضوعة بنظام وترتيب على رفوف زجاجية أو لوحية تمثل آلهة وملوكًا وحيوانات خرافية شدتني إليها، وضِعْتُ في رمزيتها ومغاليقها.

كان صامتًا، مبتسمًا، مرحبًا، خافض النظر، حافي القدمين يمشي على الزربية، وأصابع رجليه المتحركتين على وبر السجاد بنعومة توقظ هسيس أوتار فؤادي. ترك لي فرصة أن أتأمل الفضاء من حولي بعمق وتأمل، لم يتكلم، مع أنه كان يقول كل شيء بهذا الوجود الفائض غموضًا فوق الزربية. انسحب إلى المطبخ على الجهة اليسرى من الصالون، كنت غارقة في ألوان السجاد والأشكال المرسومة عليه، وفي بعض اللوحات المليئة بالكاليغرافيا الصينية التي لا

تضاهيها في الجمال سوى الكاليغرافيا العربية (قرأت ما يشبه هذا في كتاب جميل عبارة عن لوحات كاليغرافية، وصلني هدية رأس السنة من صديقتي ليندة الحواس التي تشتغل بسفارة فنزويللا، وهو للخطاط التونسي أسعد المطوي، وقد كتب مقدمته جاك لانغ المثقف والسياسي الفرنسي عاشق الثقافة والحضارة العربيتين).

إن اليد التي برعت في إبداع هذا السجاد وهذه الكاليغرافيا كانت لا تفكر سوى في العشق والشبق، عشق الله وشبق الجسد.

السجاد الذي أجلس عليه مغر لممارسة شيئين لا ثالث لهما: الجنس، والصلاة.

قلت في نفسي وأنا ألامس نعومة السجاد بأصابع رجلي العارية: "ممارسة الجنس فوق هذا السجاد صلاة، وأكبر صلاة، أم الصلوات وسيدهما".

كتب كثيرة أغلبها بالصينية، هكذا بدت لي من خلال بعض العناوين، مرتبة على رفوف من لوح مدهون بلون كستنائي، ليس على النوافذ ستائر، ربما تركها عارية حتى لا يهرب منه -ولو للحظة واحدة- جمال مدينة الجزائر الذي يمتد تحته بكامل الشهوة والإغراء.

من هنا أكتشف جمال هذه المدينة، أراها كما وأنني لم أرها من قبل.

عاد بسخان الماء وفنجانين من السيراميك، عليهما بعض الرسومات لعصافير وحيوانات خرافية، الكل على صينية هي الأخرى من فخار أصيل كما تبدو للعين. جلس قبالتي على مخدة أخرى، قرفص بشكل رياضي كما في تمارين اليوغا وكأنما هو يؤدي صلاة من صلوات ذاك البلد الغريب الواسع الغامض. سكب لي كأس ماء

ساخن ثان، وفعل ذات الشيء بالنسبة له. كنت أعتقد أنه نسي أن يضع كيس الشاي أو التيزانة في الماء الساخن، لكنه حمل الفنجان ورشف منه رشفة بعد أن أشار إلي إشارة التمني بالصحة. مثله أخذت الفنجان وشربت منه رشفة، و لم أعلق.

حين أنهى شرب فنجانه من الماء الساخن، قام وأدار زرًّا فصعدت موسيقى شرقية هادئة، عاد إلى مكانه، نظرتُ إلى رجليه العاريتين الصغيرتين الغارقتين قليلا وبدهشة في وبر السجاد؛ فذكرتني برجلي العروسة البلاستيكية التي لطالما لعبت بها وألبستها حذاءها وجوارها الملونة أيام الطفولة، صبيحة العيد. بعد أن سال نغم بعسل نادر من جهاز الستيريو، بدأ يوشوشني كي لا يشوش انتباهي وسفري الداخلي في الموسيقى، وكأنما يخاف أن يطير سرب عصافير من على حبل نشر ممدود على طول قلبي الخافق، أو من على حافة النافذة المطلة على الميناء حيث ترسو بواخر وترحل أخرى.

قال لي بوشوشة:

"هذه السمفونية تسمى سمفونية "الفراشات العاشقات"، وهي معروفة بالفرنسية تحت عنوان (Les Amants Papillons) (نطق الفرنسية بلكنة شهوانية إكزوتيكية)، ألفها في العام 1959 كل من شين قانغ (Chen Gang) وهي زهاهاو (He Zhanhao) وهما لا يزالان طالبين في معهد الموسيقى بشنغهاي. لم يعرف هذا الكونشيرتو جماهيريته إلا في نهاية السبعينيات، بعد أن خفت الرقابة قليلاً عن الإبداع، بعد ضغوط الثورة الثقافية التي كان فيها الفن بشكل عام دعائيًّا، يدرس هذا الكونشيرتو في جميع بلدان العالم تقريبًا، ويصاحب كثيرًا من الراقصين والراقصات على الجليد. ويؤدى

بواسطة مجموعة من الآلات الموسيقية الصينية المحلية كالإرهو والبيبا أو اليوكان".

شربت الماء دفعة واحدة بعد أن برد قليلاً. كان يتابع ملامح استغرابي شرب الماء الدافئ، ابتسم فأبان عن شرارة ذكاء خاص، وعن سحر مقفل ومثير، قائلاً:

"تقديم الماء الدافئ للضيف هي عادة تعلمتها من أمي التي كانت تقول لي دائمًا: الماء يجب أن يقدم للضيف العزيز دافئًا، أن يكون دفئه كدفء القلب، ويشرب كما يشرب الشاي أو التّيزانَا. الماء مقدس وهو أصل الحياة، وهو المادة الأكثر نسبة التي منها يتكون الجسد".

فتح دولابا في زاوية الصالون، أخرج منه آلة موسيقية تشبه الكمان أو الربابة، عاد للجلوس على السجاد، أصابع رجليه العارية تثيرني، تجنني، أريد أن ألبسهما الجوارب كما كنت أفعل مع عروستي البلاستيكية يوم العيد. نظر إلى الآلة الموسيقية قليلاً كأنما تذكر شيئًا ما ثم شرع في دوزنتها بحنان. قبالته، أتفحص ملامح وجهه التي تغيرت بمجرد أن صعد صوت الموسيقى، أنظر بوحشية غريبة إلى أصابع رجليه العارية والغاطسة قليلاً وبحياء في السجاد، فيسري في عروقي دم ساخن سخونة الماء الذي شربته قبل قليل، كنت أنظر إلى أصابعه الصغيرة وكأنما صنعت مع هذه الآلة، كأنما هي جزء منها، متيقنة الآن بأن إعجاب المرأة بالرجل يبدأ من فتنة تُشعِلها أصابع اليدين أو الرجلين. كانت أمي حين تتحدث عن جارنا السيد تيسيي، والتي كانت علاقتهما مثار كثير من الحكايات والإشاعات وكلام القيلولات بين سكان هذا الحي، تقول: "إن رجليه صنعتا من

فخار الجنة!". لم أكن أفهم ما كانت تعنيه عبارة أمي هذه، وها أنا ذا الآن أستعيدها وأنا أحدق النظر في شكل أصابع رجلي هذا الصيني فأجدهما مدهشتين، دون أن أعرف أين يكمن سر هذا الإدهاش. وأقول كما قالت أمي: "إنهما من فخار الجنة".

قبل أن يبدأ العزف نظر إليّ وقال بصوت خافت كصوت عصفور يتهيأ للطيران: "يموت بسرعة من لا يسمع الموسيقى".

أعجبتني عبارته هذه بما فيها من حكمة وعمق.

بدأ يعزف، كان يذوب شيئًا فشيئًا على نار يوقدها وهاجة من عزفه، وكنت أمامه كتمثال تسكنه الروح رويدًا رويدًا، روح غريبة، ليست تلك التي تنفستها منذ ثلاثين سنة أو أكثر، روح تأخذ أنفاسها من أطراف أصابع النحات الذي أبدعها. بقدر ما كانت النار تلتهم الصيني قليلاً قليلاً، بدءًا من أطراف أصابع الرجلين العاريتين حتى أصابع اليد التي تعزف ببهاء، كنت قبالته أشعر بأن شيئًا ما ينبت لي في ظهري، قليلاً قليلاً، وإذا بي أشعر بجناحين ينبتان لي على كتفيّ يشبهان أجنحة الملائكة المُحوِّمة التي كنا نرى صورها في كتب الدين وعلى جدران الكنائس وأسقفها، تماهيا مع صعود العزف في سماء الليل الذي حولنا، وذوبان الصيني ذي القدمين العاريتين الغارقتين قليلا في الزربية الصينية الأصلية، كنت أصعد قليلا قليلا في السماء، شَعَرْتُني دون وزن، امرأة من هواء، يتحرك الجناحان عليهما ريش كريش الطاووس لأبدأ في الارتفاع، أنفصل عن المخدة ثم عن السجاد الذي بدا لي بما عليه من رسومات مثيرة كما رقعة من الجنة التي جاء ذكرها في القرآن: أنهار ودالية وعنب وأزهار ورمان وخوخ وخمر وعسل ونساء وغلمان وهرج وشعر ومتع وموسيقى...

كنت أرتفع في سماء الغرفة فتتجلى لي أكثر فأكثر جنبات الجنة، فأرغب في الصعود أكثر فأكثر، وكلما ازداد العزف زدت طيرانًا وتحليقًا وزاد الصيني ذوبانًا؛ فلا أراه إلا جزءًا من عسل الجنة المسكوبة على السجاد الصيني العريق، الذي أبدعته أنامل أم وعمة قضتا في نسجه عامًا ونيف. كنت أسبح في سماء الصالون مستلذة الموسيقى، شاعرة وأنا في السماء بأن كأس الماء الساخن الذي شربته لم يكن ماء كالماء الذي يسيل من حنفية ما، إنه ماء الصين الدافئ الساحر، ماء الجنة. كانت الأيقونات والتماثيل والكتب والأسطوانات ولوحات الكاليغرافيا المعلقة هنا وهناك تتحرك من تحتي وأنا أحرك جناحي، درت في سماء الشقة بعض الدورات، كان عطر البخور يملئني بإحساس غريب، قادم من طفولتي التي تركتها على حافة طريق أو في موقف حافلة في اتجاه المدرسة، وها أنا ذا أبحث عن الطريق وموقف الحافلة والطفولة في هذه الأشياء التي تتوالى تحتي، وأنا أطير بجناحي ملك من ملائكة الجنة، والموسيقى صلاتي التي ترفعني كثيرًا كثيرًا. كانت النافذة مفتوحة، وميناء مدينة الجزائر من تحتي على بحره تتحرك بعض البواخر، وكثير من النوارس البيضاء ذات الأجنحة الفضية والتي خرجتُ لأنافسها في الطيران.

غادرتُ الشقة، شقة في حي العجائب السبع أو حي الشناوة المطل على مدينة الجزائر العاصمة، لأنزل فجأة فوق الواقع. كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل.

وكانت بداية رحلة الطيران على سجاد صيني.

3

كانت الرحلة ما بين بكين ومدينة الجزائر العاصمة مريحة، على الرغم من طول المسافة لم تهتز بنا الطائرة في السماء، لا مطبات هوائية اعترضتنا، وأنا الذي في كل مرة تعترض رحلتي مطبات فأقسم برأس أمّي أن لا أركب طائرة مرة ثانية، لكن وبمجرد أن تسير قدماي بعض خطوات على أرضية المطار الصلبة أنسى خوف الطيران. الحقيقة أنني لم أغادر هذا البلد منذ جئت هذا العالم، جميع رحلاتي كانت داخلية، هذه هي المرة الأولى التي أحلق فيها خارج حدود الصين. لم أكن أتخيل بأنه سيكتب لي يوم أغادر فيه البلد، كنت دائما أقول راضيًا بقدري إن مصيري سيكون كمصير أبي وجدي وجد جدي وجميع أبناء عائلة يانغ مو صون. التحليق خارج حدود قفص البلاد جعلني فجأة أفكر في أمي التي لا أعرف هل أحبها أم أكرهها؟ امرأة لها صوت أوبيرالي متميز، كثيرًا ما غنت في الحفلات الوطنية واجتماعات الحزب الشيوعي الكثيرة، وقد جذب لها صوتها وأناقتها وفتنة رقصها كثيرًا من وجع الرأس، الذي تسبب فيه بعض مسؤولي الحزب المحليين الذين لم يكفوا عن مراوغتها، والبحث عن سبيل لسحبها إلى أسرهم الوسخة. لم تكن أمي لتخفي تعلقها بواحد من هؤلاء الحزبيين، بأم عيني شاهدتها تبكي كما يبكي الأطفال يوم تم عزله ثم الحكم عليه بالسجن المؤبد مع الأعمال

الشاقة، بعد أن ألصقت به تهمة الخيانة الكبرى، خيانة مبادئ الحزب والعمالة لدولة إمبريالية عدوة. أغلقت على نفسها الغرفة مدة أسبوع كامل لم تكلم فيه أحدًا، وحين أطلت من غرفتها بعد كل تلك الغيبة وصلها خبر موت والدي غرقًا في بحيرة قريبة من البحـــر الأصـــفر، عادت لتحبس نفسها في الكحول والهذيان. مـــات أبــــي دون أن نعلم كيف ولا متى أو أين بالضبط، و لم نسأل عن تفاصيل المـــوت، ولا طالبنا بجثته التي قيل لنا إنه تم تحويلها إلى إدارة المستشفى الجامعي ببكين لتستعمل في الدروس التطبيقية، الخاصة بالجراحـــة الداخليـــة لطلبة السنة الخامسة في كلية الطب العسكري.

لم نطالب بأي شيء، والتزمنا الصمت!

لقد خشيت أمي إن هي سألت عن سبب الموت، أو طالبـــت بالجثة فسيقال عنها إنها تشكك في تقارير وتصريحات السلطة وهـــذا في حد ذاته يسمى في بلادنا: "التشكيك في أقوال السلطة، والإشارة ضمنيًّا إلى أنها هي من قتلته، أو دبرت موته بطريقة يستحيل الوصول إلى فك لغزها". نظرت إليّ أمي وقالت: "لا داعي لطلب تفسير لموت والدك يا ولدي". أخذتني في حضنها الدافئ، لم أكن أتصور أن أمي تحب والدي إلى هذه الدرجة. كنت دائمًا أعتقـــد أن أمـــي تحـــب المسؤول الحزبـــي، وصاحب مزرعة تربية الحجل الذي يسكن على بعد أمتار من بيتنا، مزرعة حجل من كـــل نـــوع وحجـــم ولـــون وصوت: الحجل الصيني والحجل البربري والحجل المقدسي والحجـــل العربـــي والحجل الأفغاني والحجل الكردي.. كنت أقضي الساعات أتفرج على حجل الجار الذي كان يدعي بأن الحجل يتكلم العربيـــة والعبرية، وكنت أثق بكلامه وأصدقه. كانت أمي تحب بوذا وتصلي

له خفية في الليل وفي النهار، مواظبة على حضور اجتماعات اللجنة المحلية للحزب الشيوعي نهارًا، لثلاث مرات في الأسبوع: يوم الاثنين والأربعاء والجمعة، وكانت ملتزمة بمبادئ الحزب.

لماذا أفكر في كل هذا وأنا على بعد أميال من الأرض، وطائرة شركة الخطوط الجوية الجزائرية التي فتحت خطًّا مباشرًا ما بين مدينة الجزائر وبكين مرة كل أسبوع تسبح بنا في هذا العلو، وقد مضت عشر ساعات على إقلاعنا.

تربيت كسائر أترابي على أشعار الزعيم ماو تسي تونغ. كانت مكتبة بيتنا المكون من ثلاث غرف تحوي جميع كتبه، تعجبني بعض قصائده الرومانسية المليئة بالحديث عن الأشجار والغابات والطفولة، ولا زلت أحفظ منها الكثير، كنت أحلم أن أكتب أشعارًا مثله، يقرأها الناس ويرددها التلاميذ وأساتذة الجامعة من دكاترة الفيزياء والرياضيات وطب العيون والأدب واللغات.

بعد أشعار ماو تسي تونغ بدأت أقرأ روايات مو يان. لقد أدهشني هذا الروائي بتفاصيل الحياة اليومية والفلكلورية التي يعرضها في كتاباته، لم يترك صغيرة أو كبيرة إلا وسجلها، الواقع أن أمي هي من نبهتني إلى كتبه الأولى، وقد أعجبت فيها بطابعها الشعبي وعشق الكاتب لجدته. أنا لم أعرف لي جدة، ولم أسأل يومًا لا أبي ولا أمي لماذا وجدت دون جدة؟!

كبرت على كره امبرياليتين: اليابان وأمريكا، وعلى حب الرئيس اليوغسلافي جوزيف بروز تيتو. وفوق كل ذلك أحب البطاطا المقلية، والبطاقات البريدية التي عليها رسومات آثار مدينة باريس: كنائسُها وبرج إيفيل ومقبرة الأب لاشيز وقوس النصر وشارع حقول الإيليزي

وتماثيل شخصياتها المثبتة في الساحات العامة. السفر إلى باريس هاجسي منذ الطفولة، كما هي اللغة الفرنسية هوسي والتي لا أعرف منها سوى ثلاث كلمات هي: (Amour, bien, merci).

بعد انتظار دام ثلاث سنوات وبضعة أشهر، تمت الموافقة على سفري إلى الجزائر من قبل السلطات المركزية في بكين كمهندس مشرف على مشروع بناء حي سكني تقوم به شركة صينية خاصة لصالح الدولة الجزائرية. حين وصلني خبر الموافقة شرعت في قراءة بعض ما كتب عن هذا البلد الذي كنت أعتقد أنه موجود في إفريقيا جنوب الصحراء. كنت أخلط ما بين اسم الجزائر ونيجيريا والنيجر، ولم أجد ما يروي عطشي سوى بعض المتناثرات في كتب مختلفة تتناول تاريخ الثورة التحريرية الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي. وما إن عرفت بأن هذا البلد كان مستعمرًا من قبل فرنسا حتى تذكرت ما تعلمته في المدرسة عن معركة ديان بيان فو، والتي خاضها الشعب الفيتنامي ضد فرنسا بدعم من بلدي الصين ومن زعيمها ماو تسي تونغ. فتحت على خارطة العالم فوجدت أن الجزائر ليست بعيدة عن فرنسا، بينهما بركة ماء صغيرة، وبدأت أردد كلماتي الفرنسية مزهوا: (Amour, bien, merci).

حين شاع الخبر بين سكان القرية، خبر الترخيص لي بالسفر مع فريق من العمال اليدويين وبعض التقنيين والبنائين والرصاصين والمبلطين إلى مدينة الجزائر، وحدد يوم الرحلة، هجم على بيتنا ذاك المساء الأقارب والجيران والأصدقاء كبارًا وصغارًا، وكانت عمتي مرتدية ثوب السهرة ذا اللون الوردي المشوب بالأزرق والأصفر، توزع على الجميع مشروبًا كحوليًّا وهي التي اشتهرت وشاعت خبرتها

في تقطيره بطريقة تقليدية مثيرة وفريدة. كان الجميع فرحًا إلا العمة لم تستطع على الرغم من توزيعها للابتسامات الكثيرة على الحاضرين، أن تخفي ملامح حزن محفور على حفافي عينيها الصغيرتين. لقد كانت تريدني أن أظل في البلد كي أتزوج ابنتها، وأكتب فيها شعرًا ثوريًّا، وأتولى لاحقًا منصب مسؤول الحزب في المنطقة؛ نظرًا لما يتمتع به زوجها من علاقات مهمة مع مسؤولي المركز في بيكين.

من بين جموع الضيوف الذين جاؤوا لتوديعي كان هناك الجار الشيخ مان فو تونغ والذي كنا نطلق عليه اسم "شجرة الخروب" (لست أدري لماذا كنا نطلق عليه هذا الاسم). لقد تجاوز المائة سنة ولا يزال يقوم برياضته المفضلة، وهي السباحة في النهر صيفًا وشتاء. يشرب من مشروب عمتي المقطر أقداحًا ولا يرتوي ولا يتعب له عقل أو يضيع له لسان. كان هذا الشيخ، الذي كلما تقدم به العمر ازداد قصرًا حتى أصبح أقل مني طولا، رئيسًا لتعاونية فلاحية في المنطقة، قبل أن يحال على التقاعد الإجباري بعد وفاة ماو تسي تونغ، واستيلاء عصابة الأربعة على السلطة. كان محترمًا ومحبوبًا من قبل الجميع، الجميع يناديه بالجد مان. أحب أكلة إلى قلبه هي الذرة مشوية ومقلية ومسلوقة، عاش على الذرة قرنًا كاملاً، ولا يزال لا يأكل سواها، ولم يفقد سنًّا من أسنانه التي بدلها ثلاث مرات.

سحبني جانبًا، بعيدًا عن هرج المجموعة وقد بدأ شراب العمة يلعب في رؤوس الكثيرين، ثم بدأ يحدثني عن استقباله لبعض الفنانين وقادة الثورة الجزائرية، كان ذلك شتاء العام 1955 وقد مضى عام على انطلاق الثورة التحريرية ضد فرنسا الاستعمارية، وكيف أنه رافق فرقة مسرحية جزائرية تابعة لجبهة التحرير الوطني بقيادة مسرحي

شاب ووسيم اسمه مصطفى كاتب لتقديم عروضها في قاعات بـــبكين وبعض المدن الأخرى، ولم يخفِ إعجابه بالمغني أحمد وهبـــي بشـــكله الذي يشبه الممثلين الطليان، وأنه هو الذي كان وراء ترتيب كثير مـــن اللقاءات الصحفية لهؤلاء الشباب المملوئين حماسًا ثوريًّا، وحبًّا لبلادهم وللحرية والعدالة والاشتراكية: "لأجلهم تعلمتُ الفرنســية في ثـــلاث ليالٍ، وقد تمكنت من الحديث إليهم في اليوم الرابع. قد لا تصدق هذا ولكنها الحقيقة يا صغيري. أنت الآخر عليك أن تتعلم هذه اللغة؛ فهي مفتاحك للدخول إلى قلوب وعقول أبناء تلك المنطقة". كنت أشـــعر بالشيخ شجرة الخروب أو مان فو تونغ وهو يتحدث عن أعضاء وفد الثورة الجزائرية، وكأنما يتحدث عن ملائكة أو رسل نــــزلوا مـــن السماء أو من الجنة، ليحطوا على ميدان تين آن مين ببكين. مد يـــده إلى جيبه ثم أخرج صورة جماعية بالأبيض والأسود وعرضها أمـــامي، حيث يظهر مان فو تونغ بكل شبابه يتوسط أعضاء الفرقة المســرحية مبتسمًا، رافعًا يديه راسما علامة النصر الثـــوري، وخلفهـــم العلمـــان الصيني والجزائري، ثم بدأ يحدثني عن بعض شخصيات الثورة. بدت لي أسماؤهم صعبة الحفظ، وعن زيارته للجزائر بدعوة من أول حكومـــة جزائرية مستقلة كان يرأسها أحمد بن بلة.

كان الشيخ مان فو تونغ سعيدًا ومتأثرًا وهو يستعرض بعـــض ذكريات سفره إلى مدينة الجزائر ووهران ومنطقة القبائـــل خاصـــة مدينتي تيزي وزو وبجاية، وكيف كان لقاؤه حميمًا مع بعض عناصر الفرقة الفنية التي سبق لها وأن زارت الصين.

مضيفة الخطوط الجوية الجزائرية تعلن بأن الطائرة بدأت مرحلة النـــزول على مطار هواري بومدين الدولي، طالبة منا ربط الأحزمة

وتعديل ظهور المقاعد. رميت بنظري من خلال النافذة إلى الخـــارج، لحظات وإذا بالبحر يظهر من تحتنا متموجًا ما بين الأزرق والأســـود والأخضر، شربت جرعة من الماء، وانتبهت فإذا بغالبية أفراد المجموعة الصينية التي ترافقني على متن هذه الرحلـــة، مـــن عمـــال يـــدويين ومهندسين زراعيين ومعماريين، يستيقظون من نومهم دفعة واحـــدة محدثين ما يشبه الجلبة.

هذه أول مرة أغادر فيها الصين نحو بلد أجنبـــي، بدأت بـــيني وبين نفسي أردد الكلمات الفرنسية الثلاثة الـــتي أحفظهـــا وهـــي: (iAmour, bien, merc)، لماذا كنت أرددها؟ لست أدري!

حين حطت بنا الطائرة، بدا مطار الجزائر الدولي فارغًا وكأنما هجره الجميع، الساعة تشير إلى الخامسة مساء بالتوقيت المحلي، رتبت ساعتي على ساعة البلد، وقلت في نفسي هي حياة أخرى لأبدأها من الصفر.

طلب منا مفتش شرطة المطار الذي استغربت شـــكل شـــواربه المرتبة بعناية فائقة، أن نقف في صف واحد، نحن الصينيين، فهمـــت ذلك من إشارات صادرة من يديه: تحدد بحركة صورة شكل العـــين الصينية مصحوبة بابتسامة ساحرة.

وقفنا في صف طويل. كنا أزيد من سبعين صينيًّا، جميعهم مـــن الذكور إلا واحدة كانت بصحبة زوجها.

الكلمة التي سمعتها عشر مرات -على الأقل- منذ أن وقفت في الصف في انتظار دوري أمام بوليس حدود المطار هي كلمة: ســـافا (ça va). الواقع إنني اعتقدت بأنها تعني الجزائر بلغة أهل البلد.

(ça va) هي أول ما تعلمته من كلام الجزائريين، الواحد يتحـــدث مع الآخر فيقول له: (ça va)، ويرد الثاني بنفس ما قاله الأول: (ça va).

حين وصل دوري وقفت أمام الشباك نظر إليّ الشرطي الــذي لم يتجاوز العشرين من العمر، أو هكذا بدا لي، ثم خاطبني مبتســمًا: (ça va)؟

قلت بشكل عفوي: (ça va)!

وتلك كانت أول كلمة نطقتها في بلاد الجزائر.

تمت إجراءات الدخول بشكل عادي، يبدو أن مصالح المطــار أصبحت متعودة على دخول الصينيين أفواجًا أفواجًا إلى الجزائر مــع كل رحلة قادمة مباشرة من بكين على الخطوط الجزائريــة، أو عــبر مطار الدوحة على متن الخطوط القطرية، أو عبر دبــي على الخطوط الإماراتية، أو عبر الجوية التركية القادمة من إسطنبول.

حين وضعت قدمي على التراب الجزائري شعرت بولادة جديدة، أحسست وكأني مخلوق آخر، بين ضغط الطائرة في أذني وصمت المطار سمعت هاتفًا يكلمني وكأنه صوت أمي قائلة: ها أنت بجناحين كــبيرين تطير بهما آلاف الكلومترات.. كن أنت.. طر؛ فلك الحرية!

خرج أفراد المجموعة كاملــة وكنـــت لا أزال أردد: (ça va) وأضحك. في البداية قلتها بصمت، ثم بدأت أرددها عاليًا، نظـــر إلي أفراد المجموعة ضاحكين، ثم ما فتئوا هم الآخرون أن بدأوا يـــرددون معي الكلمة: (ça va)، وكنا نرقص ونرددها ونحن معتقـــدين بأنهـــا تعني: الجزائر باللغة العربية أو الأمازيغية.

كان بعض من في المطار ينظر إلينا بنوع من الاستغراب ونحـــن على هذه الحال من الهستيريا.

اقتربوا منا قائلين: (Ça va)؟

أجبنا وبصوت واحد: Ça va!

4

نظرت إلى سماء مدينة الجزائر، بدت لي منصوبة على أعمدة عالية، أرفع بكثير من تلك التي عليها نصبت سماء بكين التي كنت أستطيع أن أمد يدي فألمسها من خلال الدخان الملوث المتصاعد من كل الجهات.

عند بوابة مطار الجزائر الدولي، وجدنا أحد موظفي السفارة الصينية في استقبالنا.

قال لنا:

- من الآن على كل واحد منكم أن يختار له اسمًا محليًّا، اسمًا جزائريًّا.

نظر الجميع إلي مبتسمين قائلين بصوت واحد:

- يو تزو صن، أنت يناسبك اسم (ça va)، وضحك الجميع دفعة واحدة وبصوت عال.

قال الموظف في القنصلية:

- أسماؤنا صعبة على الحفظ، لذا علينا تبديلها بأسماء محلية عربية وبربرية، فأنا اسمي الحقيقي هو سان يان فو واسمي الجزائري هو فريد.

ضحكنا كلنا من كلمة فريد الغريبة، وقلت في نفسي إنها أصعب على الحفظ مقارنة باسمي يو تزو صن.

يو تزو صن

يو تزو صن

يو تزو صن

أمام بوابة المطار حيث وقفنا في انتظار وصول الحافلة التي ستنقلنا إلى مكان إقامتنا، نظرت في هذا الخلق الذي يمر من أمامي من أهل البلد، فبدا لي الجميع يشبه الجميع، لا فرق بين هذا وذاك، الشوارب هي نفس الشوارب، تحت الأنوف التي هي نفس الأنوف، والعيون بذات اللون الأسود والاتساع الدائري المشوه هي ذات العيون في كل الوجوه، النساء متشابهات لا يمكنك التفريق بين هذه وتلك: محجبات أو سافرات.

ركبنا الحافلة، ووزع علينا موظف القنصلية بعض الأوراق لملئها، كما منحنا قائمة بأسماء جزائرية على كل واحد منا أن يختار له منها اسمًا.

يونس.. أعجبني هذا الاسم، فاخترته لي لباسًا.

لماذا اخترت اسم يونس؟ لست أدري، لا أعرف للاسم معنى.

حين قررت التنازل عن اسم منحتني إياه قريتي، الأسماء عندنا تمنحها القرية، شعرت بحزن عميق وأنا أفكر أنني سأخرج من اسمي يو تزو صن، سأخلعه كما تخلع الحية جلدها وهو الذي حملني وحملته، تَحَمّلَني وتحمّلْتُه، سكنني وسكنته ثلاثة وثلاثين سنة، عمر المسيح.. يا إلهي! الاسم مرآة صاحبه، لباس حشمته، من تخلى عنه تعرى وانكشفت عورته للعام والخاص. شعرت وأنا أفكر في التنازل عن اسمي يو تزو صن كأنما أتعرى أمام الناس جميعًا، لكن الذي

خفف عني قلقي هو أنني أتعرى أمام أناس لا أعرفهم، ذاك أهون عليّ من التعري أمام أقارب لك أو معارف.

أنا غريب، إذن أنا حر. هكذا شعرت بنفسي وأنا أسكن اسم يونس. نفضت عني اسمالذي يو تزو صن الذي أحبه كثيرًا، وكانت قريتي تفتخر به، وبه تباهى أبي وأمي، وعشقته ابنة عمتي التي كانت تتمنى أن أتزوجها وننجب طفلة أو طفلاً، بحسب ما تسمح به مدونة الأسرة وقانون الإنجاب، ونسميه بـ يو تزو صن الثاني.

الجو معتدل لا يختلف كثيرًا عن ذاك الذي تركناه في بكين، سوى أن الهوّاء هنا أصفى وأنعش في مقابل تلوث كبير هناك؛ حيث السماء كلها كتلة غيم سوداء صيفًا وشتاء.

الآن أشعر بحب كبير لبكين، وبرفض للبكينيين.

يجلس بمحاذاتي في الحافلة سون با سن، ابن صاحب مزرعة الحجل، عاشق أمي، والذي يقال إنه يشبهني كثيرًا، الأمر الذي جعل البعض يعتقد بأنني لست من صلب أبي، بل إنني ابن صاحب خم الحجل، خرجنا أنا وإياه من بيضة واحدة، بيضة بُمحَّيْن، حيث كما تروي الألسن أن صاحب المزرعة قد نال وطره من أمي في الخم بين الحجل، ومن هذه العلاقة جئت أنا. أنا ابن خم الحجل وليس ابن الصين، صاحبي ابن صاحب مزرعة الحجل يسمى سون با سن، وقد كبرنا معًا وكثيرًا ما نمنا على سرير واحد، وأكلنا من بيض المزرعة ومن لحم فراخها. يشبهني أو أنا أشبهه حد تسميته بأخي التوأم؛ فنحن ولدنا في ربيع واحد، بيني وبينه بعض أيام قليلة. يبدو سون با سن ساهيًا وكأنما يفكر في أمر بعيد، أو كأنه يقرأ دفتر الأيام القادمة علينا في هذا البلد الغريب، يسبح بعينين فارغتين في هذه البنايات التي تعود إلى العهد

الاستعماري الفرنسي، والتي بدت لي -على جمالها المعماري- متعبة، وقد سكنتها الشيخوخة المبكرة من غياب الصيانة.

سارت بنا الحافلة التي استأجرتها القنصلية الصينية لنقلنا وأغراضنا قرابة الساعة أو يزيد. ازدحام الشوارع بدا خفيفًا ونحن نقطع العاصمة، وقد قال لنا المرافق موظف القنصلية إن مدينة الجزائر من أكثر مدن المتوسط ازدحامًا، إلا أن اليوم هو يوم جمعة، الذي هو يوم عطلة نهاية الأسبوع، الحركة خفيفة والشوارع سالكة مقارنة بأيام الأسبوع الأخرى.

نزل الليل بسرعة، لم أنتبه كيف نزل ولا من أي سماء سقط!

وصلنا إلى إقامة جماعية عبارة عن مجموعة بنايات جاهزة قديمة مهترئة، وقد تآكلت أبوابها والنوافذ، أعمدة الإنارة العمومية مكسورة أو محترقة مصابيحها. بدت لي أشكال هياكل البناية المتهالكة، وهي غارقة في الظلمة، شبيهة بحيوانات خرافية في لحظة الانقراض المتسارع. بعض العمال يتحركون بصمت أو وشوشة، رائحة طبخات تعبق بالمكان، قطيع من الكلاب تحوم حول البنايات، نبحت فينا قليلاً ثم سكتت وعادت إلى ما كانت عليه، وكأنما أدركت بأنا هنا معها لقاعدون.

الإقامة في هذه البنايات مؤقتة، هكذا قيل لنا، كل من عبر من هنا لم يطل به المقام أكثر من سنة، لينتهي باقتناء شقة في حي خاص بالصينيين، حي الشناوة.

انتبهت فإذا بكلبة ساخنة، في أيام خصوبتها، يتبعها ذكور كثر، كل يشتهيها وينتظر فرصته. تعجبني الكلاب أيام سخونتها، صغيرًا كنت أقف أمام كلبة مربي الحجل، أنظر إليها وقد التصق بها كلب

لم أكن أراه أبدًا إلا في مثل هذه الأيام، يغيب لفترة شهور، وحين يعود لا أراه إلا مغروسًا فيها. كان من سلالة شاربي، يهزم جميع الكلاب ويغنم مؤخرة الكلبة الطاردة. وكان هذا المنظر يثير فيّ إحساسًا غريبًا، وهو ما جعلني ذات مرة أجرب أنا الآخر الالتصاق بكلبة مربي الحجل كما يفعل ببراعة هذا الكلب الغريب، وحين اقتربت منها استأنست في البداية بملاطفتي لها وتغزلي بها، ولكنها ثارت وهاجت وأبانت عن أنيابها حين حاولت أن ألجها، وكادت تقضم لي عضوي، من يومها عرفت بأنها عاشقة ووفية لذاك الغريب الذي يزورها في فترات محددة، وأن مؤخرتها صنعت له دون غيره من الكلاب، أو من أبناء خم الحجل من أمثالي.

علي أن أحترم وصية ملك الحجل، الذي قال: (عليك أن تظل مع سون با سن، إنه أخوك، إنه مثل أخيك.)

أنا أحب غناء الحجل.

أنا لا أخون الوصية، حتى وإن كنت أشعر بانزعاج، لا أعرف له سببًا، من تواجد سون با سن بجانبي دائمًا، إنه مثل ظلي الثاني.

توزعنا على واحدة من البنايات الجاهزة، الغرف بها مستقلة مع دورة مياه وحمام مشتركين على مستوى كل طابق، وكانت غرفتنا في الطابق الأرضي، غرفة بسرير بطابقين. اخترت أنا السرير العلوي، وظل ابن مربي الحجل في السرير التحتي. شعرت بعطش، قمت بحثًا عن الحنفية المشتركة لملء قنينة ماء.

ماء الجزائر.

ليل الجزائر.

حلم في الجزائر.

5

ليلة باردة وماطرة، شعرت فيها بحنين غير عادي، ولأول مرة أتذكر، وبعمق كئيب، ابنة عمتي التي كانت تحلم أن تنهي دورتها التدريبية لتصبح معلمة ابتدائي في الرياضة البدنية، ونتزوج ذات يوم ونسافر خارج البلد إلى إسبانيا أو المكسيك.

هو الشتاء الثاني الذي أقضيه في هذا المهجع. الأيام تمر بسرعة، بين العمل في الورشة وأحاديث العمال والخرائط، روتين مدينة الجزائر متحرك، لا يشبهه روتين، يدور في فراغ، ولكن بضجيج عال.

كلما تذكرت ابنة عمتي تذكرت الأشرطة المرسومة، فن المانغا، ومعها حكاية مُربِّي الحجل. كنت دائما أتمنى أن أُصبح ذات يوم أحد الأبطال الخارقين في هذه الرسومات. كانت كتب الأشرطة المرسومة الغربية ممنوعة علينا، ولكن مربي الحجل كان يحضر لنا بعضها بسرية، من السفارة البريطانية والفرنسية والألمانية واليابانية، حتى وإن كانت أعداد تلك المجلات قديمة، إلا أنها كانت مثيرة ومدهشة بالنسبة لي. أنا لا أعرف اللغات الأوروبية ولكني كنت أفهم هذه القصص المرسومة دون العودة إلى اللغة التي بها كتبت النصوص المصاحبة. كنت أنسج حكايات خاصة، أصبغها على الشخوص كما يحلو لي، وكانت تلك متعتي.. ذوق الحرية. كان يوم تسليم مربي

الحجل طلبات السفارات الأوروبية من الحجل والبيض هو يوم عيد عندي، على عتبة منزلنا أنتظر عودته النهار كله، أتصنع المرض كي لا أذهب لدرس التربية الحزبية أو درس الموسيقى، إلى أن جاء يوم هجم علينا رجال الشرطة السرية وفتشوا بيت مربي الحجل وبيتنا والخم كذلك، وأثاروا الرعب في أسراب الحجل وكسروا بعض البيض، وداسوا على بعض الفراخ الصغيرة، وحين اكتشفوا المجلات والكتب المرسومة المكتوبة بالألمانية والفرنسية والإنجليزية واليابانية، صادروها منا، واقتادوا مربي الحجل إلى مخفر الشرطة ليختفي أسبوعين كاملين، عاد بعدهما وقد فقد كثيرًا من وزنه ومن عقله أيضًا؛ إذ أصبح يقضي أيامه يتكلم مع الحجل بلغة غريبة، ربما العربية أو العبرية، (هكذا قالت أمي) وأصبح يحب حجله أكثر من السابق. كما أنه، وبشكل فجائي، شرع في نظم قصائد غزل طويلة في أمي، وأناشيد حماسية في الحزب الشيوعي، وعاد أيضًا للغناء والعزف على آلة الناي التي يصنعها من قصب ينبت على حفافي نهر صغير يجري بالقرب من قريتنا، التي تبعد عن بكين مسافة ساعتين على متن جرار تعاونية معصرة العنب، وكانت أمي خلال غيابه حزينة، وقد تولت الإشراف على مزرعة الحجل. وقد ازداد حزنها عليه بعد عودته من هذا الغياب القصير، وهي التي كانت تتوقع أنه سيكون طويلا أو بدون عودة، وقد تغير كليًا ولم يعد يتكلم سوى عن أبيه الذي مات في حرب قيل إنها كانت ضد أعدائنا اليابانيين. مع كل ذلك، فحياته الجديدة جعلته أكثر قربًا من أمي، وجعلت الناس لا يأخذونها مأخذ الأخلاق؛ إذ إن الرجل فقد كثيرًا من عقله ومن لغته ومن جسمه، ولكن قوته الجنسية زادت بكثير عما كانت عليه، وكانت أمي هي

الأخرى مرتاحة لوضعه هذا الذي جعلها لا تتحرج في إدخاله بيتنا، وإطعامه من يديها، وغسل ثيابه الداخلية ونشرها أمام الجيران على حبر مشدود بين شجرتين قدام الباب جهة الحديقة.

لماذا هذا الليل العاصمي البارد يذكرني بمربي الحجل؟

كان درس العربية اليوم بسيطًا. لقد قررت منذ ستة أشهر تعلم اللغة الجزائرية في المركز الأسقفي للدراسات والأبحاث بوسط العاصمة، بدأها بالكلمات المستعملة بشكل متواتر في الحياة اليومية، تلك المرتبطة أساسًا بالتسوق والإدارة والسفر والعلاقات العامة. أنا الآن أتكلم الجزائرية بشكل لا بأس به، وغالبية العمال الصينيين يتكلمون العامية الجزائرية بيسر، وبها يتعاملون مع الأهالي.

بيننا والأهالي ود مشوب بحذر لا أدري مصدره؟؟؟

وجدت تعلم العربية أيسر بكثير من الفرنسية، ولكنني أشعر بأن اللهجة الجزائرية مليئة بالكلمات الفرنسية التي تنطق بطريقة محلية، فمن يتكلم الجزائرية يتفاهم مع من يتكلم الفرنسية والعكس صحيح.

أول ما تعلمه في هذه المدينة هو الحساب، ففي أقل من شهر كنت أعرف التعامل بالأوراق النقدية بشكل عادي جدًّا، شأني في ذلك شأن جميع الصينيين في الحي الصيني، كما في شاليهات العملة في الأوراش الأخرى.

الحساب هو مفتاح علاقتنا مع الجزائري، الجزائري على الرغم من ظاهره القاسي إلا أنه إنسان رومانسي لا يهتم كثيرًا بالحساب وبالفلوس. يتحدث كثيرًا في الرياضة والدين وموسيقى الراي، المساجد مليئة بالمصلين يوم الجمعة، والملاعب الرياضية أيضًا وسهرات الراي صاخبة، عالم متناقض ومثير.

تمددت فوق السرير، فتحت كراستي لمراجعة درس اللغة العربية، فجأة، وإذا بسرب من سيارات البوليس يحاصر مقر إقامتنا، الأضواء الكاشفة تحاصرنا من كل جهة، نزل النهار عند منتصف الليل، اقتحموا الإقامة، هجموا على الغرف، فتشوا أمتعتنا، كان رجال الشرطة مدعمين ببعض الكلاب المدربة، قبل أن تنزل من سيارات الشرطة تبادلت النباح الحاد مع مجموعة من الكلاب الضالة التي تعيش معنا في الإقامة.

فتشوا غرفتي وصادروا جميع أغراض أخي الذي ليس بأخي، أخي الذي وُلدنا، أنا وهو، سوية من بيضة واحدة بمُحَّيْن. لم يكن ابن مربي الحجل موجودًا في الغرفة، إنها الليلة الثالثة على التوالي التي لم يعد فيها إلى الإقامة. على كلٍّ: لم يعد غيابه يقلقني، منذ فترة، تعود أن يقضي بين الفينة والأخرى لياليه في الحي الصيني (حي الشناوة)، أو عند بعض معارفه من الجزائريين الذين يشتغلون في استيراد السلع الصينية، من أدوات وكراريس ومحافظ وكل ما له علاقة بالحياة المدرسية، وهو الذي أصبح وسيطًا وشريكا في كثير من الصفقات مع متعاملين في بكين وشنغهاي وهونكونغ، حتى إنه حدثني علي أنه يعمل على تأسيس شركة استيراد مع أحد الوهرانيين، متخصصة في الأدوات المدرسية.

بعد تفتيش الغرفة، لم يتركوا شيئًا إلا وأخرجوه أو وضعوا الكلب أمامه، كان الكلب يتشمم كل شيء وقد بدا لي متوترًا. التقطوا صورًا كثيرة لبعض أغراض سون با سن: الملابس والحقائب والسرير وأدوات الحلاقة والصابون ومعجون الأسنان.. وتوقفوا لبعض الوقت أمام بعض الكتابات والشعارات والحسابات والتواريخ

التي خطها على الحائط أو على السرير، والتقطوا لي أنا الآخر صورًا كثيرة وأنا حافي القدمين، أرتدي البيجاما الحريرية المخططة. لكـــني بمجرد أن شعرت بفلاش آلة التصوير من نوع كوداك ينـــزل علـــي كرشاش، على عجل ارتديت الجاكيت الجلدي وانتعلـــت حـــذائي الرياضي من نوع نايك صناعة صينية غير أصيلة، وحاولت أن أبتسم للمصور الذي بدا لي منـــزعجًا ومتوترًا توتر الكلب البوليسي الذي بجانبه.

سألوني أسئلة عادية عن يوميات سون با ســـن، شـــريكي في الغرفة وفي مُحّ البيضة، عن العلاقة العائليـــة الـــتي تجمعنـــا، وعـــن الأشخاص الذين يزورنه في الإقامة، وأين يقضي لياليه حين يتخلـــف عن الغرفة. كنت أجيب بما أعرف دون تردد أو تســـتر أو خـــوف، قلت كل شيء، كان مسؤول الفريق يسألني بعربية تكـــاد تكـــون فصيحة، وكنت أجيبه بالدارجة الجزائرية، وقد اكتشفت بأن لغـــتي قادرة على قول ما أريد قوله دون كثير جهد. كان بعـــض عناصـــر الشرطة الواقفين من حوالينا يخفون ضحكاتهم من طريقة نطقي لبعض الكلمات.. ربما! هذا ما قرأته على ملامحهم.

قلت لرئيس الفرقة إن سون با سن قضى ليلة البارحة خـــارج الإقامة، وهي ليست المرة الأولى التي يقضي فيها لياليه عند أصدقاء له يسكنون حيًّا على أطراف العاصمة.

بعد حوالي ساعة تقريبًا ســـحبوا كلبـــهم، دارت محركـــات السيارات ثم ابتعدت الأضواء عن الإقامة، وقد صادروا من الغرفـــة مجموعة من الوثائق الشخصية والصور والكتب والمجـــلات الخاصـــة بـــي وبـــ سون با سن.

قبل أن ينسحبوا، تحت أنظار مساكن إقامة المهندسين والتقنيين والعمال الصينيين، الذين بدت على ملامحهم حالة من الهلع، سلمني قائد المجموعة استدعاءً للحضور في اليوم التالي إلى مخفر مقاطعة دالي إبراهيم، وقعت عليه ووضعته في جيب البيجاما.

حين ابتعدوا، وما عدت أسمع صوت محركات السيارات ولا نباح الكلاب المشردة التي تملأ أطراف الإقامة، تسللت إلى سريري، حاولت أن أنام فما استطعت. طار النوم بعيدًا عن وسادتي وحط في الخارج، نزل على رصيف الشارع البارد ينتظر الصباح. شعرت بقلق، حاولت أن أهدئ من روعي قائلا بيني وبين نفسي: "أنا مهندس منتظم الحركة، لا أدخل أنفي في ما يجري في المدينة، علاقاتي محدودة جدًّا، معارفي من أهل هذه المدينة يعدون على أصابع اليد الواحدة، حتى السينما التي أعشقها منذ الطفولة والتي تعودت مشاهدة جميع الأفلام المسموح بها في مدينتنا، ها أنا ذا أتخلى عنها في هذه المدينة. لقد حاولت مرة واحدة مشاهدة فيلم في قاعة سينما "الجزائرية" في شارع ديدوش مراد، يومها وجدت جمهورًا غريبًا لا يتوقف عن الصراخ والتعليق؛ فاعتقدت أنني في مظاهرة سياسية مما اضطرني لمغادرة القاعة قبل نهاية الفيلم الذي لم يكن سياسيًّا، بل بوليسيًّا اجتماعيًّا، يصور حكاية عشق رجل بوليس لزميلة له في المهنة، والتي تخونه مع أحد الملاحقين من قبل الشاني.. خرجت من القاعة حزينًا، ومن يومها لم أضع رجلاً في قاعة عرض".

وأنا أجري خلف النوم الذي هرب بعيدًا، حاولت استعادة صورة أمي، إلا أنني لم أفلح، كلما حاولت تقريب وجهها تسكنني

صورة الكلب البوليسي وهو يتشمم أغراضي وحقائب سون با سن، أنا لا أعرف هل أحب أمي أم أكرهها!

ثم عبثًا حاولت استرجاع بعض ملامح صورة ابنة عمي الـــتي كانت تحلم أن تصبح معلمة الرياضة البدنية، فوجدت نفسي منشغلا مرة أخرى بالكلب، وبمذكرة الاستدعاء التي تركها لي الشرطي قائد المجموعة، والتي لم أقرأها، المهم أنني عرفت فحواها. أخرجتها مـــن جيب البيجاما التي أشعر بها رطبة من عرق بارد يقطر نازلاً من أعلى ظهري، لم أتمكن من قراءتها؛ فهي مكتوبة بالفرنسية، ميـــزت فيهـــا التاريخ والساعة والمكان.

قلق عميق يساورني على مصير سون با سن، فهو شاب متهور قليلاً ومغامر أيضًا منذ أن كان لاعب كرة القدم في فريق قريتنـــا. لا أنسى له محاولاته المتكررة استدراج ابنة عمي بعسل كلامه ووعوده التي كان يريد من ورائها أكل قلبها، لكنها كانت غارقة حتى الأذنين في حبـــي، أنا الذي كنت غارقًا في مجلات نجوم السينما الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين، وكتب الأشرطة المرسومة التي كان يجلبها لي عشيق أمي من الملحقات الثقافية في السفارات الأوروبية.

حاولت أن أمحو من ذاكرتي كل ما هو مزعج في علاقتي بـــــ سون با سن، فهو على الرغم من كل ذلك، شاب له أنفـــة كـــبيرة ويملك ثقافة تاريخية مثيرة. كثيرًا ما جلســـت إليـــه للاســـتماع إلى تحليلاته في أمر من أمور البلد أو المقاطعة التي منـــها جئنـــا، أمـــور الاقتصاد والأسفار وقليلاً من السياسة وكثيرًا من أمور النساء.

لم أنتبه لمرور الليل فوق عينيّ، كيف عبر وسادتي وانصرف على رؤوس أصابعه، وإذا الصباح يطل علي من خلال سماء غائمة حزينـــة

على وشك أن تنهمر مياهها فـوق الشـوارع الوسـخة، وتـلال القاذورات المتراكمة على الأرصفة. عمـال النظافـة في إضـراب، والرطوبة اللزجة، على الرغم من كل هذا الحزن الذي أشعر به كـل سنة في مثل هذه الأيام، فإن أَحَبّ الفصول إلى قلبـي هـو فصـل الخريف، فيه أشعر بحالة من الدفء الذي يوحي بأن الحياة تتأهـب لولادة جديدة بعد صيف يابس، وقيلولات قاتلة، وغبار عميم.

مددت يدا ثقيلة فتحت النافذة الصغيرة التي تجـاور سـريري، دون أن أغادره.

•

6

صباح خريفي بمطر من رذاذ، أشعر بإرهاق كبير، رقبتي تؤلمني.. دوخة.

تساءلت: هل مجيء الشرطة إلى الإقامة بحثًا عن سون با سن، وتركهم لي مذكرة استدعاء هو كابوس أم حقيقة؟ نظرت إلى أسفل، وإذا سرير سون با سن فارغ لليلة الرابعة أو الخامسة على التوالي، وألقيت بنظرة وإذا بمذكرة الاستدعاء موضوعة على الطاولة عند قدمي جهاز التلفاز الصغير الذي نسيته مشغّلا.

البارحة كانت في جيب البيجاما، كيف وصلت إلى الطاولة؟

انسحبت من الفراش، فإذا بي أجدني وقد نمت بحذائي الرياضي وبالجاكيت الجلدي فوق البيجاما. غسلت وجهي بماء بارد، حلقت ذقني الذي بدا لي بلون الميت وقد بدا بعض شعر أبيض يتخلل الأسود.

على عجل، تناولت قطعة خبز عليها لمسة خفيفة من مربى المشمش مع كأس شاي بالحليب، ثم أسرعت الخطو إلى الخارج. كان العمال قد غادروا الإقامة، لم يبق منهم سوى واحد مصاب بعطب في ساقه اليمنى جراء حادث عمل كاد يفقده الحياة. وأنا أهم بمغادرة الإقامة، حيّاني وهو جالس على كرسي يقرأ كعادته في أحد روايات كاتبه المفضل تولستوي، قائلاً: "اسمع يا يونس، السعادة أن

يكون لك ثلاثة أشياء: شيء تعمله، وشيء تحبه، وشيء تطمح إليه..".

رددت عليه التحية بحركة من يدي، دون أن أرفع عيني من على حذائي الذي بدا لي وسخًا: "الأناقة تبدأ من الحذاء".. قلت في نفسي.

وقفت على الرصيف أنتظر وسيلة نقل توصلني إلى مقر مخفر شرطة دالي إبراهيم.

تظل شوارع مدينة الجزائر غاصة كل أيام الأسبوع، زحمة السيارات لا تتغير من الساعة السابعة صباحًا وحتى الثامنة ليلاً، كأن الجزائري يشتغل خلف مقود سيارته. في العواصم الأخرى وفي مدن الدنيا كاملة تشتد حركة السير في ساعات الذروة، ساعة الدخول إلى العمل أو الخروج منه. أما في مدينة الجزائر فساعة الذروة هي على مدار اليوم. الناس تسرع في اتجاهات متعددة، ينتهي اليوم دون الوصول إلى هدف ليبدأ الجري في اليوم التالي، وهكذا دواليك: صيفًا وشتاء، ربيعًا وخريفًا، الناس تلهث دون أن تعرف خلف ماذا هي تجري، ولماذا هي تجري، ولكن عليها أن تجري.. أن تسرع دون أن تدري مع من تتسابق، لا نقطة انطلاق ولا نقطة وصول، هو الجزائري خلق هكذا!

شوارع مدينة الجزائر العاصمة تكون سالكة ومريحة في حالتين، لا ثالث لهما: ساعة إجراء مباراة كرة القدم بين فريقين من الفرق الشعبية في المدينة كمولودية الجزائر، أو شباب بلوزداد (شباب بلكور سابق)، أو اتحاد العاصمة، أو ساعة موعد آذان الإفطار في شهر رمضان.

وحدها كرة القدم، وساعة آذان الإفطار في رمضان قادرتان على توقيف ضغط حركة المرور بالعاصمة، ساعتها تبدو المدينة جميلة وهادئة، جالسة على مرتفع يشبه المدرج الروماني، تتأمل بحكمة البحر الرابض عند أقدامها. في مثل هذه الأوقات الاستثنائية، أفضل المشي في الشوارع الخالية دون توقف، أتفحص العمارات الكولونيالية العتيقة ذات الهندسة المعمارية المثيرة، ببلكوناتها المنقوشة والتي أتعبها الزمن والإهمال وغياب الصيانة. وأتأمل الأرصفة الفارغة من المارة، فأجدها واسعة ومريحة، وأكتشف جمال المدينة الخارق الذي أثار كثيرًا من الكتاب والرسامين التشكيليين من أمثال ألبير كامو وماركس وأندري جيد ودولا كروا وماتيس وبيكاسو.. في الأزقة الضيقة يثيرني لعب القطط وتزاوجها، ومواء الرغبة المتصاعد من كل جهة، وصراعها على بعض بقايا المأكولات عند بوابات المطاعم الصغيرة الشعبية المنتشرة بكثرة في وسط المدينة.

الدين والرياضة وموسيقى الراي أكلوا عقل الجزائري وروحه، إنه لا يعيش ولا يفكر خارج هذا الثلاثي.

على بعد أمتار مني توقفت سيارة إسعاف.. نعم! سيارة إسعاف تُشغّل كسيارة نقل جماعي؟؟ لا يحدث هذا إلا في الجزائر. نظرًا لأزمة النقل العمومي، وتفشي البطالة، وشراء السلم الاجتماعي! وإطفاء للغضب الشعبي: تغض السلطات المحلية بالمدينة الطرف عن هذه المهن غير الشرعية.

أسرعت، كما أسرع آخرون، في اتجاه سيارة الإسعاف، وقد تمكنت من أن أجد لي مقعدًا في الزحام، كان السائق قلقًا، أو هكذا بدا لي من حركات يديه، بدأ يتحدث بغضب ويسبنا وكأننا نحن

السبب في تأخره عن شيء مهم قد يفوته في يومه هـــذا. بمجـــرد أن تحركت السيارة بدأ يتحدث عن مشاكله الأسرية وراتب الوظيفـــة العمومي الضعيف، فهو يعمل ممرضًا وحارسًا وسائقًا و... في مشفى تابع للقطاع العام، والراتب لا يكفيه لتلبية حاجيات أسرة من خمسة أفراد: أم وزوجة أخ بثلاثة أطفال هجرها زوجها مقسمًا ألا يعود إلى البيت، مما يضطره للاستيقاظ باكرًا ليشتغل سائقًا بسيارة الإســـعاف هذه التابعة للمؤسسة الاستشفائية، كسيارة أجرة، حـــتى الســـاعة العاشرة، ليلتحق بعمله حوالي العاشرة والنصف، معتذرًا ككل يـــوم للمدير عن التأخير، ومع كل يوم قصة جديدة كسبب للتأخر: مرض الزوجة (مع أنه غير متزوج)، أو الطفل، أو موت أحد الجـــيران، أو عطل في السيارة، أو حادث مرور أو أو... لا يعير المدير كبير أهميـــة لتبريرات الممرض (السائق - الحارس و...)؛ فهو الآخر لا يلتحـــق بعمله قبل العاشرة والنصف أو الحادية عشرة، لا يهم. يشتغل السائق حتى الساعة الثانية مساء، وبعـــدها ينســـحب للعـــودة إلى ســـيارة الإسعاف، هي في الحقيقة سيار نقل الجثث، التي يركنها في موقـــف العيادة لينطلق بها للعمل كسيارة أجرة حتى الساعة العاشرة ليلا.

"الدولة غنية، والشعب فقير". كان يشرح لنا صراعه مع هـــذه الحياة الصعبة والأسعار الجنونية، والراتب الواحد الـــذي لا يكفـــي حتى لتغطية مصاريف أسبوع أو بالكاد نصف شهر، وأنـــه يرتـــب أوراقه للهجرة من هذا البلد الملعون إلى كندا، والتي يقال عنها إنهـــا بلد يحترم الأجانب، والعنصرية فيه قليلة مقارنة مع ما يجري في فرنسا مع صعود الجبهة الوطنية الفرنسية. فرنسا لم تعد حلم الجيل الجديـــد من الجزائريين.

أرسل نظرة غامضة في اتجاهي، من خلال المرآة الارتدادية، وقال:

- أنتم الصينيون خلقتم للعمل، للعمل فقط، أنتم الذين ستبقون في هذا البلد بعد أن يهجره أهله جميعًا. سيخرج الجزائريون -واحدًا بعد الآخر- من هذا البلد لتكونوا أنتم ورثة هذه الأرض بعد أن يفسدها المفسدون من أهلها، أنتم من سيعيد الحياة إليها: إلى أرضها زرعًا، وصناعتها إبداعًا، وشبابها حلمًا.

وأخذ يشتم الأحزاب والنظام الحاكم، ومديره في المؤسسة الاستشفائية الذي يسرق كل شيء؛ من طعام المرضى إلى الضمادات والإبر وأقراص البراسيتامول والواقيات والفياغرا.

لم يتكلم أحد من الراكبين المكدسين، في صمت، كان البعض يبدي بعض قرف من هذا الحديث المتشائم في مثل هذه الساعة الأولى من الصباح، وحين لم يسمع تعليقا على غضبه وسبابه غمغم عبارة لم أتبين فحواها، ثم رفع صوت المسجل ليسمعنا صوت مقرئ القرآن.

نظر إلي ثانية، من خلال المرآة الارتدادية، قائلا:

- أنا لا أستمع سوى إلى الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، إنه دوائي! أنتم شعب العمل والأخلاق، حين تصبح الصين مسلمة سيعم الإسلام الصحيح العالم، ويعم القرآن القلوب من مغارب الشمس إلى مشارقها.

ثم سألني: "هل القرآن مترجم إلى الصينية؟".

رماني بنظرة أخرى متفحصة كأنما يبحث في ملامحي عن شيء ضائع ثم قال:

- سمعت البارحة من رجل شرطة ركب معي آخر الليل أنهم عثروا على شاب صيني مذبوح بشكل مرعب بعمارة في طور البناء بالضاحية الشرقية للعاصمة، بحي يسمى حي الشناوة، (حي الصينيين). إنها الضحية الصينية الأولى منذ أن بدأ الصينيون يزحفون على المدن الجزائرية، بعد أن أغرقت سلعهم المختلفة والرخيصة السوق الجزائري من الأدوات المدرسية، مرورًا بالعدسات اللاصقة، وصولاً إلى السيارات، وستلتحق الطائرات والقطارات والتراموايات... وربك أعلم.

أنتم على كل شيء قادرون.

لم أرد على السائق، فاعتقد بأنني لم أفهم كلامه. حاول أن يروي خبر اغتيال الصيني بالفرنسية، وكما في الأول، لم أعلق على الحكاية.

شعرت به قد تذمر لصمتي وكأن شيئا لم يقع، بعصبية بادية أخرج سيجارة، أشعلها ثم التفت إلى الراكب على يمينه قائلا:

- لماذا لا يرد هذا الشينوي؟

قال الذي بجواره:

- أكيد أنه لا يفهم العربية ولا الفرنسية، إنهم يفهمون لغة الإسمنت والباتون والمعاول الكهربائية وفؤوس الحفر اليدوية.

قال السائق وقد غمرنا بدخان سيجارته:

- من يتكلم الصينية قادر على تكلم وفهم لغات العالم جميعًا، ألم يقل الرسول.. فرد الجميع من الركاب، نساء ورجالا، دفعة واحدة:

- عليه الصلاة والسلام.

واصل حديثه وهو ينفخ الدخان بشكل سحب كثيفة كمحرك ديزل مهترئ:

- قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "اطلب العلم ولو في الصين"، كل العلوم موجودة في الصين.

ثم تساءل أحد في الخلف: "هل زار الرسول الصين؟".

أجاب السائق: "الرسول ليس بحاجة للسفر، إن له علم الأولين والآخرين، علم المسافات والأزمان".

لم أتكلم، مع أنني شعرت بنوع من الارتباك، عاد السائق للتحديق في ملامح وجهي بحدة وتفرس.

التفت جميع مَنْ في السيارة إلي، وكأهم اكتشفوا فيّ إما الضحية أو القاتل.

عاد السائق لمراقبتي من خلال المرآة الارتدادية، فكرت أن أطلب منه التوقف لكي أنزل حتى قبل أن أصل إلى مبتغاي، لكني ترددت، نظراته أحرجتني، وشعرت وكأنني أنا الميت أو أنا القاتل!

الجالس إلى جواري تزحزح قليلا من مكانه كأنما أراد الابتعاد عني، متحاشيًا أن يلمس جسده جسدي ونحن مكدسين في هذه السيارة الضيقة كالسردين المتعفن. انتبهت إليه فإذا هو شاب بلحية وبلباس أفغاني، ابتسم لي وكأنه يعرفني.

عاد السائق لحكاية الشاب الصيني الذي عثر عليه مذبوحًا في عمارة قيد الإنجاز، قائلا دون أن ينزل عينيه من علي:

- أنتم الصينيون تتشاهون! لقد تعذر على رجال البوليس التأكد من صحة مطابقة الصورة التي على الهوية التي

وجدوها في جيبه مع الصورة الحقيقية للميت.

ثم سألني ضاحكًا:

- كيف تفرقون بين هذا وذاك، كيف تفرق زوجتك بينك وبين جارك؟

وأرسل ضحكة طويلة وهو يضرب بقبضة يده على المقود.

مفتعلا عدم الفهم وعدم الانتباه ابتسمت لضحكته، وأنا أستعجل النزول لأتخلص من هذه النظرات الشرسة والخبيثة التي تلتهمني من خلال المرآة الارتدادية. نظرت إلى ساعتي، مفتعلا حركات من تأخر عن موعد مهم، إنها التاسعة إلا الربع. أعرف جيدا عنوان مخفر دالي إبراهيم؛ فقد سبق لي أن جئته ثلاث مرات أو أكثر، وذلك لأجل تقديم طلب رخصة العمل، ثم رخصة الإقامة المؤقتة، ثم رخصة السياقة، ثم شهادة الإقامة طويلة الأمد لاحقًا، والتي حصلت عليها في ظرف قياسي؛ إذ قيل لي إن السلطات الجزائرية لا تضع عراقيل بيروقراطية في وجه الصينيين للحصول على الإقامة، فهم منضبطون، يحترمون التقاليد ولا يظهرون في الحياة العامة: لا في المدينة ولا في الأحياء التي يقيمون بها، يعيشون في شبه سرية، يمشون في الظل، ويفكرون بهدوء، ويعملون كثيرا ودون ضجيج، إنهم النمل الشغيل.

قبل أن أدخل المخفر شعرت بانقباض في معدتي، وكأنني متهم في جريمة ارتكبتها وأنا الآن بصدد البحث عن نكران ما قمت به. وبكل الطرق، بدأت في التفكير في خطة لإبعاد الشبهة عني، ثم رأيتني في أول طائرة تعود بي إلى بكين على الخط المباشر: الجزائر - بكين، وأنا آكل مرارة ما قمت به، ما اقترفته يداي! أتخيلني عائدا إلى

قريتي خاوي الوفاض، دون مال ولا أحلام، تستقبلني عمتي باكيــة، وقد بدا عليها الهرم وابيض شعر رأسها عند المفرق، ونبتت لها لحيــة بزغب ناعم على مقدمة ذقنها، أتحاشى النظر إليها، ومثلي تتحاشــى النظر إلي.

قاعة الانتظار فارغة، بها سبعة كراسٍ بلاستيكية مثبتة الأقدام في الأرضية الأسمنتية الباردة الوسخة، بعض أعقاب السجائر بــالأرض، وبقايا بصاق الشمة لاصق في السقف الهابط. جلســت علــى أول كرسي صادفته، غجغجت مفاصله، مسنده مكسور، رائحة دخــان سيجارة وصلتني قادمة من مكتب في آخر الرواق المظلــم، ألقيــت نظرة، هناك مكتب بابه مفتوح، تنحنحت كي أشعر من به بوجودي في المكان، لكن لا أحد استجاب.

الساعة تشير إلى التاسعة والربع وبعض الدقائق. قلت في نفسي: "لم يصل الســائق -الممــرض- الحــارس إلى عملــه بالمؤسســة الاستشفائية". الساعة الجدارية بقاعة الانتظار معطلة، ميتة، عقرباهــا متوقفان عند حدود السادسة والعشرين دقيقة! رائحة كريهة تعبق في قاعة الانتظار هذه: رائحة السردين مخلوطة برائحة بول القطط الحاد.

حاولت أن أفتح النافذة لمقاومة العفن، وإذا بها مُسمّرة، عــدت إلى مكاني، سمعت صوت امرأة، صوت متناوم يدندن أغنية قبائلية أو شيئا من ذلك، أعرف أغنية" أفاينوفا" وأحفظها، هــي أول أغنيــة حفظتها بالقبائلية بعد أغنية "أدي أدي" للشاب خالد، الــتي وصــل صيتها منذ عشريتين إلى الصين. شيئًا فشيئًا بدأت تصــلني رائحــة الجافيل، شعرت بانتعاش، وأنا الذي يكره هذه الرائحة منذ الصــغر لأنها مرتبطة في ذاكرتي بأشكال الصراصير التي تحب الرطوبة والزيت.

لأول مرة: أشعر بأن هناك رائحة أكثر قبحًا من رائحة الجافيل، إنها رائحة بول القطط!

تنحنحت معلنًا ثانية عن وجودي، تركت السيدة دلوها والمنشفة، وجاءت لتتفقد هذا المخلوق الصباحي الذي بدأ يومه بزيارة المخفر. حينما شاهدتني بسملت، وبدا على ملامحها الذعر والانخطاف. نظرت إلي بحدة وهي تتفحصني من الرأس إلى القدمين، ثم قالت: "حتى الشناوة بدأوا في زيارة المخافر، زيارة باكرة ومباركة!! هذه علامة من علامات الساعة! سبحانك يا رب! كنا نعتقد بأنهم من طينة الملائكة والنحل الشغيل، لكن يبدو أن الأيام ستكشف لنا عن أشياء غريبة، يسترها صمتهم الكاذب المفتعل!".

أشرت لها بتحية من رأسي دون أن أتجرأ على رفع عيني إليها، وقد لمست فيها انزعاجًا من وجودي هذا. لم ترد التحية، غادرت المكان مستنكرة وجودي في هذا المكان، وفي مثل هذا الوقت، وقت المجرمين والقتلة وسراق أسواق الجملة وقطاع الطرق على مصلي الفجر، عادت إلى دلوها والماء والجافيل، رفعت من دندنتها أكثر، أعجبني صوتها وآنسني وجودها في هذه البناية شبه الفارغة المهجورة.

حتى دون أن تبادلني كلمة، أهرقت الماء المصوبن في ركن قاعة الانتظار، انحنت قليلا، وبدأت تسحبه بالمنشفة الجفّاف على الأرضية. اغتنمت فرصة انحناءتها لأتأمل جسدها، لها ردفان سمينان قليلا، وشعر مقصوص قصة قصيرة كشفت عن رقبة طويلة قليلا، كانت وهي تسحب الجفّاف جيئة وإيابا ما بين صفي الكراسي المثبتة، تهز ردفيها في حركة متوازنة ذات اليمين وذات الشمال مقتربة من الكرسي الذي أجلس عليه، مما دفعني إلى تغيير المكان حتى لا أعيق حركاتها.

كنت متأكدًا بأنها لن تتردد بأن تضربني بالدلو أو بالجفّاف على رأسي لو أن رجلها تعثرت فيّ، وأنا جالس مادًّا قدمي عرض قاعة الانتظار التي بدت ضيقة بمجرد أن دخلتها هذه السيدة.

الآن أنتبه إلى أن هناك في الركن كرطون وضَعتْ فيه قطة صغارًا لها، وقد شرعوا في المواء بمجرد أن أزعجتهم رائحة الجافيل والصابون، أمهم غائبة.

أخذت السيدة المنظفة قطا بين يديها، وأخذت تلاعبه وتقبله على رأسه، وتفرك له فروته وتنظر إلي قائلة: "هل الصيني هو من ورث شكل عينيه من القط، أم القط هو من ورث ذلك من الصيني؟".

لم أرد على تعليقها، ولكني ابتسمت، هي الأخرى ابتسمت لي، أكتشف الآن أن لها عينًا حولاء؛ مما جعل ابتسامتها الخبيثة الملغمة تبدو أعرض من وجهها الصغير المدور غير المتجانس مع شكل جسدها الثخين قليلا.

قالت لي، وهي تعيد القط الصغير بحنان إلى مكانه فوق الكرطون مع إخوته، وتطبع قبلة أخرى على رأسه: "يقال إن الصينيين أصلهم قطط مُسخت".

ابتسمتُ، وبدأت أفكر في هذه المقولة، وتمنيتُ لو أنها كانت حقيقية، وأنني كنت قطا فقبلتني على رأسي بحنان كذاك الذي أغدقته على القط الصغير.

أخرجت من جيب مئزرها الملطخ على مستوى النهدين كيسا به بعض الأكل، ومن الجيب الثاني قنينة بها حليب، صبته في صحن من البلاستيك كان موضوعًا بالقرب من القطط التي بمجرد أن سمعت صوت الحليب وهو يهرق في الصحن حتى تسابقت لتشرب منه.

وقفت السيدة، عاملة التنظيف، تنظر إلى القطط الصغيرة بشعرية صارمة، وهي تبتسم متفحصة صراعها وتزاحمها حول الإناء. شدني منظر دهشة السيدة أمام حركة القطط الملونة. بدأت أحاول عدها، هي خمسة، ببقع ألوان تكاد تكون طبق الأصل وكأنها نسخة واحدة مكررة.

بهدوء، تركت دلوها والمسّاحة والقطط الخمس وجاءت لتجلس بجانبي وقد تغير مزاجها نهائيًا. لم تقل شيئا، مثلي ظلت تتابع من بعيد حركة القطط وهي تلعق الحليب محدثة صوتا كصوت دوزنة آلة وترية موسيقية، وقد تجمعت في شكل دائرة حول الإناء. لم تسقط الابتسامة ولا الدهشة من عينيها، خاصة تلك الحولاء، وهي تراقب حركة هذه المخلوقات الصغيرة الجميلة المبرقعة. كنت أنا الآخر تارة أتابع حركة القطط، وتارة أخرى أسرق نظرة إلى السيدة التي تجلس بجواري دون أن تعير وجودي أي انتباه.

عادت القطط، واحدا بعد الآخر، إلى مكانها فوق الكرطون كما في شريط الصور المتحركة، توقفت الحركة، نام الصغار وبقيت أنا المستيقظ في قاعة الانتظار، بحذر، وكي لا توقظ القطط من نومها الذي خلدت إليه بعد لعق الحليب، عادت السيدة لتنظيف ما تبقى من أرضية قاعة الانتظار. انحنت قليلا وكأنما شعرت بأنني أتابع حركات ردفيها، فاستدارت وابتسمت لي، مسحت بسرعة ما تبقى من القاعة ثم عادت لتجلس بجواري. هذه المرة شعرت بحرارة ما تنبعث من وجودها بجواري ربما هذا يعود للحنان الذي أبدته تجاه القطط التي هي أصلي أو أنا أصلها، فنحن في الحالين من سلالة واحدة. بدأت أفكر في الفراعنة الذين كانوا يقدسون القطط ويعتبرونها آلهة.

قالت لي بفرنسية- جزائرية: "هل تتكلم العربية أم الفرنسية؟".

نظرت إليها، فاكتشفت على الفور بأنها على عادتها الشهرية، وأنا أحبّ النساء في هذه الفترة؛ حيث تكون الحالة الفيزيولوجية والنفسية لديهن متوترة، يبحثن في الرجل عن الحنان والعطف لنسيان آلام دم الخصوبة. أستطيع أن أميز المرأة التي على عادتها الشهرية من خلال أطراف أصابعها، ومن لون استدارة عينيها.

قالت لي، وقد بدا عليها حزن عميق: "كان لي ولد، كنت أحلم أن أرسله ذات يوم إلى الصين لطلب العلم وتعلم الخط. يقال إن الكتابة الصينية تُذهِب الجنون وتمحو السحر الأسود والأبيض على السواء، لكن حدث الذي حدث..". ثم انفجرت بالبكاء. أردت أن آخذها بين ذراعي لكي أخفف عنها آلام العادة الشهرية، وآلام الولد، لكني تراجعت؛ فأنا في مخفر للشرطة، أي في باب السجن، وقد تتهمني بالتحرش الجنسي، وأنا الأعزب الناشف الذي لم أمارس الجنس مع امرأة منذ نزلت هذه البلاد، وقد مضى وقت طويل.

كم مضى من الوقت؟ عامان، ويزيد قليلا.

لم أعلق، ولكنها -وبحس الأنثى- شعرت بحرارة ما تصعد من جسدي المكبوت، فقالت لي بعد أن كشفت عن ساقها الذي به بقايا ندب جرح عميق، فشعرت بثلج يوضع فوق النار التي تلتهم أحشائي. نظرت إلى الساعة الجدارية وإذا هي ميتة لم يتحرك لها مفصل، ثم ألقيت بنظرة على ساعتي، ثم إلى الباب علّ أحدا يطل، ثم نظرت إلى السيدة الجالسة إلى جواري، وساقها لا يزال مكشوفا على بقية جرحها الغامق، لأكتشف فيها بقايا جمال خارق تحت عذاب وكآبة قاتلة. لم أتكلم، ولكني كنت أعرف أن من مثلها -وفي هذه

الأيام من العادة الشهرية- ستقص علي حكايتها الحزينة، وإذا لم تكن لها حكاية خاصة، فستروي حكاية جارتها أو جارة جارتها. قبل أن تبدأ الحديث نظرت إلي بعمق وتساؤل، وكأنما هي تكتشف وجودي اللحظة، ثم قالت: "أنت ذكي تفهم كل شيء، صمتك صارخ، لا شيء يخفى على صيني له كل هذا البريق في العينين، أنت سادس القطط التي في الكرطون..". ثم ضحكت، فظهرت أسنانها مسوسة، وعليها ظل سواد يشبه ذاك اللون الذي يخلفه النبيذ على الأسنان وعلى اللسان من كثرة الشرب.

أخرجتْ سيجارة من علبة كانت تخفيها في صدرها، تحت الثداية المصنوعة من الدانتيل، قبل أن تشعلها عرضت عليّ واحدة، فاعتذرت. الحقيقة أنا لا أدخن إلا مع شرب الويسكي الصيني الذي نأتي به من شنغهاي أو بكين، أدخن ليلة الخميس إلى الجمعة فقط.

استغربتْ رفضي للسيجارة، وعادت للحديث عن ابنها: "أطلق عليه أمير الجبل اسم قتيبة، وكنت أريد أن أسميه عبد الحليم، فأنا منذ صغري أحب المغني عبد الحليم حافظ، وأسمع -بشهية- أغانيه، وأحفظها جميعها عن ظهر قلب، (هل الصينيون يحبون الاستماع إلى زي الهوى لعبد الحليم حافظ؟) قلت في نفسي مواسية: الأسماء ألبسة خارجية، وقبلت باسم قتيبة. لم أكن أعرف بالتدقيق الأب البيولوجي لابني قتيبة، فقد كنت فريسة لفراش القادة العسكريين بالتناوب. كنت سبية، يدخل الواحد فراشي، يقرأ سورة الفاتحة أو سورة العصر، ثم يعصرني حتى يصرخ كالحيوان الجريح من اللذة، ثم ينصرف ليخلي الفراش لآخر قد لا يتأخر.. ومع ضوء الصباح ينسحب جميع الأمراء من المكان ليتركونا، نحن النساء وبعض

الأطفال، تحت حماية مجموعة من حراس المخيم الإسلامي المخنثين، غلمان، كانوا هم الآخرون طعمًا للذة فراش الأمراء ممن يحبون اللواط. خطفوني من عند باب الثانوية، جاءت سيارة سوداء، توقفت بالقرب مني، غير بعيد من باب الثانوية، خاطبني من داخلها أستاذ الفيزياء الذي كان قد اختفى منذ بداية الموسم الدراسي، ناداني باسمي من خلف زجاج النافذة: صافو.. صافو.. استدرت كي أتبين من الصوت الذي يناديني، وإذا برجلين ينزلان من الخلف، ويلقيان بإزار أسود على رأسي، ثم يرتميان على جسدي ويدفعان بي داخل السيارة التي انطلقت بسرعة جنونية، جعلت صديقتَيّ تصرخان وتفران في كل اتجاه. اختفيت، حين فتحت عيني كان الليل قد نزل، وجدت نفسي في خيمة سقفها وجدرالها من خشب، وأغصان الأشجار واقفة أمام رجل بلحية طويلة مصبوغة بالحناء، يعض على عود عرق السوس، تعبق منه رائحة كريهة وهو يقرأ القرآن الكريم، وأستاذ الفيزياء مقرفص على حصير قدام قدميه يغسلهما له بالماء الدافئ، دون أن يرفع رأسه في اتجاه الملتحي، قال بصوت مخنث: "هذه هي غنيمتنا لك يا أمير المؤمنين، ومن بعدك: هبها لمن هم تحت طاعتك وسيفك". قضيت هناك ثلاثة رمضانات، أي قرابة الثلاث سنوات، بعد خمسة أشهر، انتفخ بطني بشكل بارز، ولم يستغرب أحد حالي هذا، غالبية النساء والفتيات اللواتي لم تتجاوز أعمارهن الثانية عشرة يعشن في جناح خاص، أغلبهن يمشين ببطون متدفقة، لا واحدة تعرف من أي صلب هذا الجنين الذي في أحشائها؛ فالرجال الذين يتناوبون على ذات الفراش كثر، ودون ترتيب وبلا رحمة. أنا الأخرى لم أعرف من أي وحش التقطت هذا

الذي في بطني، مع ذلك، ويوما بعد يوم، بدأت أشعر بإحساس غريب تجاه الحركات التي يحدثها الجنين في بطني، إنه إحساس الأمومة الذي بدأ يسكنني، وأحببته".

كانت السيدة تحكي لنفسها أكثر مما كانت تحكي لي، أما أنا لكنت أفكر في القطط الصغيرة التي تشبهني، ثم انتبهت إلى أنني جئت هذا المخفر لا للاستماع إلى حكاية هذه السيدة، أو التمتع بمنظر خمس قطط مبرقعة تنام بملائكية على كرطون، إن في الأمر قتلا واختفاء ابن مربي الحجل، والذي هو بمرتبة أخي.

لم أسألها عن اسمها، وإذا بها تقول لي: صديقاتي في الثانوية كن يناديني بصافو، واسمي الحقيقي هو حفيظة، وأنت ما اسمك؟

قلت لها، وقد انتبهت إلى أن أحد القطط غادر إخوته، وبدأ يلعب بطرف سروالي، يعض عليه ويخمش ساقي، فتدغدغني حركاته ولمسات لسانه الطري:

- متى يحل رئيس المخفر؟

لم ترد على سؤالي، وواصلت سرد قصتها في معسكر الجبل: "وضعت مولودا ذكرا، لحظة نظرتُ إلى وجهه أول مرة، بعد أن سلمتني إياه القابلة العجوز ذات اللحية الحمراء، والتي جيء بها إلى المعسكر للإشراف على جناح النساء من السبايا، تذكرت درس الفلسفة في الثانوية عن قصة حي بن يقظان، كان آخر درس لي حضرته وبعده تم خطفي. قلت بيني وبين نفسي: هل سترضعه غزالة أم حية؟ وقررت أن أهرب ولو كان في ذلك هلاكي! اغتنمت غفلة الحراس الذين لم يكن أحد منهم يتصور أنني سأترك مولودي الذي لم يكن قد تجاوز الشهرين وأهرب، وبالفعل لم أجد صعوبة في التسلل

من المعسكر لأسير دون هدى بضع ساعات في الغابــة، لأســقط - بالصدفة- على الطريق الرئيسي. كان الحظ معي إذ مــرت ســيارة خاصة استغرب راكبها وجودي في هذا الخلاء. أشرت له، في البداية لم يرد التوقف؛ فوجود فتاة بعمري في هذه الغابة قد يكون فخًّا من فخاخ عصابات قطاع الطرق أو الحواجز الإسلامية المزيفــة، لكــني صرخت بأعلى صوتي وهو يتجاوزني، سار بعض مئات أمتار ثم عاد إلى الوراء، وهو يراقب إن كان هناك من سيخرج من أطراف الغابة ليهجم عليه، قفزت إلى المقعد الذي بجواره، فانطلق بسرعة جنونية.

رفضت العودة إلى بيت الأهل بعد الذي حصل لي؛ بعد الــذي عشته، عيب أن أواجه عائلتي وقد أصبحت أمًّا وأنــا في السادســة عشرة من عمري، لذا طلبت من السيد الذي نقلني أن يتركني قبالــة هذا المخفر، ومن يومها لا زلت هنا، وقد مضى على هذا الحــادث قرابة العشرين عامًا. أسرتي تعتقد بأنني مت، وقد أقاموا -كما قيــل لي- عزاء، وصلوا صلاة الغائب علي.. مرات: أشعر بفرح ما لأنــني أكثر حظًّا من غيري، فأنا أعــيش حيــاة ثانيــة لم تكــن لي، ولم أنتظرها..".

أتابع خطوات القط الصغير وهو يعود إلى الكرطون مع إخوته، مشيته مثيرة للغاية، وإصراره على الوصول أثار فيّ إحساسًا غريبًــا. توقفت السيدة عن مواصلة سرد حكايتها لتعلق على مشــية القــط الصغير، وتفانيه في الوصول قائلة: "القطط لها إرادة الصينيين، إنهــا تخلق العجب، لا تسقط، وعندما تسقط، تسقط على قوائمها!".

ابتسمتُ لهذه المقارنة الغريبة، وعلى الفور، تــذكرتُ كيــف كانت تعاملني أمي بقسوة وهي تردد في أذني صباح مساء: "عليــك

أن تخلق العالم كما تريده، لا كما يراد لك". أما أنا فكنت كسولاً، أحب الموسيقى وقراءة مجلات الرسوم المتحركة، وأكره الأعياد الوطنية ومعسكرات الحزب أيام العطل المدرسية، وأكره مباريات كرة القدم على التليفزيون يوم الأحد.

أخرجتْ السيدة علبة سجائر، وعرضت علي -ثانية- سيجارة أخرى. شكرتها ورفضت، فأنا لا أدخن سوى ليلة الخميس الذي يسبق يوم نهاية الأسبوع في بلد احتار في اختيار عطلة نهاية الأسبوع، فبعد أن كانت نهاية أسبوع عالمية يوم الأحد، ومع تصاعد المد الإسلامي، ومحاولة لإرضائهم ومغازلتهم، قرر النظام الاشتراكي في عهد الرئيس هواري بومدين تغيير عطلة نهاية الأسبوع، فأصبحت يوم الجمعة، ثم جاء عصر الانفتاح الليبرالي، وبعد أخذٍ ورد، قررت الدولة في عهد الرئيس بوتفليقة تغييرها إلى يوم السبت. ولكن الخلايا النائمة والمستيقظة من التنظيمات الدينية الإسلامية عارضت ذلك، لتتراجع الدولة عن قرارها بعد الموافقة عليه. وقد أصبح الجزائري اليوم لا يعرف أي يوم هو يوم عطلة نهاية الأسبوع؛ فبعد أن كانت بعض المؤسسات قد قررت العمل يوم الجمعة صباحًا، تراجعت تحت ضغط التيارات الدينية، ولأن العمل لدى الجزائريين مسألة ثانوية، فقد تناسى الناس العطلة، وعادوا للعمل يوم السبت، الذي هو يوم عطلة رسمية.

قامت السيدة حفيظة، وفتحت النافذة التي لم أتمكن أنا من فتحها بعد أن عالجت دفتيها بسبيكة حديدية كانت موضوعة في الزاوية ربما لهذا الغرض. على التو: شعرت بهواء خفيف يدخل القاعة، وعلى إثرها تحركت القطط الصغيرة، والتمت بعضها فوق

بعض بحثًا عن دفء، واتقاء لنسمة الهواء الباردة قليلا، حين شعرت بانـــزعاج القطط من النافذة. بحركة آلية، قمت وأغلقتها حتى دون أن أطلب الإذن من السيدة. لم تعلق هذه الأخـــيرة علـــى حـــركتي العفوية هذه، ولكنها أدركت بأن انـــزعاج القطط الصغيرة هو الذي دفعني للقيام بمثل هذه الحركة. ابتسمتْ وابتســـمتُ لهـــا، كانـــت السيجارة في فمها مثيرة، ولأول مرة أنتبه إلى أن السيدة على قدر من الجمال والأنوثة، حتى وإن كانت في مخفر بقاعـــة انتظـــار كريهـــة الرائحة، تبدلت رائحة الجافيل في أنفي، شعرت بها وكأنها عطر مـــن عطور حلاق القرية.

الآن أشعر وكأن الرواق والمكاتب امتلأت بالحركة والأحاديث الثنائية المباشرة، وأخرى عبر أجهزة الطالكي والكي، رجال شرطة: بعضهم في زي رسمي وآخرون بملابس مدنية، الوجوه جميعها عبوسة أو مرهقة أو مستنفرة، والجميع يدخن سيجارة فوق أخرى، الرواق امتلأ فجأة بسحب الدخان ورائحة العرق.

وأخيرًا جاءني أحدهم، حيّاني دون أن أسمع صوته المختلط مـــع أصوات متقاطعة في جهاز الطالكي والكي الذي يعلقه في حزام جهة اليمين، قال لي بصوت عالٍ، وبنبرة غاضبة: "قلت لك البارحة بأننـــا لم ننته بعد من دراسة أوراق ملفك الخاص بالإقامة، هل تعلم يا سيد بأن عدد الصينيين فاق المائتي ألف نســـمة، بعـــد ســـنة سنضـــطر لتخصيص جهاز إداري وأمني وربما وزارة كاملة للتكفل فقط بدراسة ملفات المهاجرين الصينيين؟".

قلت له، بصوت يكاد لا يسمع، وقد أخرجت مـــن جيبـــي الاستدعاء الذي أعطاني إياه الضابط البارحة: "أنا جئـــت لغـــرض

الحر..". وسلمت له مذكرة الاستدعاء التي أخـــذها متفحصًـــا، ثم عقب على الفور، وبصوت مسموع:

- بدأتْ رائحة الجريمة الصينية تصعد في سماء المدن الجزائريـــة، إنها الساعة، إنها القيامة، ماذا سنرى من إبداعكم في الجريمة، الله يسترنا من حضارة التنين!

سكت ثم أردف ضاحكًا: "اعتقدت بأنك الشخص الذي جاء البارحة، أنتم متشابهون كفراخ القطة هذه، كلهم مبرقعون، نســـخة واحدة منسوخة، كيف يمكننا التفريق بين هذا وذاك؟!".

نظرتُ إلى سيدة التنظيف التي غادرت الكرسي الذي بجواري، وعادت لمسح ما تبقى من أوساخ في أركان قاعة الانتظـــار، وقـــد لاحظت أنها استغربت لغتي العربية التي أتكلمها. لم ترفع انتباهها عني وأنا أتحدث إلى الشرطي بصوت مرتفع، حتى يتـــبين صـــوتي مـــن الأصوات المتقاطعة في جهاز الطـــالكي والكـــي. أخـــذ الشـــرطي الاستدعاء، وغاب في الرواق الذي تلفه سحائب الدخان التي يرسلها الجميع من أفواههم.

عدت للجلوس، وعادت السيدة إلى جواري قائلة: "أنت تتكلم العربية كما تتكلمها الشخوص السينمائية المدبلجة، أنت مـــدبلج!". وضحكتْ عاليا، وابتسمتُ أنا، ضحكتها خففت عليّ شعور الضجر الذي أثاره فيّ الشرطي.

واصلت الحديث، وهي تشعل سيجارة جديدة:

"تركت في الجبل طفلاً تمنيت أن ترضعه غزالة أو حية، كما هي في قصة درس الفلسفة عن حي ابن يقظان. شاءت الظروف أن ألتقي أستاذ الفيزياء الذي اختطفني وشاهدته يغسل قدمي الأمير، أن التقي

به في هذا المخفر، بعد أن استفاد من قانون المصالحة الوطنية، ومنحته الدولة سيارة وقطعة أرض وشقة، وسلمت له قرضًا بدون فائدة لإقامة مشروع تجاري يتمثل في استيراد الألبسة النسائية الداخلية من تركيا وسوريا والصين. قال لي وقد عرفني وعرفته: "أنت هنا يا حفيظة؟ لقد اعتقدنا بأنك مت!". وحين سألته عن الصبي الذي تركته في المعسكر، قال لي: "لقد ذبحه الأمير بعد أن أفتى بأن مَنْ هربُ أمه من جهاد النكاح لن يصلح لشيء، يكون ذرية فاسدة، وذبحه أمامنا كما يذبح الأرنب الصغير، ورمى جثته في النار، وهو يقرأ آيات من ذكر الله الحكيم". بصقت في وجهه، وكفرت بميثاق السلم والمصالحة، ودخلت في حالة هستيرية وجدت نفسي بعدها في مستشفى فرانتز فانون أدور حول نافورة ماء، أنتظر اكتمال دائرة القمر في السماء. قضيت هناك سبعة أشهر، بعدها عدت لأوظف سكرتيرة وعاملة تنظيف، ولأكون -أيضًا- أذنا على الأحاديث والمكالمات الهاتفية لرواد قاعة الانتظار، اتخذت من غرفة الصابون الصغيرة على سطح المخفر مبيتًا لي".

عاد الشرطي حاملاً ورقة الاستدعاء في يده، وقد سكت الطالكي والكي نهائيًا. السيجارة في الفم يعض عليها بقوة أسنانه، أشار إلي بأن أتبعه، تبعته وأنا أفكر في الطفل الرضيع الذي ذبح ورمي جسده في النار. أدخلني غرفة صغيرة فيها مكتب من لوح قديم متهالك، عليه آلة راقنة من نوع أوليفيتي. أشار لي بالجلوس، سحب كرسيًا من خلف المكتب، وضع كربونا بين ورقتين بيضاوين، ثم أدخل الكل في فم الآلة الراقنة، على رأس الورقة كتب التاريخ، تأكدت من ذلك لأنه تفحص بدقة رزنامة كانت موضوعة على

الركن الأيسر للمكتب. طلب مني بطاقة الإقامة وجواز السفر، سألني من اسمي، واسم أبـــي واسم أمي ومدينتي التي جئت منها، وســـألني من عقيدتي الدينية، واستغرب حين قلت له إنني بدون دين، لا ديني. طرح علي أسئلة أخرى تهم زميلي سون با سن، عن علاقاته خـــارج الورشة، وعن الناس الذين يزورهم ويزورونه. قلت له كل ما أعلمه، وكان يكتب دون أن يرفع عينيه عن الورقة، والآلـــة الراقنـــة الـــتي بدا صوت الدق على حروفها عاليًا، حيث غطـــى علـــى ضـــجيج جهاز الطالكي والكي الذي أعاد تشغيله، كان بين الفينة والأخـــرى يرد على بعضْ الأصوات المتصلة به، دون أن أفهم ما كـــان يعنيـــه من الرد، كل شيء غامض، وحديث برموز وألغاز وأرقـــام وأسمـــاء غريبة.

لم يطل التحقيق معي كثيرًا، طلب مني أن أوقع على مـــا هـــو مكتوب على الورقة من تصريحات. بعد أن قرأ لي الـــنص كـــاملا بالأسئلة والأجوبة، وكان في كل مرة يتوقف ليشرح لي شيئا إذا مـــا شعر بأنني لم أفهم كلمة، أو التبس علي معنى في عبارة.

حين سمح لي بأن أغادر المكتب، انتبهت إلى أنـــه هـــو نفســـه الشرطي الذي أشرف على تفتيش غرفتي بالإقامة الصينية. قـــال لي: ستعود يوم الخميس القادم صباحًا، كي تزور معنا المشرحة، لتعـــاين معنا الجثة، ولتتعرف عليها.

وأنا أغادر المخفر، قابلتني حفيظة وقد غيرت أحمـــر الشـــفاه، ووضعت، عوض الأحمر الوردي الذي كانت تتزين به قبل قليل، آخر بلون قرمزي، فبدا فمها صغيرًا جدًّا. نظـــرت إليّ ولم تقـــل شـــيئًا، وكنت أفكر في رضيعها الذي ذبحه أمير إرهابـــــي، وفي القطـــط

المبرقعة التي تنام متداخلة الأجساد على الكرطون، وفي إناء الحليب البلاستيكي الموضوع أمامها.

حين خطوت في الشارع الغاص بالمارة، وجدت سيارة الإسعاف التي يشغلها الممرض أو الحارس كسيارة أجرة مركونة على الرصيف، غير بعيد من المخفر، كان السيد جالسا بداخلها وكأنما يراقب خروجي. استغربت وجوده، وأنا الذي تنفست الصعداء بعد أن تخلصت منه، ثم قلت في نفسي إنه ينتظر أحد الزبائن، لكنه بمجرد أن لمحني نزل من السيارة، وجاء مسرعًا في اتجاهي مناديا: يا الشينوي. التفت فإذا هو يقصدني بندائه هذا، اقتربت منه، وإذا هو يعرض علي أن يوصلني إلى الإقامة. قلت له: "ما كان عليك أن تزعج نفسك، فسيارات الأجرة متوفرة في هذا الوقت، وأكثر من ذلك: أنا أفضل ركوب الحافلات العمومية". لم يعر كلامي أي انتباه، بل زاد من إصراره على إركابي سيارته. تبعته، بدا لي أعرج المشية، وكأن ساقه اليمنى اصطناعية. جلست إلى جانبه، أشعل سيجارة قبل أن يدير المحرك، ثم قال لي: تريد العودة إلى الإقامة، أم تريد أن نشرب فنجان قهوة معًا؟ أجبته على الفور: "أريد العودة إلى الإقامة؛ فعلي أن أعود إلى الشغل قبل نهاية ساعات العمل الصباحية". تحركت السيارة في شارع صاخب، المارة الراجلون يقطعون الطريق من كل الجهات، وكيفما اتفق، لا يحترمون الأضواء ولا الممرات المخصصة لهم، الجميع في عجلة من أمره، وكأنما هم على موعد وقد تأخروا عن ذلك.

قال لي السائق: "أنا اسمي عبد الرحمن، زملائي في العمل ينادوني بـ رحو أو عبدو. سمتني جدتي عبد الرحمن تيمنًا بالولي الحارس لمدينة العاصمة، سيدي عبد الرحمن الثعالبي".

أنا لا أعرف شيئًا كثيرًا عن هذه المدينة سوى أنها كانــت ذات زمن سجنًا للكاتب الإسباني ميجيل سرفانتيس، صاحب رواية **دون كيشوط دي لامانتشا**، والتي قرأتها مترجمة إلى الصــينية في السـنة النهائية من التعليم الثانوي.

قلت له: "اسمي الحقيقي يو تزو صن، يونس هو اسمي الجزائري! اخترته منذ نــزلت هذا البلد الجميل، إذ يصعب علــى الجزائــري حفظ الأسماء الصينية، هكذا قيل لنا".

قال لي معقبًا على اسمي إنه يحب قصة يونس في القرآن، النبــي يونس الذي قضى أربعين يومًا في بطن الحوت: "حين أسمــع هــذه القصة كما وردت في القرآن من المقرئ عبد الباسط عبد الصــمد، أبكي".

أنــزلني قبالة شاليهات الإقامة، وقبل أن أغادره: تساءلت لماذا حل بــي حتى المخفر، وأصر على مصاحبتي حتى هنا؟

قبل أن يقلع بسيارته قال لي: نسيت، لقد أحضروا جثة الصيني إلى بيت الجثث عندنا، في المشفى التابع لمعهد باستور.

دخلت غرفتي، وقررت أن أرحل إلى شقة بحي الشناوة.

7

بعد ثلاثة أيام قضيتها بين قلق الانتظار وتحضير الانتقال إلى الشقة الجديدة، عدت إلى مخفر دالي إبراهيم، كما طلب مني الضابط رئيس المخفر، هذه المرة لم يكن عبد الرحمن أو رحو في انتظاري، ولا في مراقبتي، لا أقود سيارتي الشخصية إلا أيام العطل، أو حينما أكون على موعد خاص خارج ساعات العمل. هي عادة تربيت عليها منذ أول سيارة اقتنيتها، أشعر بالراحة وأنا أزاحم الراكبين حافلة النقل العمومي، أحب زحام الجزائريين على أبواب الحافلات، أحب انتظارهم عند المواقف وهم يتكلمون بصوت عالٍ مع بعضهم البعض أو في هواتفهم النقالة. أحب حديث الواحد مع الآخر حديث المعرفة الطويلة وهو لم يسبق له أن رآه إلا دقائق قبل وصول الحافلة، الناس منفتحة على بعضها البعض، مع كل ما قد توحي به ملامح الجزائري من غضب وسخط وكآبة وتشاؤم وتذمر، إلا أن قلبه قلب طفل لا يفرق ما بين فتنة التكسير ومتعة اللعب، بين الجمر والتمر، بين الشجاعة والتهور، بين الرصانة والخوف، بين الرجولة والتدمير. أشعر بأن بعض القيم مختلطة ومتناقضة في سلوك الجزائري؛ مما يجعله عسلاً كما قد يجعله، في اللحظة نفسها، سمًّا زعافًا.

ركبتُ الحافلة، واقفًا، كنت أستمع إلى بعض المراهقين من تلاميذ الثانوية أو الطلبة الجامعيين يتهامسون معلقين على وجودي الناشز بينهم، قائلين:

الأول: "لقد وصل آكلو لحوم الكلاب والأفاعي والحشرات إلى حافلاتنا. سيغزون البلد ليأكلوا جميع القطط والكلاب الضالة والخنافيس والذباب".

ضحكٌ جماعي..

قال آخر: "على الأقل ينظفون شوارع المدينة من هذه الحشرات والحيوانات التي أصبحت مزعجة بوجودها وتكاثرها المخيف، حتى إن بعض الجرائد كتبت عن القطط التي تأكل المواليد الجديدة في مستشفيات القطاع العام، في أجنحة التوليد".

ضحكٌ جماعي وموسيقى تصعد من أجهزة الهواتف..

قال آخر: "يشيدون العمارة ذات الخمسين طابقا في ليلة واحدة، لقد غيروا من شكل المدن التي هجمت عليها البنايات من كل الجهات، عمارات تبنت كالفطر، مشروع مليون سكن الذي جاء به برنامج الرئيس كما تقول نشرات الأخبار لا يمكنه أن يعرف النور إذا لم تتسلمه شركات صينية".

ضحكٌ جماعي.. وصخب موسيقي يتصاعد أكثر من أجهزة الهواتف النقالة.

قال آخر: "لقد سرقوا منا مناصب الشغل البسيطة اليدوية وسيصلون إلى مناصب الإدارة والشركات والسياسة...".

قال آخر: "يا رجل، الجزائري لا يشتغل لا في ورش البناء ولا في الزراعة. الجزائري حين يدخل المدرسة من أول يوم تملأ له الأسرة رأسه بحلم وحيد: أن يصبح طبيبًا أو مهندسًا أو إداريًّا أو أستاذًا.. كل عمل يدوي هو عمل سخرة وعبودية في مفهوم الجزائري!".

ضحك جماعي... وهواتف تطلق موسيقى أكثر صخبا، والحافلة تسير.

قال آخر: "لقد شرعوا في شراء بعض المحلات التجارية والشقق بوسط المدينة، في شارع العربي بن مهيدي وديدوش مراد وحسيبة، وأسسوا حيًّا خاصًّا بهم في باب الزوار هو "حي الشناوة".

قال آخر: "جاءت عمتي الأسبوع الماضي من سطيف، وقالت لنا إنهم اشتروا أهم المحلات بأهم شوارع هذه المدينة، وإنهم أسسوا حيًّا خاصًّا بهم هناك، يسمى "حي الشناوة" أيضًا".

قال آخر: "لقد بدأوا بالسيطرة والتحكم في تجارة الإلكترونيات، وبعدها السيارات، ثم شرعوا في فتح سلسلة مطاعم الأكل الصيني التي تفتح تباعًا في كل مكان، وفي جميع المدن".

قال آخر: "كل هذا غير مهم كثيرا، ومقبول في حدود المنافسة التجارية وسوق العمل، لكن أن يصل الأمر بهم إلى الاستيلاء على قلوب وأجساد نسائنا، فهذا من المستحيل! إنهم يسرقون نساءنا، فقد بدأت الفتيات الجزائريات في العاصمة وفي مدن أخرى كقسنطينة وشلف وتيارت وسعيدة ومعسكر ووهران وسطيف وعنابة وتيزي وزو بإقامة علاقات عاطفية مع شباب صينيين آكلي لحوم الكلاب. ويقال إن هناك بعض حالات الزواج التي سجلت هنا وهناك بين جزائريات مهندسات أو طبيبات من رجال صينيين..".

قال آخر: "إنها علامة الساعة، لم يبق لنا سوى أن نخلي لهم البلاد، أن نتركها لهم!".

قال آخر: "الصينيون يخطفون جميلاتنا، آه يا دين الرب، أين هي الرجولة؟!".

قالت امرأة كانت تتابع عن قرب الحديث بين الشباب: "نساء الجزائر ما جبروش فيكم ما يصلح! لو أهن وجدن فيكم العمل والثقة والرجولة التي كانت في الأجداد، لما ذهبن إلى أسرة الصينيين، ظل رجل صيني ولا ظل جدار جزائري".

سكت الشبان.. نزلت موسيقى الهواتف النقالة.

لم أعلق. رميت بنظري إلى المرأة الأربعينية التي بدورها بادلتني نظرة خاطفة مشوبة بالتساؤل والغموض.

على بعد بعض أمتار من مخفر دالي إبراهيم، توقفت الحافلة، نزلتُ في الموقف المطلوب، شعرت بالتحرر من حديث الشباب الذي يشبه الجلد، جلد الذات وجلد الآخر في الوقت نفسه. مرة أخرى تمنيت ألا أجد عبد الرحمن أو رحو أو عبدو بساقه الاصطناعية في انتظاري قبالة المخفر، غرست رأسي في الأرض وأسرعت الخطى. لم أنتبه، وإذا بيد تشدني من كتفي، حاولت ألا ألتفت، إلا أن اليد ظلت ممسكة بي، وإذا بصوت أنثوي يقول: "هل عدت لسرقة القطط بغية أكلها؟ لقد سبقوك إليها يا آكل القطط والكلاب". استدرت فإذا بي وجهًا لوجه أمام حفيظة أو صافو عاملة التنظيف والسكرتيرة ساكنة بيت الصابون على سطح المخفر. لم أنبس بكلمة، قالت: "أأنت الذي جئت قبل ثلاثة أيام إلى المخفر؟" لم أرد. أضافت وقد أدركتُ بأنها لم تتعرفْ علي: "أنتم متشابهون كالقطط المبرقعة". تركتها في الشارع على عتبة باب المخفر، وواصلت طريقي. توقفتْ قليلا ثم تبعتني، وكأنما أرادت أن تتأكد من هويتي، مِنْ أنني أنا الذي جاء ذاك الصباح وحدثَتْه عن ابنها الذي تركتْه في الجبل، وتم ذبحه كالأرنب ورميت جثته في النار. قبل أن أتخطى عتبة المخفر، كانت

حفيظة إلى جنبـــي تحدثني، هذه المرة بصوت عال: "لقـــد ســـرقوا القطط الصغيرة، من يسرق القطط الصغيرة في هـــذه المدينـــة غـــير الصينيين؟ يُقال عنهم إنهم يأكلون كل الحيوانات الضالة في المدينـــة، من القطط والكلاب والجرذان والأفاعي، وقد قضوا علـــى جميـــع الخنازير البرية بغابة باينام..".

ظللت ساكتا، استقبلني شرطي بلباس رسمي قائلا: "ماذا تريد في هذا المخفر؟ أنتم أيضًا وصلتم إلى هذه الأماكن التي كنا نعتقد أنهـــا خاصة بالمجرمين، ومهربـــي المخـــدرات، والمعتـــدين والإرهـــابيين والسراق..". طلب مني بنوع من الغضب الصامت أوراقي، ســـلمته ورقة الاستدعاء، تناولها بعصبية، وأشار لي بحركة من يـــده، دون أن يتكلم، بالجلوس في قاعة الانتظار.

دلفت إلى القاعة، كانت رائحتها قد تغيرت قليلا، بحثت بعيني عن الكرطون والقطط فلم تكن هناك كما في المرة السابقة. جلستْ حفيظة على نفس الكرسي، وجلستُ أنا أيضًا في المكان ذاته. كانت يداها ترتجفان، وقد ازرقت شفتاها، قالـــت لي: "نســـيت تنـــاول حبوبـــي هذا الصباح، أنا متوترة قليلا، هل معك حبوب؟ لقد قيـــل لي إن طفلي الذي تركته في الجبل بمعسكر الإرهابيين لم يذبح، إنه لا يزال على قيد الحياة، وأنا أنتظر عودته، وقد رفعت دعوة إلى الجمعية الوطنية لأسر المفقودين، سآخذ حقي ولو كان ذلك في الصين!".

حزنت، أنا الآخر، لاختفاء القطط المبرقعة المتشـــابهة كالنســـخة الواحدة، وشعرت وكأنني جئت خصيصا لتفقدها، وأصبت بخيبـــة، و لم أعد أستمع إلى ما تقوله حفيظة عن سرقة القطط مـــن قبـــل شـــخص متخصص في بيعها للصينيين، الذين يفضلون لحمها على لحم الخروف.

لم يتأخر الشرطي الذي اختفى بورقة الاستدعاء حتى عاد وأمرني أن أتبعه، لكن حفيظة أمسكت بي من ذراعي وبدأت تصرخ: "إنه بريء من دم ابني، إنه لا يقتل، إنه يبني العمارات ويصنع الطرقات، ويحب رئيس الجمهورية وبرنامج رئيس الجمهورية!". خلصني منها شرطي ثانٍ، وتقدمت بعض الخطوات في الرواق الذي بدا لي هذه المرة أكثر إضاءة من المرة السابقة، مع أن المصابيح كانت جميعها مطفأة ولا توجد فيه نوافذ، ربما كان الضوء يشع من رأسي، دخل الشرطي قبلي، فلحقت به بعد أن سمعت صوت الضابط الرئيس يقول: أُدخُلْ.

دخلت، كان الضابط الأربعيني رئيس المخفر، جالسًا خلف مكتبه المتواضع يرد على ثلاث مكالمات في الوقت نفسه، واحدة على الطالكي والكي، والثانية على الهاتف الثابت، والثالثة على النقال. استغربت كيف يمكنه أن يسبح بين ثلاث محاورات، مع ثلاثة أشخاص في موضوعات، وبثلاث لغات: العربية والفرنسية والأمازيغية. أشار علي بالجلوس، جلستُ، طالت المخابرات على الهواتف الثلاثة، وبمجرد أن انتهت في الوقت نفسه تقريبًا، رحب بي بعربية فصيحة، ثم بالفرنسية، وعاد الهاتف الثابت إلى التجريس. لم يرد، سمعت صوت حفيظة يرد من الغرفة المجاورة، أو ربما صوت يشبه صوتها، أو هكذا توهمت.

"تريد شايًا أم قهوة؟". قال لي، وقد بدا مرهقًا.

قلت له: لا شيء.

لم يسمع ما قلت، أو لم يثره جوابي، فأمر من خلال هاتف داخلي بإحضار فنجاني قهوة.

"هو الفنجان الخامس منذ الصباح". قالها وهو يبحث في جيوب سترته عن علبة السجائر التي كانت موضوعة أمامه على المكتب شبه فارغة، ولم ينتبه إليها.

انسحب الشرطي الذي رافقني، وبقيت مع الرئيس رأسا لرأس. شعرت بنوع من الاطمئنان، لست أدري لماذا، فقد قرأت في ملامح وجهه فيض مودة وتعاطف أشعرني بأنني لست مجرمًا.

أخرج ملفًا كبيرًا، وضعه أمامه وبدأ في تصفح وثائقه، وتقليب كثير من الصور الفوتوغرافية الملونة لجثة مرمية على بلاط، ظهرت لي من بين الوثائق التي يحتويها الملف صور نسخية لوثائقي الرسمية: من جواز سفر، وبطاقة الإقامة، وكذا بعض لذوثائق الضحية، مع بعض التقارير المكتوبة باليد وأخرى مرقونة على الآلة، وبعض قصاصات الجرائد باللغتين: العربية والفرنسية. لضخامة الأوراق لم أستبعد أن يكون التحقيق قد بوشر مع أشخاص آخرين، ربما لهم صلة ما بالموضوع.

"اسمي فتحي". قال الضابط الرئيس وهو يشعل سيجارة ويعرض علي واحدة.

"شكرًا، لا أدخن إلا يوم الخميس ليلا". قلتُ.

لم أعرِّف بنفسي لأن وثائقي كانت بين يديه، لكني قلت له:

- في الجزائر، اخترت لي من أسمائكم واحدًا حتى يسهل عليهم حفظ اسمي، الجميع من معارفي ينادييني باسم يونس.

قال لي إنه على علم بذلك، وإنه يحب هذا الاسم كثيرًا، يذكرني بماضي الطفولة: "لقد كان لي أخ يعشق مغنية اسمها هيام يونس، كان لها صوت دافئ ومثير، ولطالما تخاصمنا عن مَن هو

أفضل فنان عربـــي، ففي الوقت الذي كان أخي ينتصر لصوت هيام يونس، كنت أنا أحب عبد الحليم حافظ. كثيرة هي المناوشات بيننا حول اختيار المحطة الإذاعية التي نستمع إليها، في انتظار بـــث أغنيـــة لعبد الحليم أو لهيام يونس، لم يكن في البيت سوى جهاز راديو واحد يشتغل بالبطارية. كان البرنامج الغنائي "ما يطلبه المستمعون" فرصـــة لخصام بيننا".

ضحك ضحكة أطفال وهو يتذكر هذا الشجار الأخـــوي، ثم فجأة قال: "الله يرحمك يا أخي يا عاشق هيام يونس".

سكت قليّلاً ثم واصل حديثه: "كان أخي مهنـــدس دولـــة في التنقيب عن البترول، ذهب ضحية الإرهاب الأعمى الذي اغتالـــه، وقد باغتوه قبالة عتبة بيت أسرتنا في القرية، التي عاد إليها كعادتـــه كل صيف لقضاء بعض أيام عطلته مع الأســـرة، وهـــم يطلقـــون النار عليه كانوا يعتقدون بأهم يطلقونها عليّ أنا الشـــرطي عميـــل الدولة الكافرة، دولة الطاغوت. منذ ذلك اليوم وأنا أشـــعر بـــذنب كبير، وكأنما أنا الذي اغتلت أخي، مع أنني وقتها لم أكـــن ســـوى شرطي بسيط، خريج معهد الحقوق من جامعة التعلـــيم المتواصـــل بالعاصمة".

جاءت القهوة في كأسين من بلاستيك (غوبلي).

أسمع ما يشبه مواء القطط في رأســـي، في شـــكل كونشـــيرتو "الفراشات العاشقات"، ذاك الكونشرتو الذي أعشقه منذ الصـــغر، وأتقن عزفه على الكمان جيدًا.

لم أدر كيف بدأ يحكي لي عن ملابسات هذا المنصـــب الـــذي يتولاه، أي منصب رئيس الشرطة، قائلا: "منذ الاستعمار الفرنســـي

كان منصب رئيس الشرطة موقوفًا على بعض العوائل المدينية الخاصة، واستمر الحال مع سنوات الاستقلال، إلا أن العشرية السوداء -بأهوالها ورعبها- قلبت الموازين؛ مما جعل بعض هذه الأسر التي توارثت هذا المنصب تتراجع خوفًا على أبنائها، وهو ما فتح المجال أمامنا -نحن أبناء الأسر الريفية- لتقلد هذه المسؤولية؛ لأننا الوحيدون الذين كنا نحارب الإرهاب دون خوف، وبحب صادق تجاه البلد".

صمت قليلا ثم أضاف:

"ربّ ضارة نافعة".

بدأ يحدثني عن الإرهاب الذي أتى على كثير من أفراد عائلته: "اغتيلوا للا شيء، إلا لأنهم كانوا أقارب أحد أعوان الطاغوت، يقصدونني أنا الذي أعمل شرطيًّا، وزوجتي أصيبت جراء ذلك بانهيار عصبي، وهي لا تزال حتى الآن نزيلة مصحة فرانتز فانون للأمراض النفسية والعصبية بالبليدة، وابنتي البالغة من العمر تسعة عشر سنة حاولت الانتحار ثلاث مرات متتالية".

كنت أشعر به وهو يحكي وقائع أيامه هذه وكأنه يحوم حول القضية التي استدعاني لأجلها، وهي موت سون با سن أو آخر يشبهه أو لا يشبهه، يشبهني أو لا يشبهني.

قال لي، وقد عاد لتصفح محتويات الملف، مقلبا بين يديه الصور الفوتوغرافية للضحية مذبوحة: "أنتم شعب من مليار ونصف المليار من البشر أو أكثر، تتشابهون كلكم وكأنكم نسخ لشخص واحد". وابتسم وهو ينظر إلي.

"الكلوناج!". أضاف متمتمًا.

ترك الملف جانبًا، وأرسل رسالة في شكل أمر في جهاز الطالكي والكي قائلاً: "هل السيارة جاهزة؟". سكت المتحدث إليه قليلا، ثم بعد لحظات أجاب: "نعم حضرات".

حمل هاتفين نقالين في اليد اليمنى، وضع جهاز الطالكي والكي في الحزام على الجهة اليسرى، وعلى الجهة اليمنى أدخل مسدسًا، وطلب مني أن أتبعه قائلا: "سنذهب إلى المؤسسة الاستشفائية بمعهد باستور حيث جثة الضحية، لمعاينتها والتعرف عليها والتثبت من هويتها".

تبعته، كانت حفيظة واقفة في الرواق تنظر في الفراغ، حين شاهدتني قالت، موجهة كلامها للضابط الرئيس: "إنه يشبه القطط التي اختفت من قاعة الانتظار".

"هي واحدة من ضحايا الإرهاب". قال الضابط الرئيس، موجها كلامه لي، دون أن يلتفت.

وجدنا سيارة مدنية مموهة ومتهالكة، تنتظرنا عند باب المخفر. ركب في المقعد الأمامي إلى جوار السائق، أما أنا فانزلقت إلى الخلف. كان بالسيارة شخص ثالث -على ما يبدو- هو مساعده ومرافقه في الخرجات الميدانية، بين يديه الخشنتين آلة تصوير ضخمة تشبه الكلاشنكوف. لم يرفع رأسه تجاهي، وكأنما كان يريد أن يخفي ملامحه عني خوفًا مني، أنا المتهم بقتل الضحية الصينية، وربما الدور القادم سيكون عليه.

سارت السيارة في الزحمة، شوارع مدينة الجزائر لا تهدأ، وكأن الناس لا شغل لديها سوى التنقل بالسيارات من مكان إلى مكان آخر، دون هدف وبلا موعد، ولأي سبب وبدون سبب.

التفت إلي الضابط قائلاً: "ما هي هواياتك يا يونس؟".

لم أكن أنتظر سؤالا كهذا، والذي يشبه سؤال الصحفيين المبتدئين للنجوم من الفنانين والرياضيين ورجال الأعمال، قلت له: "إنني أحب العزف على الكمان، هي هواية منذ الصغر، ولا زلت حتى الآن لا أنام إلا بعد أن أعزف بعض الوقت، فالأصابع التي لا تعزف تصبح قطعًا من خشب بارد، فأنا لا أسافر إلا إذا كانت في حقائبي آلة الكمان".

نظر إلي المساعد وقد توقف عن اللعب بآلة التصوير، وكأنما تفاجأ بحديثي هذا، فهو دون شك يقول في رأسه: "كيف لمجرم متورط في اغتيال زميل له يتحدث عن الموسيقى!". حين رفع عينيه في اتجاهي، تبين لي بأن له عينًا واحدة، أما الثانية فكانت اصطناعية من زجاج أو بلور، تشبه حبة البلي التي كنا نلعب بها أطفالا في الباحة، أنا وابنة عمتي وبعض أبناء وبنات الجيران.

"الموسيقى والعزف على الكمان أو الرباب هي هواية المبدعين وأبناء البورجوازية!". علق الضابط بابتسامة خفيفة مبهمة، ثم بدأ الحديث عن هوايته، حتى دون أن أتجرأ على سؤاله، وقد خطر ببالي ذلك فترددت.

قال الرئيس: "كنت طوال حياتي، عمري الآن ثلاثة وخمسون سنة، أحلم أن أكون يومًا كاتب رواية بوليسية، فمنذ الصغر قرأت عشرات الروايات البوليسية، قرأت سلسلة أرسين لوبين كاملة، وشييز و... حين ضاعت مني فرصة أن أكون كاتب رواية بوليسية، جئت مهنة البوليس، فأنا -في الحقيقة- لا أمارس سوى الكتابة على طريقتي الخاصة، وأنا أتابع قضايا الاغتيالات والاعتداءات بإبداع

وحب كبيرين. مهنتي كشرطي عوضتني قليلا مما كنت أتمناه في حياتي الفنية، ولكن ربما سأعود ذات يوم للكتابة، فأنا مع نهاية كل قضية وطي ملفها، أجمع تفاصيل القضية وملابساتها وطرق التحقيقات لفك لغزها في دفتر أو دفترين، قائلا في كل مرة: "هذه تستحق أن تكون رواية تضاهي **الجريمة والعقاب** لدوستويفسكي". هناك في حياتي المهنية من المخطوطات ما يملأ مكتبة كاملة من الأدب البوليسي، فمع تشكل المدينة الجزائرية الجديدة، على مدى نصف قرن، فقد تشكلت معها الجريمة الجزائرية، وبمواصفات خاصة تحتاج إلى من يتابعها ويحللها ويكتب عنها؛ فالجريمة واحدة من خصوصيات مجتمع المدن التي تتعقد فيها العلاقات الإنسانية والاجتماعية، وتتقاطع فيها الثقافات والأحلام. المدينة ليست مدينة -بالمعنى الحضاري- إلا حين تبدع جريمتها الخاصة بها، وكل شعب كما يبدع فن عمارة مدينته يبدع فن جريمته. الجريمة فن من فنون الحداثة.

مرات.. حين أشاهد على قنوات التليفزيونات الفرنسية روائيًّا جزائريًّا قضى حياته المهنية في صفوف العسكر حتى أصبح ضابطًا ساميا، بعدها تحول إلى كاتب رواية بوليسية عالمية مترجمة إلى أزيد من ثلاثين لغة، وهو يختفي في اسم زوجته، أفكر أنني أنا أيضًا كنت أرغب في الكتابة باسم مستعار، ولكن لم يخطر لي أبدًا التوقيع باسم امرأة! على كل هي فكرة جيدة ومبدعة؛ فالتوقيع باسم المرأة يزيد من فضول القارئ، خاصة حين يكون الأمر متصلاً بأدب بوليسي.

مرات.. أفكر في تقديم طلب التقاعد المبكر، وبداية كتابة روايات عما عشته وشاهدته وشاركت فيه من قريب أو من بعيد، كل ما أحاط بي منذ أن دخلت مهنة البوليس يستحق الكتابة، ما

عشناه أيام سنوات الإرهاب وما بعده، وها نحن في زمن الجريمة الصينية في الجزائر! كل هذا العالم يشكل سلسلة من الروايات البوليسية التي لم يعرفها لا الأدب الأمريكي ولا الياباني ولا الصيني ولا الفرنسي".

توقف قليلاً عن الحديث ثم سألني عن واقع الرواية البوليسية في الصين. في الحقيقة لم أفكر يومًا في مثل هذا السؤال، وخاصة في مثل هذه اللحظة، ونحن داخل سيارة شرطة في اتجاه بيت حفظ الجثث لمعاينة جثة مواطن صيني يعمل في شركة أشرف عليها، اغتيل في ظروف لا تزال غير واضحة، على الأقل بالنسبة إلي.

صمتُّ قليلا، وأنا أحاول أن أتذكر بعض أسماء الكتاب الذين كانت تقرأهم أمي؛ فقد كانت إلى حد ما مغرمة بالأدب، تفضل قراءة الروايات البوليسية في أيام الأزمات، والروايات العاطفية أيام الآحاد، غالبية ما تقرأه كان مترجمًا من الإنجليزية أو الروسية أو الفرنسية.

ثم تذكرت اسم ملك الرواية البوليسية الصينية كيو كسيولونغ، حاولت أن ألملم بعض أفكار عن هذا الكاتب، والذي يبدو أن أمي كانت تحب كتاباته؛ إذ كانت تقرأه كلما تذكرت حكاية أختي اللتي رمت بها في سلة المهملات مع الزبالة العمومية.

قلت له: "في النظام الصيني، على الأقل قبل عشر سنوات، لم يكن ليسمح لمثل هذا الأدب بالوجود المعلن؛ فالمكتبة العمومية التي كنت أذهب إليها للمطالعة الثقافية لم تكن تحوي سوى كلاسيكيات الأدب الصيني وبعض الآداب الروسية. كنت أغرق في عوالم قصص تورجنيف الذي أحببت قصصه. أما أقراني من الشباب فكانوا مشدودين لأشياء أخرى غير تورجنيف، بل إن بعضهم كان يسخر

من ذوقي في قراءة هذا الأدب الكلاسيكي الروسي، وبالتالي تركت الأدب لأجد في المعهد البلدي للموسيقى ضالتي، وكانت آلة الكمان رفيقتي وملجئي؛ حيث كانت لي أستاذة جميلة ونادرة، تقاعدت عن الرقص مبكرًا، وسكنت قريتنا هروبا من ضجيج شنغهاي، مع زوجها الذي كان مدرب ركوب الخيل، إذ كان حاصلا على البطولة الوطنية في الفروسية لثلاث دورات متتالية قبل أن يموت حصانه بطريقة غريبة، إذ جرفته سيول فاجأت الإسطبل الذي كان ينام فيه ذات شتاء عنيف، من يومها دخل في كآبة وتوقف عن ركوب الخيل وبدأ في تأليف كتاب بيداغوجي ضخم يروي فيه فصول حياته الخاصة مع هذه الرياضة النبيلة التي أعطاها حياته كاملة".

حين بدأ الضابط الرئيس يحكي لي تفاصيل آخر رواية بوليسية قرأها، حيث امرأة تختفي بعد أن تقتل غريمتها وتلبسها ألبستها، وتضع لها أقراصها، وتحلق شعرها وتترك بعض خصلات على أطراف الغرفة بعد أن تحرق الجثة نهائيًا.. توقفت السيارة فعرفت بأننا وصلنا المكان المقصود.

العيادة العمومية التي توقفنا عند بوابتها الحديدية الضخمة مصبوغة بالأبيض، ونوافذها بلون أزرق فاتح مريح، ملاصقة لباب آخر هو باب معهد باستور كما تشير إلى ذلك الآرمة.

فُتح الباب على الفور، وقد عرف الحارس أن من بالسيارة هم رجال شرطة حتى دون أن يقترب، يبدو أنهم متعودون على استقبال هذه السيارة بشكل روتيني. سارت السيارة بين مجموعة من الأجنحة، ثم توقفت عند واحد على أطراف المؤسسة الاستشفائية.

"إنه جناح حفظ الجثث". قال لي الضابط الرئيس.

نزلنا ثلاثتنا، في حين تحرك السائق بالسيارة بعض أمتار إلى الأمام، ليركنها في الموقف المخصص لسيارات الاستعجال. قبل أن ندخل، توقفت سيارة إسعاف لتُنزَل منها جثتين على محملين مغطيين بإزارين كبيرين من البلاستيك، اقشعر جسدي، وتذكرت معلمة الموسيقى، لم أدر أكنت أحب الكمان أم أستاذة الموسيقى؟ والتي بدورها كانت تعاملني برقة، وكانت تقبلني على فمي، وتختلي بي في المرحاض في أوقات معينة، حيث يكون المعهد شبه خالٍ من التلاميذ والحراس، وكنت أشعر بها سعيدة وهي تلعب بعضوي الجنسي وكنت أحب هذا. هذه الخلوة هي التي جعلتني أعشق الكمان وأحب الصلاة، فكلما فكرت في الكمان فكرت في هذه السيدة التي كانت بعمر أمي، ولكنها كانت تبدو صغيرة لا تتجاوز العشرين، يا إلهي! لماذا أتذكر اللحظة هذه المعلمة وأناملها الرقيقة، وأنا في مثل هذا الوضع المأساوي، أمام باب غرفة حفظ الجثث؟!

تبعت الرئيس ومساعده، لم يكونا بحاجة إلى رخصة للدخول؛ فالجميع هنا يعرفهما، والجميع يحييهما باحترام زائد، احترام يشبه الخوف! دخلنا غرفة صغيرة، بدأت أشعر ببرودة تشبه برودة الثلاجة، ثم فتح لنا رجلٌ ملتحٍ بابًا محكم الغلق وهو لا يتوقف عن قراءة القرآن، كما يبدو، وإذا ببرد صقيعيّ يصفعنا. تلقائيًا أدخلت يديّ في جيبي معطفي الربيعي، ومثلي فعل الرئيس ومساعده.

قال الملتحي:

- إنه في القجر رقم 761، تحت الرقم: Chin.B.X1346.Y.

سحب مساعد الرئيس جارورا، فأطلت الجثة التي كانت ملفوفة في كيس نيلون أبيض، عالج السحاب بأن سحبه قليلا، فبان الوجه. تقدم الرئيس قليلا ليتأكد من أن هذه هي الضحية، أشار برأسه لمساعدة برأسه بأن نعم. ثم طلب مني أن أتقدم، تقدمت، لأول مرة في حياتي أشاهد ميتا، أشاهد جثة بدون نفس، وعلى بعد سنتمترات مني. اقشعر جسدي ثانية، وتذكرت معلمتي للموسيقى، وتمنيت لو أن بين يدي الكمان فأعزف وأنسى العالم الذي حولي، مرات.. كنت أقول.إن الروح أصلها العزف على الكمان، لذا لو كان معي كمان لاستطعت إيقاظ هذه الجثة من موتها! لم أرَ شيئًا، أظلمت الغرفة أمامي، كان الرئيس يتابع ردة فعلي، على حين غرة، أيقظني مساعده بضوء الفلاش على طلقات متتالية كطلقات رشاش الكلاشنكوف وهو يلتقط لي مجموعة من الصور. كان الضابط الرئيس ينظر إلى ملامح الجثة تارة، وإلى وجهي الذي برد تارة أخرى، وأصبحت أشعر وكأن قناعًا من حطب بارد وُضِع عليه.

قال لي الضابط الرئيس، وقد أخرج جهاز تسجيل صغير شغله على الفور: "هل تعرف هذه الجثة؟".

قلت له: "لست متأكدًا..".

نظر ثانية إلى ملامحي، وعاود التدقيق في ملامح الميت قائلاً: "إن بكما شبهًا عجيبًا". وقد تغيرت نبرة صوته إلى ما يشبه التحذير أو التهديد.

صمت، ثم أضاف بصوت عالٍ قليلاً: "ألم تتعرف على الضحية سابقًا؟ ألم يسبق لك أن رأيت هذا الوجه من قبل، ولو مرة واحدة؟".

قلت: "لقد تغير كثيرًا. أنا أعرف الأحياء، و لم أشاهد في حياتي ميتًا".

عاد رشاش ضوء الفلاش ليسقط وابلاً عليّ من آلــة المســاعد الذي كان يأخذ لي صورًا من كل الجهات، وعلى مسافات مختلفة.

انتبهت، وإذا بسيدة بقد منحوت بعناية تقــف إلى جــواري، شعرت بتيار كهربائي يمر في جسدي، لم أر منها ســوى خضــرة عينيها.

وغادرنا المكان.

من أي سماء نـــزلت السيدة؟

8

كل خفيف يغرقُ في القلب، ويطفو فوق الماء.

تركني السائق عند مدخل العمارة حيث انتقلت، وقبل أن أخطو إلى الداخل لتغيير ثيابي، وارتداء ثياب العمل والالتحاق بالورشة، فجأة.. لست أدري لماذا فكرت في العودة وحدي في اليوم التالي إلى العيادة، فكرة سكنتني وأخذت تعذبني، وكأن الجثة التي شاهدتها هي فعلاً لشخص أعرفه ونسيته من هول الصدمة، أو ربما لأنني خفت أن أتهم بأنني القاتل.

كان ما تبقى من اليوم طويلاً، والليل أطول. أخرجت الكمان وحاولت أن أعزف، ولأول مرة لم أستطع العزف! وكلما استعصى علي ذلك، أحاول أن أستعيد صورة معلمتي للموسيقى، فيعسر علي لململة ملامح وجهها. شربت ما تبقى من قنينة مشروب الباجيو (Baijiu) الصيني القوي، فلم يهدأ لي بال، لأول مرة أشرب في ليلة غير ليلة الخميس وأدخن في ليلة غير ليلة الخميس!

شعرت بشيء قد تغير في.

هل أنا من قتل تلك الضحية؟

وبدأت أشرب كأسًا فوق أخرى، وأحاول أن أتذكر: كيف قتلته؟ أين قتلته؟ أين رميت بجثته؟ ما الوسيلة التي استعملتها لإنهاء حياته؟

ولكن لماذا قتلته، إن كنت بالفعل أنا القاتل؟ وهل المرأة التي كانت بجواري والتي هبطت من السماء بعينين خضراوين شريكتي في الجريمة؟

كأسًا فوق أخرى.. كي أطرد صورة الضحية الممددة أمامي في سكون وغربة.

غربة الميت أكبر من غربة الحي!

نمت والكمان بين يدي صامت، جثة باردة وغامضة كجثة الضحية التي عاينتها مع الضابط عاشق الروايات البوليسية.

المرأة التي لها بستان أخضر في عينيها، تظهر وتختفي بين كأس وأخرى.

صباحًا، قررت أن أعود إلى بيت حفظ الجثث، طلبت من مساعدي في الورشة أن يستكمل ما كان عليّ القيام به في برنامج اليوم من الإجراءات الأخيرة لتسليم الدفعة الثالثة من البنايات التي هي جزء من برنامج الرئيس.. وافق دون أن يطلب مني سبب مغادرتي الورشة، وكأنه قرأ ملامح القلق الغريب في عيني. خرجت أبحث عن سيارة، تمنيت لو أني عثرت على عبد الرحمن كي ينقلني إلى هناك، لم أجده على الرصيف. ركبت في أول تاكسي جماعي، حين نظر إلي السائق، قال معلقًا، وبوقاحة، ربما معتقدًا أنني لا أفهم العربية التي يتكلم بها: "وصلتم إلى سيارات الأجرة الجماعية، بعد عشر سنوات ستقيمون شركات نقل خاصة بكم، إنكم كالجرذان التي تهجم على المدن في مواسم الطاعون". كنت بالفعل أفكر في تأسيس شركة سيارات نقل في المدينة، كأنما هذا السائق كان يقرأ ما يدور في رأسي الدائخ من أثر شراب الأمس.

لأول مرة أشعر بأن الطريق سالك والحركة خفيفة، علق السائق وكأنما الكلام موجه لي: "نحن لسنا مثل الصينيين في بكين؛ فالحركة في العاصمة قد تكون مختنقة في أية ساعة، ساعة الـــذروة أو ســـاعة العمل، هذا ليس مهمًّا، الناس تخرج من العمل متى تريد وتدخل متى تشاء؛ لذا فحركة المرور لا يمكن توقعها، اليوم يوم ثلاثاء، الســـاعة الآن العاشرة، وها هو الطريق سالك، البارحة كان يوم اثنين هو يوم عمل، ففي نفس الساعة قضيت للوصول إلى معهد باستور ما يقارب الساعة والنصف، وهي المسافة نفسها التي أقطعها اليـــوم في ظـــرف عشرين دقيقة أو أقل".

حين بلغنا معهد باستور، طلبت من السائق التوقف، قبـــل أن أطلب منه ذلك دارت في رأسي فكرة العدول عن هذه الزيارة، لكن السائق لم يمهلني فرصة التراجع، فتوقف مطالبًا دفع الأجرة.

دفعت له ما طلب مني، خطوت بعض خطوات، تراجعت عن الدخول، إلا أن البواب الطويل الذي يشبه مالك الحـــزين نـــاداني، قائلاً: "ألست أنت الذي كان برفقة الكوميسر البارحة؟".

أردت أن أنفي ذلك، لكن صوتا يبدو غـــير غريـــب أثـــارني، انتبهت، فإذا بعبد الرحمن يخرج كالعفريت من غرفة الحراسة علـــى مدخل الباب الرئيسي، أسرع في اتجاهي، وقد قررت العودة عن قرار إلغاء الزيارة، قائلا:

"أنت.. أنت يونس الصيني، الذي كنت معـــي قبـــل أيـــام في السيارة، لقد جئت للبحث عنك في الشاليهات، فقيل لي إنك رحلت إلى حي الشناوة".

سلم علي بحرارة قائلا:

- أنا لست ممرضًا، ولكن يحصل معي مرات كثيرة أن ألقح مريضًا بإبرة، أنا رئيس البوابين في هذه المؤسسة، أنا ملك المفاتيح.

وأخرج لي عناقيد من المفاتيح التي يحملها معه أين ما تحرك، حين يخطو تحدث ضجيجًا، وإذا ما نقص مفتاح واحد يعرف ذلك من خلال خلل في موسيقى صوت عنقود المفاتيح.

"أصوات المفاتيح هذه كأصوات مفاتيح البيانو، إذا سقط صوت أو اختل فالقطعة ضائعة، كذلك مفاتيحي، إذا نقص واحد أشعر بأن سلامة المؤسسة في خطر. للمؤسسة خمسة أبواب ثانوية، وبابان رئيسيان، وباب خاص بالمدير العام، وآخر بزواره الخاصين جدًّا! أنا لا دخل لي في زوار المدير الذين يسلكون هذا الباب الخاص ولكني أعرفهم واحدا واحدا وأعرفهن واحدة واحدة".

أعجبتني فلسفته كثيرًا، وذكرني على الفور بمعلمتي للموسيقى والتي حاولتُ، ولليوم التالي، تذكر ملامح وجهها فلم أستطع، وحين تسقط امرأة بحجم معلمة الموسيقى ومعلمة اللذة من رأسي فإن شيئا ما قد حدث في داخلي، زلزال أو نار تحرق ما في رأسي وقلبي وترتب أوراقي من جديد.

سحب سرواله عن ساقه الاصطناعية، وقال لي: "هذه الساق تركتها في الجبل، أنا من الباتريوط".

لم أفهم ما تعنيه هذه الكلمة، فأدرك أنني لم أفهم معنى الكلمة، فقال شارحًا: "الباتريوط هم الحرس البلدي الذي قاد حربًا شعبية ضد الإرهاب في الجزائر، هم المقاومة الحقيقية، أبناء الشعب البسيط الذين هزموا الإرهاب، لولا الباتريوط ما كان لكم، أنتم الصينيون، طريق إلى

الاستثمار والعمل في بلادنا.. أنا ضد قانون السلم والمصالحة الذي يأكل حقوقنا، ويمنح الإرهابيين العفو والمال، ويسمح لهم بالتموقع في التجارة والأعمال الفاسدة باسم السلم وبأموال الخزينة العمومية".

أردت أن أقول له إنني لا أحب السياسة، وإن حب الكمان وحده يكفي عالمي الذي قررت أن أبنيه ولو بعيدًا عن الصين. لست أدري لماذا يعتقد الناس بأن الصين واسعة؟ لقد كنت أراها وأشعر بها ضيقة مثل خرم الإبرة!

لم أشعر يوما بأن الصين كبيرة.

قال لي عبد الرحمن الذي بدا لي غريبًا في تصرفاته: "إن السيارة التي أستعملها كسيارة أجرة هي سيارة مصلحة الاستعجال، وهي تابعة للمؤسسة الاستشفائية".

لماذا يقول لي كل هذا الكلام الذي يشبه الرسوم السريالية؟

كنت أتبعه، وهو يحمل في يديه عراجين من مفاتيح من كل الأشكال والأحجام، ويعلق بعضها الآخر في حزامه، حتى دخلنا رواقًا طويلا، إنه ليس الطريق الذي سلكناه البارحة بصحبة الضابط ومساعده المصور، حين عبرنا نصف الرواق تقريبًا دون أن يستشيرني. دق باب مكتب مغلق، ودون أن ينتظر ردًّا بالإيجاب أو النفي، دفع الباب وسلم بصوت عالٍ، وطلب مني أن أدخل. لم يكن أمامي سوى الاستجابة فتقدمت داخلَ الغرفة، خلف المكتب تجلس امرأة في الثلاثينيات. رأيتها وفي الحين شعرت بها وكأنها هي التي تحاول -منذ البارحة- التسلل إلى تلافيف رأسي لتجلس مكان معلمتي للموسيقى، التي ما عدت أستطيع استرجاع ملامحها، السيدة الجالسة خلف مكتبها هدوؤها يشبه هدوء الموناليزا التي تطل عليّ من

نسخة معلقة غير بعيد من صورة رئيس الدولة، تشبه معلمتي للموسيقى. مع أنني، وكعادتي، غرست نظري بين رجليّ الصغيرتين النائمتين في حذائهما النظيف، الذي ألّمعُه كل يوم أحد وأربعاء، فقد شعرت بأن السيدة تنظر إلي وكأنني لست بغريب عن هذا المكتب، كأنما كانت تنتظر أن أدق بين الفينة والأخرى باب مكتبها هذا الثلاثاء من هذا اليوم الربيعي، وكأنني سأجيئ بالصدفة لأسقط قدامها، كما تكتب الحكايات التي كثيرا ما سمعناها لذيذة من على أفواه جداتنا.

تذكرت الجثة النائمة في البراد، فثلجت أفكاري.

تركني السيد عبد الرحمن واقفًا كعمود كهربائي مطفأ، وانسحب مقهقها تحت رنين أصوات عناقيد مفاتيحه، وغجغجة صوت ساقه الاصطناعية. لم يكن في مكتب السيدة كرسي ولا صالون للجلوس، مع ذلك قامت السيدة التي طولها -كما كنت أتوقعه- يفوق طولي بعشرين سنتمتر. سحبتْ الكرسي الذي كانت تجلس عليه، وقدمته لي قائلة: "تفضل، قالتها بالفرنسية". وفتحتْ على التو زجاج النافذة كأنما شعرت برائحة غير محببة أغرقت مكتبها بدخولي الفضولي هذا.

لم تتكلم.

أنا أيضًا لم أتكلم، أو بالأحرى لم أجد ما أقوله. كنت أريد أن أقول لها إننا -نحن في الصين- نحتفل برأس سنة يختلف عن رأس السنة في أوروبا، وإن الصينيين الذين بلغ عددهم في الجزائر قرابة النصف مليون قد بدأوا يحتفلون بهذا اليوم في وهران ومعسكر وسطيف وتيارت وباتنة وقسنطينة والطارف وعزازقة وغيرها، كما يُحتفل به في بكين أو شنغهاي، مع بعض الفوارق في مكونات المائدة

وأنواع المشروبات والموسيقى والغناء، ثم سكتُّ؛ لا لشيء إلا لأن احتفالات رأس السنة الصينية قد مضى عليها أيام، فهي تصادف ليلة 31 يناير من كل عام. أردت أن أقول لها إن هذه السنة هي سنة الحصان.

وقفتْ قبالة النافذة التي تفتح على آخر جناح من أجنحة هذه المؤسسة الاستشفائية العمومية، حين نظرتُ حيث كانت السيدة تنظرُ، تذكرتُ بأنه الجناح ذاته الذي زرته البارحة بصحبة الضابط الرئيس ومساعده المصور ذي العين الواحدة.

قدمتْ لي السيدة الرقيقة عزاءها في عبارات رقيقة ساخنة، وقد بدا على ملامح وجهها حزن بروتوكولي.

ثم أضافت:

- هل جئت لاستلام الجثة؟

ارتحت لعبارتها التي وجدت فيها رقة وتعاطفًا، ولكنها رقة تتأكد فيها -بشكل غير مباشر- التهمة؛ تهمة القتل أو تدبير الاغتيال!

لم أقل شيئًا.

سحبت نظرها من على جناح حفظ الجثث، استدارت وأنزلته فوقي، كانت بهما شهب نار خضراء! ارتجفتُ كما ارتجفت أول مرة بين يدي معلمة الموسيقى في ساعة القيلولة، حين ينام جميع الأطفال فتبدأ في خلوتنا بحركاتها اللذيذة، وكم كنت أنتظر ذلك! كنت أعتقد بأن لا وجود للموسيقى بدون تلك الحركات التي تداعب عضوي الصغير فتفتنني وتهيجه!

قالت لي السيدة ذات الحريق الأخضر في عينيها: "اتبعني، سنلقي عليه نظرة أخيرة قبل أن يدخلوه التابوت اللوحي ويسمروه".

تبعتها صامتًا، طيعًا، ككلب خلف امرأة باريسية. تمنيت أن أجد عبد الرحمن في طريقنا كي يخفف عني هذا الصمت برنين شتلات مفاتيحه، لكن لا وجود له. ربما يكون قد ركب سيارة الإسعاف، وخرج ليشتغل بها كسيارة أجرة في شوارع العاصمة.

كانت مشية السيدة كالرقص، تمشي قدامي راقصة، وأنا من خلفها أنبح ولا أنبح، وهو ما جعلني أفكر في آلة الكمان التي لأول مرة لم أتمكن من العزف عليها، البارحة ليلاً.

المرأة التي لا ترقص في مشيتها لا يمكنها أن ترقص في سرير عشيقها، والتي لا رعشة في مشيتها لا رعشة في سريرها.

كان باب غرفة حفظ الجثث مردودا/مواربا دون إغلاق بالمفتاح. دخلنا، هذه المرة ليست كالبارحة، لم أشعر بالبرودة ولا بالقشعريرة، بل على العكس من ذلك، شعرت بحرارة تسلقت جسدي، وتلتها قطرات عرق نزلت من تحت إبطي، وأنا الذي لطالما كانت أمي تقول عني إني مثل الكلب لا أعرق.

"هل سيجيء زمن يكون فيه يوم عيد رأس السنة الصيني يوم عطلة مدفوعة الأجر في الجزائر، كما هو عيد الميلاد وعيد المولد النبوي المحمدي؟". أردت أن أطرح على هذه السيدة هذا السؤال، لكني ترددت، خفت أن تكون أمازيغية من حركة الماك (MAK) (حركة الاستقلال الذاتي للقبائل) التي يقودها الفنان المغني فرحات مهني، أو عضوا في (MCB) (الحركة الثقافية البربرية)، فتبصق في وجهي قائلة: "ليكن لنا نحن أولا الحق في ترسيم رأس السنة الأمازيغية، وأن يكون يناير عيدًا وعطلة مدفوعة الأجر للجزائريين، وهو ما نطالب به منذ نصف قرن ونيف.. وبعد ذلك ننظر في أمر رأس السنة الصينية!".

لماذا أعيش مترددًا كالكلب؛ فالكلب لا يأكل شيئًا إلا بعد أن يتشممه، يتشممه ثم يتركه، يبتعد عنه بعض خطوات ثم يعود إليه بعد حين ليتناوله!

إن بـــي جينات من سلالة الكلاب الحقيرة.

على حذاء ذي كعب عال، كانت تمشي بثقـــة وخفـــة بـــين صفوف الثلاجات، وهي تلقي بين الفينة والأخرى نظرة علـــى مـــا كُتب على الأفيش الملصق على بوابة الثلاجة هذه أو تلك، بعـــد أن تلبس نظارتها ثم تنـــزلها بشكل أوتوماتيكي، وأنا من خلفها أســـير، أتبعها وأراقب ككلب الصيد حركاتها. حين وصـــلت إلى الثلاجـــة المقصودة، وضعت نظارتها فوق أرنبـــة أنفهـــا ثم التفتـــت إلي و لم تنـــزلها، كنت أتمنى أن أرى لون عينيها وهي تقرأ أسماء الموتى: هـــل يتغير لون عيني الجميلة حين تقرأ اسم ميت؟ ربما! على كـــلٍ، هـــذه المرة احتفظت بالنظارة فوق عينيها، أو نسيتها، أو أرادت أن تخفـــي شيئًا ما عني، ربما تأثرها أمام جثة ميت غريب الديار، ربما!

بحركة خفيفة وواثقة، سحبت السيدة الجثة من ثلاجتها، ممددة على سريرها الذي انـــزلقت عجلاته الصغيرة بسهولة علـــى ســـكة رقيقة، دون ضجيج. إنه صـــمت المـــوتى، التفتـــت إلي، تقـــدمتُ كالكلب نحو الأكل ثم تراجعت، بنوع من التردد الغريزي الـــذي في الكلاب.

لم أتمكن من إلقاء نظرة على جثة ابن مربِّي الحجل؛ لأن عطـــر السيدة أنساني المهمة التي جئت لأجلها، العطر الذي تتعطر به ينسي الأحياء أمواتهم. قلت لها: ما نوع هذا العطر، مـــا اسمـــه؟ مـــن أي بلد جاءت به؟

نظرت إليّ، وقد وضعت أصبعيها لتغلق فتحتي أنفها المنحوت بجمال شهي، ثم دفعت بالسرير إلى داخل الثلاجة. عادت الجثة إلى مكانها وقد نسيت السحاب مفتوحًا ووجه الضحية مكشوفًا، وسارت أمامي.. الآن رقصتها تغيرت قليلا، الحقيقة أعجبتني هذه أكثر؛ رقصة المغادرة أفضل من تلك التي كانت في مشية الدخول إلى بيت الجثث.

حين غادرنا جناح حفظ الجثث، قالت لي بصوت خافت: "ربما الرائحة التي تحدثت عنها سببها الانقطاع المستمر في الكهرباء، والذي تعرفه المؤسسة الاستشفائية ومعهد باستور، هذا الأمر قد يكون له أثر على نوعية التثليج!".

قلت لها: "ربما!" وأنا أتبعها وعطرها المثير يشدني كما تشد رائحة السردين حاسة القطط، وتذكرت حفيظة وهي تقول: "إنك تشبه القطط الصغيرة المبرقعة المتشابهة، نسخة واحدة، أنت سادسهم".

عدنا إلى مكتبها، قبل أن أستأذنها بالانصراف، سلمتني بطاقة زيارتها. كانت واقفة، وقد بدا لي أن طولها ازداد عشرة سنتمترات أو أكثر مقارنة بطولي! لم أكن مستعدًّا ولا قادرًا على قراءة ما هو مكتوب على البطاقة، أدخلتها في جيب القميص ذي الكم النصفي واللون الأزرق. منذ نزلت مدينة الجزائر سقطت في عشق اللون الأزرق، كل ملابسي بلون واحد هو الأزرق، أزرق سماوي، أزرق فاتح، أزرق داكن، أزرق لازوردي.. قبل ذلك كنت أحب اللون الرمادي والبني، لماذا يا ترى يتغير عشقنا للألوان فنفضل هذا على ذاك؟

لم أسأل السيدة عن اسمها! ولكني خرجت وأنا أبحث لها عن مكان مناسب، فلم أجد سوى مكان معلمة الموسيقى التي كانت تختلي بي في ساعة القيلولة حين ينام الصغار جميعهم. أكره شيء

للصغار هو نوم القيلولة، نوم مفروض وإجباري. كنت أفضل لعبها بعضوي الجنسي من أن أنام كالخنزير الصغير عند منتصف النهار. لعبها بعضوي الصغير كان ينقذني من نوم القيلولة الذي يشبه الحكم بالإعدام!

يقول الصينيون في كتبهم الكبيرة: إن المسلمين من العرب هم الذين جاؤوا بفن القيلولة، الصيني قبل وصول الإسلام إلى بعض مناطق البلد لم يكن يعرف نوم النهار!

في قواميس اللغة الصينية القديمة: المسلم معناه القيلولة.

ولا يزال المسلم هو القيلولة!

وأنا أغادر مكتب السيدة، تمنيت أن ألتقي بعبد الرحمن كي أسأله عن السيدة: عن وظيفتها، واسمها، وخاصة نوع العطر الذي تتعطر به! مشيت الرواق، وكذا الباحة ذات الظل الداكن بخطى متثاقلة، عله يراني أو علني أسمع رنين شتلات مفاتيحه المعلقة في حزامه أو بين يديه، أو غحغجة مفاصل ساقه الاصطناعية، لكن لا شيء من ذلك! دون شك، إنه يدور شوارع العاصمة مستغلا سيارة الإسعاف كسيارة أجرة!

غادرت معهد باستور الموجود على أطراف العاصمة على الجهة الغربية، فجأة انتبهت إلى أنني لم أشاهد الجثة التي جئت لأجل التعرف على ملامحها، لكني عدت بملامح السيدة ذات العطر في رأسي بدلا عن ملامح الجثة!

سبحان الله.. الأموات قد يمنحون عطرًا جديدًا للحياة، ويبدلون معلمة الموسيقى بملكة!

عن أية ملكة أتحدث؟

كل رجل يبحث عن ملكة، يتوجها على قلبه.

على الرصيف المقابل لبوابة المؤسسة الاستشفائية، لم أنتظر طويلا، توقفت سيارة نقل جماعي عند قدمي، أثارت من حولي زوبعة من غبار. كانت شبه فارغة، ركبت، اتخذت لي مقعدًا في الصف الخلفي. كان الراكبون ينظرون إلي باستغراب، حتى إن أحدهم قال لي دون حرج ودون مقدمات: "أنتم مختلفون عن جميع بلدان العالم في كل شيء، مختلفون حتى في اختيار يوم وتوقيت رأس السنة. لقد شاهدت على واحدة من القنوات التليفزيونية أن لكم رأس سنة غير ذلك الذي يحتفل به أهل موسى وأهل عيسى وأهل محمد عليهم السلام! سبحان الله!".

لم أتكلم، ولم أبتسم، وهو ما أغاظ السيد أكثر. كنت أفكر في قطط قاعة الانتظار، وفي آلة الكمان التي تركتها هذا الصباح فوق السرير باردة وحزينة. على التو سكنتني رغبة جامحة في العزف، ومع ذلك، غابت ملامح معلمتي الأولى للموسيقى، وضاعت مني النوتات والإيقاع.

منذ أن نزلت بهذا البلد، لأول مرة أفكر في أن لا أذهب إلى العمل، دارت برأسي هذه الفكرة الغريبة! لم أنتبه، فإذا بواحد من الراكبين يتحدث بصوت عالٍ مخاطبًا لا أحد، يتكلم وحده، مع نفسه، كأنما يهذي قائلاً: "حتى الصينيين الذين كنا نتخذ منهم مثلا للعمل، ونقول عنهم إنهم نشطاء كالنمل أو النحل.. ها هم أصبحوا مثل الجزائريين الصراصير، يتجولون في أيام وساعات العمل دون خوف ولا رقيب! لقد أصابتهم عدوى الجزائريين: القيلولة والكسل والجلوس في المقاهي والحديث في السياسة والدين".

أدركت أن المتحدث كان يقصد وجودي في سيارة أجرة يوم الثلاثاء وفي مثل هذه الساعة من النهار، وهي ساعة العمل! لم أعلق على كلامه، مع أنني كنت أريد أن أقول له إنني كنت في زيارة لجثة مواطن صيني مات في ظروف غريبة، لكنني تراجعت لأنني أدركت أنني لو قلت له ذلك لعقب قائلاً: "لقد وصلتم للجريمة؟ الله يستر هذا البلد!".. سكت.

أخرجت بطاقة الزيارة التي منحتني إياها سيدة العطر، وملكة الخطو، قرأت:

الاسم: سكورا.

اللقب: آيت صالح.

الوظيفة: رئيسة مصلحة الأمن والوقاية والمراسيم والجنائز.

المؤسسة: المعهد الوطني باستور.

لم أنتبه كيف وصلت السيارة إلى حينا. نزلت، دخلت غرفتي بسرعة، وغيرت ثياب المدينة. لبست بذلة العمل، وخرجت مسرعًا كما الهارب من صورة الكمان المصلوب على السرير. بدت لي جثة الكمان شبيهة بجثة ابن مربّي الحجل الممددة في ثلاجتها كقطعة حطب بلا ملامح.

هل هي جثة سون با سن؟

فجأة، اكتست السماء سحبًا سوداء كأنما لتعلن عن ليل غير منتظر. أنا أخاف من الأمطار ومن الطوفان، وهذا الشعور يسكنني منذ أن قرأت أسطورة جلجامش. كان عمري لا يتجاوز السادسة عشرة، قال لنا وقتها المعلم إن العالم ينتظر الطوفان الذي لا ريب في مجيئه. وحين شاهدت على شاشة التلفزة مشاهد حية عن تسونامي

الذي ضرب التايلاند يوم 26 ديسمبر 2004، قررت ألا أرى في حياتي نشرة أخبار، وأحسست بأن ما قاله لنا المعلم تعقيبا على ملحمة جلجامش قريب منا. مع ذلك تطلعت إلى سماء مدينة الجزائر فشعرت بنوع من الاطمئنان، وأخذت أنظر إلى هذا السحاب الأسود الذي فجأة، وفي أقل من عشرين دقيقة، غطى المدينة. ولم يتبق إلا بعض الأضواء العمومية العمشاء، فأحسست بعطر الملكة سكورا يصعد نحوي من خلال سلالم العمارة. المصعد غير معطل، ولكن سكان العمارة لا يستعملونه منذ حادثة موت ثلاثة من الجيران مختنقين فيه، بعد عجز الجميع عن إخراجهم، وتأخر الحماية المدينة أكثر من نصف يوم، وربما هو الحادث الأليم الذي على إثره قرر جميع سكان العمارة بيع شققهم؛ هروبًا من هذه الذكرى التي تلاحقهم كلما فتحوا أبواب بيوتهم، ليواجهوا باب المصعد الكئيب. لست أدري لماذا وأنا أتابع هذا الظلام الذي نزل على المدينة بكثافة، ولا يزال يسودّ أكثر وأكثر، وجدتني أقيم مقارنة ما بين ملامح حفيظة وسكورا. هما مختلفتان، لا شيء يجمع بينهما إلا شيء وحيد هو شبه في رنة صوتيهما الذي ذكرني بصوت القطط المبرقعة، وهي تموء متسابقة نحو إناء الحليب، ثم غطيطها وهي تنام بسلام فوق الكرتون بقاعة الانتظار في مخفر دالي إبراهيم.

تطلعت مرة أخرى إلى بطاقة الزيارة.

وقلت: سكورا.

سكورا معناها الحجل بالأمازيغية، وتذكرت مربي الحجل عاشق أمي، ولم أستطع التعرف على ملامح الجثة.

9

من هذه الشرفة، واقفيْن نطل، في البعد بحـر يلـبس اللـون الأزرق طورًا والأخضر الداكن طورًا آخر. الميناء يبـدو، كمـا عند أقدامنا، يبعثر أشياء في القلـب وأخـرى في الـذاكرة. قلـت ليونس: "كان الأوروبيون يطلقون على هذا الحـي، الـذي منـه نرى بشعرية ميناء المدينـة كاملـة، اسـم: شـرفة العاصـمة Balcon d'Alger".

نـزل الليل علينا قليلا قليلا، كأغنية نستعيدها بلـذة، وقـد اعتقدنا أننا نسيناها في غبار الأيام، رطوبة ليست كالرطوبة. من هذا البلكون نطل على المدينة الجالسة بجلال الأميرات على ما يشبه مدرج مسرح من المسارح الرومانية أو اليونانية العتيقة. من هذا الصـمت نراقب بحرها الذي من على موجـه خطـف الأجـداد القراصـنة سرفانتيس ذات يوم وساقوه إلى سجنها. بتردد أو حياء يطوق يونس خصري، فأشعر بأصابعه التي لا تعرف سوى نعيم الكمان وسره تمر فوق جسدي، فتبعث في طريقها ما يشبه تسونامي، نار وماء، رغبـة وحيرة، عنف وهسيس كلام من حرير.

لماذا يتحدث الصيني بهدوء وباختصار، ولماذا يثرثر الجزائـري ويرفع صوته ولو في محراب صلاة؟

الصيني يعيش الكلام، والجزائري يعيش بالكلام.

فجأة، وكأنما أراد أن يزيح حجرًا من على فوهة بئر سرية، بدأ يحدثني عن خوف يسكنه منذ الطفولة، أو أبعد حتى من الطفولة. كان يتحدث ولم يبد عليه أي أثر للشرب، مع أنه شرب كثيرًا من الويسكي الصيني، هكذا يسمي مشروبه الذي يجلبه له القادمون الجدد أسبوعيًّا مع كل رحلة قادمة من بكين.

أنا لا أشرب من الكحول إلا النبيذ، القليل من النبيذ.. إنه شرابي المفضل الذي يجعلني قادرة على الابتسام والقراءة والاستماع إلى الموسيقى. يرتبط المشروب عندي بالفرح أكثر مما هو بحث عن نسيان أو هروب من أثر نكسة أو خيبة أو سقطة أو غضب.

عدنا إلى الصالون، تركنا منظر المدينة وميناءها وبحرها، ومن فوقه ذاكرة أجيال من القراصنة الذين عاشوا في البحر، فيه فرحوا، عشقوا، رحلوا وعادوا، وفيه خافوا ودفنوا.

كانت المخدة التي جلست عليها في المرة الماضية في مكانها تنتظرني، العطر في مكانه، البحر في مكانه، ولكن قلبي كان يهتز بطريقة غريبة ويرتجف في قفصه كعصفور بلله ماء على حين غرة.

مائدة بأرجل قصيرة موضوعة على الزربية التي لا تزال برسوماتها المهربة من الجنة، فوقها رتبت صحون صغيرة كثيرة بمأكولات مختلفة، حين جلسنا متقابلين بدأ يسمي لي ما بالصحون واحدًا واحدًا: لم أحفظ منها إلا: Pé-tsaï, Ma Po Tofu, Lao Bing, Le Kumquat, Pak Choï...

شدتني قناني البيرة من نوع (Tsingdao)، والتي أعجبني مذاقها الذي فيه طعم الأرز والقرفة، أو ما يشبه ذلك.

نظر في عيني بخجل شرقي يطلع مع الشمس باستحياء، ثم قال: "لست أدري لماذا كلما فكرت فيك، تذكرت معلمة الموسيقى!".

سكت قليلا ثم تناول كأسًا من مشروب البيجيــو (Baijiu)، قائلاً: "أنا لا أشرب ولا أدخن سوى ليلة الخميس؛ لأنه يسبق يــوم الجمعة الذي هو يوم عطلة".

رفع كأس شرابه، أخذت كأسي من البيرة ونقرته مع كأسه مع التمني بالصحة. نظرت إلى عينيه، حين تُنقر كؤوس الــراح وجــب على العيون أن تنظر إلى بعضها البعض، النظر يزيد من قوة الشراب. رشفت جغمة واحدة، ثم لم أجد في هذا المشــروب ذوقًــا كنــت أنتظره. قلت له مجاملة: "إنها بيرة لذيذة". أدرك من كلامي أن البيرة لم ترق لي، على أطراف أصابعه انسحب دون أن أنتبه ليحضر قنينــة نبيذ صيني، ويصب لي كأسًا، قائلا: "هذا نبيذ الصين، جربيه". قلت له: "أنا لا أشرب إلا في مناسبات نادرة ومتباعدة، آخر مرة شــربت فيها كأس شمبانيا كان بمناسبة رأس السنة الجديدة".

فجأة سقطت عليّ صورة حماتي أم نــزيم، وتمنيت أن أســكر كي أهرب من ملامح وجهها.

بدأ يحدثني عن المشروبات الكحولية الصينية معددًا أسماء غريبة، وكنت أحاول أن أتابع حديثه؛ لأكتشف بــأن ثقافتــه واســعة في هذا الباب، وكأن له خبرة طويلة في خمارات ومعصــرات الصــين كلها.

قلت له مبتسمة، وقد شعرت بأن بخارًا بدأ يصعد من مــؤخرة عنقي، محاولاً إخفاء صورة حماتي السيدة طاووس التي لم ألتق بها من يوم طلاقي من ابنها: "كأنك ولدت في خمارة أو في معصرة عنب!".

ضحك رافعًا كأسه في الهواء، أفرغه دفعة واحدة وهو ينظر إلي، تارة مركزًا على لون عيني، وطورا يسرق النظر إلى ميناء مدينة الجزائر الذي يبدو هادئا تحت أضواء كاشفة، ثم قال: "بالفعل حين كنت صغيرًا، كان عمري لا يتجاوز الحادية عشرة، كنا نقوم بعملية تطوع أيام الآحاد في حقول الدالية الواسعة، نقطع العنب بكل أنواعه وألوانه، وكنا مكلفين أيضًا بنقله إلى المعصرات الكثيرة المتواجدة في المنطقة على متن جرارات يسوقها فلاحون مخمورون طوال اليوم. كان هذا التطوع ينظم تحت إشراف الإدارة المحلية للحزب الشيوعي في إطار التربية الفلاحية والمدنية. كانت تلك الأيام من أجمل أيام الطفولة المطلة على المراهقة، أحببت روائح المعصرات، روائح خمائر غريبة حتى الآن كلما تشممت عطرًا يصنف ضمن أرقى عطور باريس أو روما، أتذكر روائح المعصرات في قريتي؛ إنها المصدر والمقياس لكل جمال شمي لدي! وكان يعجبني منظر الرجال والنساء الذين يدوسون أكوام عناقيد العنب بأرجلهم المدسوسة في أحذية كبيرة بلاستيكية تغطي السيقان وتصل حتى أسفل الإليتين. كانوا يرقصون رقصًا جميلا مرفقًا بغناء شعبي مثير وهم يدوسون عناقيد العنب التي ننقلها لهم في سلال من الحلفاء والقصب البري. كانت النساء تشربن أكثر من الرجال دون أن يصيب عقولهن السكر. كنت أندهش أيضًا لمنظر سواقي عصير العنب وهي تسيل من تحت أحذيتهم لتصل إلى حفرة كبيرة تشبه بركة صغيرة، كان ممنوعًا علينا الاقتراب منها؛ لأنه- وحسب ما روي لنا- فإن كثيرًا من الأطفال قد سقطوا هناك وماتوا وتخمروا مع العنب. كنت أخاف أن أسقط في تلك الحفرة الكبيرة الممتلئة عصير عنب فيشربني أحد في خمارة من

حمارات الضاحية معصورًا كما عنقود من العناقيد. مع ذلك كم من مرة، وفي غفلة من الحارس الذي كان لا يصحو من سكرة إلا ليدخل في أخرى وهو يغرف مشروبه بواسطة سطل كبير، كنت أطل على الحفرة المليئة بالسائل الأحمر ذي الرائحة المثيرة، وأتمنى أن أرمي بنفسي فيها وأسكر العمر كله حتى يصبح لي صوت شجي مثل صوت الحارس السكران.باستمرار!".

كان يونس يتحدث وفي عينيه حياء نبوي، تتلون وجنتاه بحمرة لا ندرك من أين نزلتم أحمر لكنه ليس بأحمر، هو هنا.. ولكنه ليس هنا، هو لون ولكنه ليس بلون، لم يكن قادرًا على أن يرفع عينيه لينظر إلي؛ لذا كان يحاول أن ينتصر على خجله بالإسراع في وتيرة استهلاك المشروب. كان يريد أن يكون كحارس المعصرة! كنت أتمناه أن يتحول إلى حارس المعصرة، يغني غارقًا في حريته الجليلة.

أخذته من خصره، أحطته بذراعي من الخلف، استسلم لحركتي الجريئة. تركنا الصالون وعدنا إلى البلكون ثانية، الميناء في مكانه، وحكاية القراصنة الذين اختطفوا سرفانتيس ذات يوم وجاؤوا به إلى سجنها، لا تزال هناك في شكل موج تائه مجنون.. أضواء السيارات لا تتوقف حركتها في شوارع العاصمة، رويدًا رويدًا.. أشعر بتسونامي يحاصرني، يعلن عن اقترابه من على رؤوس أنامل هذا الصيني الغريب.

أنا الغريبة في حضرة الغريب.

التفت إليّ، وكأنما بحركتي التي فيها عفوية شيطانية أوقدت فيه شموع حكاية أو حادثة تؤلمه، تناول كأسًا أخرى، شربها دفعة واحدة، كنت أعتقد أن الوهرانيين -هم وحدهم- من يشرب بهذه الطريقة الجنونية، لكن ها هو يونس الصيني كبئر أو معصرة، نظر إلى

الشارع الفارغ إلا من أكياس الزبالة الموضوعة على الرصيف، سالت من عينه دمعة، لم أرها ولكني شعرت بها حارقة من تهدج صوته، ثم دلق لسانه:

"كانت تسمى نياؤو (Niâo)، ومعناه بالعربية العصفور، هي ابنة عمي، كنت أحبها لأنها كانت أذكى مني بكثير، تعلمني الحساب والخط، وكنت أعلمها العزف على الكمان. لم تكن تحب الموسيقى، وأنا لم أكن أحب الحساب، ولكنني كنت أشعر في وجودها إلى جنبي باطمئنان كبير لضعفي في الرياضيات والحساب. أنا أكره الضرب والجمع، أريد المفرد أن يظل مفردًا حرًّا، لذا كانت أمي تقول عني إنني رجعي وليبرالي، لا يحب العمل الجماعي والفائدة الجماعية والفكر الجماعي الاشتراكي. أكره القطيع، كنت أشعر بنياؤو أقوى مني، على الرغم من أنها خطفت اسمها من الطير بكل ما فيه من رهافة وشفافية، وكان لها لسان سليط ترميه على الصغار كالشهب، يخافها الجميع، لا أحد كان بمقدوره أن يمسني بسوء جسديٍّ أو لسانيٍّ بمجرد أن تكون بجواري. وكنت ألتصق بتلابيبها في الساحة وفي المكتبة وفي ملعب الرياضة، وفي الحمّام المشترك وفي المطعم، وفي الخرجات التطوعية الخاصة بقطف العنب، أو تنظيف المدينة من الجرذان والذباب والبعوض وقناني البيرة الفارغة المرمية على الرصيف، حتى جاء اليوم الذي نزل على القرية رجل بصحبة زوجته وابن له، قيل لنا إنه عمي الذي نسيه الجميع، والذي كان قد جند من ربع قرن تقريبًا في حرب الفيتنام، وقد نشرت السلطة وقتها خبرًا أكدت فيه موت المجند الذي لم يكن يبلغ من العمر سوى تسعة عشر سنة. سكن بجوارنا وكان مبتسمًا. لم يرد أن يفصح عن المكان

الذي كان مختفيا فيه خلال كل هذه السنوات، شعرت براحة لوجود هذا الطفل الذي نسجت وإياه، وبسرعة فائقة، علاقة جميلة، كان لا يغادر بيتنا، وكنت لا أتجرأ على الدخول إلى بيته؛ لأنني كنت أعتقد أن بيتهم مليء بالأسلحة ما دام الأب عائدًا من حرب. كانت نياؤو ابنة عمتي هي الأخرى تشاركنا لعبنا وطريقنا إلى المدرسة، لكن بمجرد نزول هذا الضيف قريتنا، بدأت عين الطفلة تميل إليه أكثر من تعلقها بي، ففي الوقت الذي كنت لا أتخطى عتبة بيت الجار العم الفيتنامي، هكذا سماه أهل القرية، كانت نياؤو تقضي جل أوقات فراغها هناك. وقد بدأت أنكفئ على حالي، وأغرق في الكمان، وفي عشق معلمتي للموسيقى التي كان لها أصابع منحوتة من شمع نادر، من رخام الروح. شيئًا فشيئًا.. نشأت علاقة حب بين نياؤو وابن عمي، وتخلت عني، وحزنت كثيرًا حتى إنني فكرت أن أقتلهما معًا، لكني لم أملك الجرأة على قتل ذبابة يومًا، فكيف لي أن أقتل شابين؟ ومع ذلك كنت قادرًا على قتلهما!

في الوقت الذي كنت أغرق في الموسيقى، وفي عسل حركات أصابع معلمتي وهي تلامس أصابعي تدربها على النونات والأوتار، وأذني على السماع الصحيح، كان ابن عمي يغرق في رياضة الجمباز وحمل الأثقال. وبقدر ما كان جسدي يصبح ناعمًا أكثر فأكثر تحت فعل الموسيقى وأنامل المعلمة، في المقابل كان جسم ابن عمي يكبر، وعضلاته تتجبر، وهو في ذلك يخطف إعجاب نياؤو التي أخذت تغلق الباب أمامي قليلا قليلا، لتفتحه واسعًا أمام ابن عمي.

بدأ الرهان كبيرًا على مستقبل ابن عمي من قبل السلطات البلدية والحزبية في المقاطعة؛ فكان يقضي ساعات يومه وعطله

المدرسية في التدريبات الرياضية القاسية، حتى إنهم كانوا يأخذونه إلى غابة عسكرية كثيفة تعيش فيها أسراب القردة؛ فيظل يقفز بين أغصان الأشجار. لقد قرروا أن يصنعوا منه رياضيًّا في الجمباز والقفز العالي. كان ينافس القردة في سرعة تسلق الأشجار، فيسبقها، حتى إنه في السنوات الأخيرة، وتحسبًا لمنافسات دولية، كان يقضي لياليه في الغابة، ينام فوق أغصان الأشجار حتى لا يفقد مرونة جسده.

لكن، ومع تعاظم شأنه وتفوقه الرياضي على المستوى المحلي والوطني، وانغماسه في عالم منظم ودقيق، بدأ ابن عمي ينسى نياؤو، في حين ظلت هي متعلقة به حد الجنون، تتبع أخباره على الجرائد، وتقصقص صوره من المجلات الملونة لتلصقها على جدران غرفتها وعلى أغلفة كراريسها. كانت تراقب عودته من كل مسابقة، لكنه لم يكن يظهر إلا محاطًا بحرس حزبي. وقد بلغ حزنها ذروته حين كتبت جريدة محلية انتقال ابن عمي إلى بكين للإقامة؛ تحضيرًا للتصفيات الوطنية، في انتظار مشاركته في الوفد الرياضي الرسمي في واحدة من الدول الأوروبية، يومها بكيت معها عليه، وأخفقت لأول مرة في عزف سمفونية الفراشات العاشقات، وقد غضبت مني معلمتي كثيرًا، ويومها لم تلعب بعضوي الجنسي كما كانت تفعل كل قيلولة.

لم يطل غياب ابن عمي عن القرية إلا بضعة شهور، حتى ظهر فجأة بعد أن حرم من السفر مع الفريق الوطني إلى تلك الدولة الأوروبية التي أعتقد أنها كانت ألمانيا أو إسبانيا، لا أذكر جيدًا اسم البلد. لقد كتبت بعض الجرائد المحلية أن سبب إبعاده من جميع المنافسات يعود إلى أنهم اكتشفوا أن ابن عمي هذا كان مِثْليًّا، وأنه

كان على علاقة جنسية مع واحد من مدربيه الذي حكم عليه بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.

حين علمت نياؤو بالخبر بكت كثيرًا. أذكر أنني وجدتها جالسة عند عتبة باب بيتهم، غارقة في حزنها ودمعها، أخذتها بين ذراعي وبكينا معًا، كنت أشعر أن قلبها كان مع ابن عمي وكان قلبي موزعًا بينها وبين الكمان.

لم يطل به المقام في القرية، اختفى ابن عمي، لا أحد عرف أين اتجه: بعضهم قال إنه انتقل للعيش في مدينة بكين، والبعض الآخر قال إنه انتحر، والبعض الآخر قال إن السلطة ساقته إلى السجن بمجرد أن بلغ سن الرشد؛ فالنظام لا يتسامح مع مثل هذه الأقلية التي يعتبرها فاسدة وشاذة ومريضة".

كنت أشعر بذراعي سكورا وهي تطوق خصري من الخلف، واقفة بطولها الذي أكبر من طولي، تسمع حكاية ابن عمي الرياضي المِثلي، ثم تنهدت وقالت:

- لم أنتبه للوقت، علي أن أنصرف.

تناولت حقيبتها، قبلتني على وجنتي، نزلت السلم درجة درجة، سمعت أصواتا تشتم في الشارع:

- القحبة، لم تجد رجلاً جزائريًا فحلا لتختلي بقط صيني، قلة الرجال!

قال شاب آخر، وهو يتابعها وهي تهم بالخروج من العمارة:

- جزائرية تختلي بصيني يأكل لحم الكلاب، والله تستحق الرجم في الشارع.

- هذا زمن البغلة التي تلد، والشمس التي تطلع من المغرب، والصيني الذي ينام في فراش الجزائرية.

راقبتها من النافذة، حين انزلقت داخل سيارتها وانطلقت، سقطت حجرة كبيرة على زجاج الضوء الخلفي للسيارة، سمعته قد تكسر..

سرتُ في شوارع العاصمة التي كانت شبه فارغة إلا من قوافل المشردين من النساء والأطفال والرجال؛ للمدينة ليلها بناسه وأفعاله وأحلامه، أسوق سيارتي في هذا الصمت الليلي الملغوم وأنا لا أزال أسمع أصداء سباب شباب الحي الذي يسكنه يونس تلاحقني، فأصر على الذهاب أبعد في رغبة اكتشاف آكل لحم الكلاب والقطط والحشرات.

أريد أن أسبح عكس التيار، تلك متعتي.

أشعر بشيء يدغدغ مشاعري، فأقول: ما كان لنياؤو هذه، الغبية، أن تتخلى عن شاب صنع من شهد العسل البري.

10

هروبًا من شراسة عيون الجيران، وو تجنبا لوابل حجارة الصبيان التي قد تسقط هذه المرة على رأسي بدلا من زجاج السيارة، تواعدنا على اللقاء بمطعم "خيْمتنا" بوسط المدينة. أحب هذا المطعم كـثيرًا؛ لأن المرأة التي تديره بحكمة وفن، سيدة أنيقة، اسمها فريدة، عاشـقة لدحمان الحراشي، وصديقة لعدد معتبر مـن الكتـاب والصـحفيين والفنانين التشكيليين وأهل السينما والمسرح. لذوقها العـالي، فقـد حولت مطعمها إلى ما يشبه الفضاء الثقافي والفـني، بـين الفينـة والأخرى، تقيم فيه معارض للفن التشكيلي، وتنظم فيـه لقـاءات وحفلات بيع بالتوقيع لكتاب من الجزائر ومن الخارج.

لكل لقاء نية تسبقه، لست أدري لماذا قررت هـذه الليلـة أن احكي للصيني حياتي، لا لكي أعرف بنفسي، إنما لأخفف عني جرحًا غائرًا في أعماقي.

أردت أن أقول له: "إنني لست ملحقة ببيت حفـظ الجثـث، ولست جثة محفوظة مثلجة!".

أن تحكي للغريب فأنت أكثر حرية في الحكي، وأكثر عمقًا في التفاصيل، أكثر شفافية. أن تحكي للغريب يعني أن لا شيء يحاصرك من تراكمات القمع الأخلاقي والثقافي والديني الذي يمـلأ الـرأس والذاكرة.

الغربة حرية.. تحرر.

الكلام للغريب خلاصٌ من غربة أخرى.

سألت النادل عن السيدة فريدة، قال لي: "إنها غائبة هذه الليلة". على الرغم من الطاولات الكثيرة والزبائن الكثر رجالا ونساء، إلا أنني شعرت بفراغ المكان في غياب سيدة المكان.

المكان الحقيقي يملأ بالأنثى.

نبيذ مطعم "خيمتنا" من النوع الممتاز، نأخذ طاولة في الركن الأيسر. أختار قنينة نبيذ "مونيكا"، جميلة هذه التسمية، مونيكا: اسم أم القديس الجزائري السوق أهراسي سانت أوغستين (ابن مدينة سوق أهراس بالشرق الجزائري). كنت أريد أن أختار القنينة التي باسم الابن "سانت أوغستين"، لكني فضلت أن أبدأ بالأم، الأمهات قبل كل شيء.

السكرة الجميلة تطلع من اسم الأمهات.

هي عادة النادل رابح (الذي يحب فريق برشلونة لكرة القدم، ويناصر فريق شبيبة القبائل) أن يصب نبيذ القنينة في غرّاف من فخار باذخ وجميل، حتى يتنفس؛ النبيذ النبيل تتنفس روحه كما تتنفس روح الشارب. جميع أنواع الأواني الفخارية المستعملة في "خيمتنا"، صرحت لي بذلك السيدة فريدة، تجلب من قرية اسمها "بيدر"، والقرية عبارة عن تجمع أسري في أقصى شمال الغرب الجزائري. قرية من قرى منطقة امسيردا، أنامل أهلها من النساء والرجال لا تعرف سوى إبداع التحف الفخارية. جميع سكان القرية يشتغلون في الفخار ولا يتزاوجون إلا مع أبناء وبنات قرية أخرى غير بعيدة اسمها "بوعدال"، والتي في المقابل يشتغل جميع سكانها في الموسيقى

والغناء والرقص وصناعة البنادير والنايات والطبول وآلات النفخ الأخرى.

أنظر بإعجاب إلى غرّاف الفخار المصنوع بإتقان، وأشتهي أن أشرب النبيذ منه مباشرة كما يشرب اللبن! لكن الحياء يمنعني.

الصيني يشرب قدحًا من الفودكا. هل تحركت الشيوعية فيه؟

النبيذ جيد، يساعد على الكلام، نبيذ الأم مونيكا أو نبيذ ابنها سانت أوغستين!

أعرف أنه هو الآخر كان يريد أن يعرف من أي سماء نزلت:

"أنا سكورا، في حي العناصر بمدينة الجزائر ولدتُ، في أسرة عديدة الأفراد كبرت، خمس بنات وأربعة أولاد، جئت إلى الدنيا بعد الذكور والإناث، لذا لم يثر مجيئي لا الاشمئزاز الكثير ولا الترحيب المصطنع، جئت هكذا والسلام. قالت أمي التي لا تكره الإناث بلغتها القبائلية التي لا تعرف الحديث بغيرها: "ربي يصلح، مكتوب ربي".

لقد أصبحت أمي ملتزمة بصيام شهر رمضان بالتمام والكمال، ولم تعد تفرط في صلواتها الخمس اليومية منذ أن دخلت سن اليأس. قبلها كانت لا تهتم كثيرًا بالصلاة؛ نظرًا لأنها كانت تحب الجنس حبًّا جمًّا، وخاصة ممارسته في ساعة القيلولة الصيفية! كانت تقول: "من لم يذق عسل جنس القيلولة في الصيف لن يَسْخُنَ سريره في الشتاء". يعود والدي من مقر عمله الذي لم يكن يبعد عن منزلنا إلا بضع دقائق سيرًا على الأقدام، ساعة عودته دقيقة ومضبوطة، يدق الباب عند الواحدة إلا ربع، ويغادر عند الثانية إلا ربع. كانت بالنسبة لأمي ساعة العسل بامتياز، وكلما كان اليوم شديد الحر كان جسدها يصاب برجفة وكأن بها حمى باردة، فجأة تتوقف عن الكلام، كانت

تخاطبنا بإشارات من يديها ومن عينيها، وكنا نحن البنات نجلس في الغرفة المجاورة، بفارغ الصبر ننتظر تلك اللحظات: تدخل أمي غرفة النوم قبل والدي ببعض الدقائق، يتبعها وهو يفك حزام سرواله حتى قبل أن يتخطى العتبة. خفية نراقب مشهد الدخول، كان يخطو كالجنرال، يغلق الباب، نضع آذاننا على الحائط الفاصل بين الغرفتين، للحيطان آذان سماعة! نكتم ضحكاتنا وأنفاسنا ونحن نسمع آهات أمي، بل وعواءها العالي من شدة اللذة، فأقول لأخواتي: "لقد فكت عقدة لسانها". وكنت أمد يدي إلى ما بين فخذي ومثلي تفعل أخواتي، فنداعب فروجنا حتى تفيض بماء لزج، وحين تفيض بمائها اللزج تكون أمي قد سكتت، ويكون والدي الجنرال قد غادر البيت عائدًا إلى عمله، وننتظر اليوم الموالي! كانت أمي سمراء البشرة إلا أنها كانت تريدنا بيضاوات كالثلج، تمنعنا من الجلوس تحت أشعة الشمس، اللون الأبيض في عينيها أساس مقاييس الجمال لدى المرأة القبائلية. الفتيات البيضاوات يتزوجن بسرعة، إنهن غواية الشباب وفتنتهم، هكذا تقول أمي.

يعد أبي واحدًا من عناصر الفريق الأول الذين أسسوا، سنوات الاستعمار الفرنسي، شركة الغاز والكهرباء، إلا أن نداء الواجب الوطني الذي أطلقته الثورة الجزائرية بجبهتها وجيشها، جعله يترك الشركة ليلتحق بالتنظيم المدني لجبهة التحرير بمدينة الجزائر، والتي استقر بها منذ أن تزوج والدتي تاركًا قرية إفرحونن ببلاد القبائل، مسقط رأسه ورؤوس أجداده. عرف أبي كثيرًا من القادة الكبار في الثورة التحريرية من أمثال ديدوش مراد والعربي بن مهيدي وعبان رمضان ومحمد بلوزداد وآيت أحمد، ولاحقًا الرئيس

أحمد بن بلة.. بعد الاستقلال كان والدي أول رئيس بلدية ينتخب بئر مراد رايس، واحدة من بلديات مدينة الجزائر الكبرى. كان عادلاً ومحبوبًا من قبل الجميع؛ من قبل الجبهويين كما من قبل الشيوعيين، مع أنه كان أقرب إلى أفكار حزب القوى الاشتراكية، أول حزب معارض في جزائر الاستقلال أسسه الزعيم حسين آيت أحمد. لوالدي عادة عريقة، فهو لا يدخل المنزل إلا وجريدته تحت إبطه، قراءة جريدة **المجاهد** كانت بالنسبة إليه كشرب فنجان قهوة الصباح، منه تعلمت أنا لاحقًا قراءة الجرائد، مع أنني أكره السياسة، وأحب سياقة سيارتي والانطلاق بها في اتجاهات بدون قصد أو هدف. مرة جلست خلف المقود وأقلعت، لأجد نفسي بعد ساعات من السياقة على أبواب مدينة وهران، وحين انتبهت، وقد بدأ الليل يسقط من السماء، ورذاذ خفيف يبلل الزجاج الأمامي، قفلت راجعة دون قلق، وحين وصلت المنزل كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا، ووجدت الاستنفار الكامل في صفوف أفراد العائلة. كلما أكون وحيدة في السيارة خلف المقود، أجد متعة تشبه متعة الممارسة الجنسية في أقصى دهشتها، ممارسة تشبه تلك التي كنت أقوم بها، وأنا أسمع آهات أمي في قيلولاتها.

أنظر إلى الصيني أمامي بجسده الصغير، مع مخلوق بهذا الحجم يمكنني أن أحقق رغبة ممارسة الجنس في السيارة، هي رغبة تسكنني من سنوات.. ربما جاء موعدها.

جئتُ الدنيا كما جاءت أخواتي، مع اختلاف بيّن، حين كبرتُ انتبه الجميع إلى أن لي بشرة بيضاء على خلاف أخواتي وإخوتي الذين كانوا جميعًا إناثًا وذكورًا ببشرة سمراء، وأن لي خضرة في عيني،

بستان أخضر، فبدأ الجميع ينظر إلي بنوع من الريبة والاستفسار الخبيث، الجيران وجيران الجيران ومعلمة المدرسة التي كانت تحب أبي ولم يكن يوليها انتباهًا؛ نظرًا لغرقه في مشاكل مواطني البلدية، وآثار مرض السكري الذي أصاب أمي. مع خضرة عيني وبياض بشرتي كانت أمي فخورة بي، ولكنها كانت محرجة من تعليقات الجيران، وخاصة حينما كنت أعود باكية من المدرسة بعد أن أسمع كلامًا قاسيًا من التلميذات أو من المعلمة الشرسة: "أنت مشكوك في أبوتك! من أين جاءت بك أمك؟ من أين سرقتك؟ ربما أخطأت القابلة فمنحت أمك طفلة لامرأة أخرى كانت تنام على السرير المجاور في مصحة التوليد العمومية". كان الجميع يسخر مني، بل من لون عيني ومن لون بشرتي الأبيض الثلجي. هي سخرية أم غيرة؟ أذكر أن معلمة التربية الدينية السيدة فاطمة بن مقران طلبت مني ذات يوم أن أصعد إلى المنصة، أمام تلاميذ قسم السنة الثالثة ابتدائي، والبالغ عددهم الأربعين نفرًا أو يزيد، بعنف فتحتْ لي عينيّ على وسعيهما، وأخذت تحدق فيهما وهي غير مصدقة ما تراه من خضرة فيهما، قائلة وهي تهز رأسها ذات اليمين وذات الشمال: "هذا حرام، اللون الأزرق أو الأخضر لا يكون إلا في عيون الكفار". بكيت يومها وقررت ألا أعود إلى المدرسة ثانية، لكن أخي الأكبر سحبني، بعد يوم من التمارض، من شعري وأعادني إلى مقاعد الدرس معتذرًا للمعلمة.

مع مرور الزمن، أنا أيضًا، لستُ أدري لماذا، بدأت أشك في كوني جئت من أمي وأبي.

كانت لنا جارة فرنسية، فضلت معية زوجها البقاء في الجزائر بعد الاستقلال. كانا مجاهدين في صفوف جبهة التحرير الوطني،

وانطلاقًا من إيمانهما وحماسهما لبناء جزائر مستقلة جديدة ومتعددة، على الرغم من التهديدات والمآسي التي خلفتها المنظمة الإرهابية بين المواطنين الأوروبيين، الأمر الذي دفع بهم إلى الرحيل القسري والفوري جماعات جماعات إلى فرنسا، فقد ظل هذا الزوج متشبثًا بتراب الجزائر. كنت حين أصادف جارنا الفرنسي السي محمود واسمه الحقيقي ميشال تيسيي، أنظر إلى ملامحه وفضاء عينيه، أحس وكأنني من صلبه، وكنت كلما حاصرتني معلمة التربية الإسلامية، وبمجرد مغادرة المدرسة، أسرع إلى منزل السيد والسيدة تيسيي لألقي بجسمي النحيف بين ذراعي السيد ميشال أو إيما زوجته التي كانت لها لكنة خاصة ومثيرة حين تتكلم اللغة الدزيرية أو القبائلية. كنت أجلس في حجره فيقرأ لي بعض القصص التي لم أكن أحبها كثيرًا؛ لأنها كانت تتكلم كثيرًا عن الفقراء، وعن النضال، والعدالة الاجتماعية، وكنت أريد حكايات وقصصًا عن الأسفار والأميرات والحب والبحار والطيور والألبسة الملونة الجميلة والحيوانات الكثيرة التي تسكن الغابة بطمأنينة والسجادات الطائرة. وحين أمل من قصصه المعبأة بالنضالات أنظر إلى لون عينيه فأجد في خضرتهما شيئًا من بستان عيني. كنت أشعر وكأنني مخبأة في سر يحفظه بعناية داخل بؤبؤ عينيه، وذات يوم قلت لأمي: "إن لجارنا السيد تيسيي عينين تشبهان عينيّ في لونهما الأخضر، أريده أبًا لي". سكتت أمي، ثم قالت لي، وقد بدا عليها ارتباك كبير: "حذار، لا تقولي هذا الكلام في حضرة أبيك، بمجرد التفوه بمثل هذه العبارة، سيغضبه، وسيقلب علينا البيت". ثم قامت إلى المطبخ وكأنها هربت من أسئلتي. من يومها أحببت السيد تيسيي، لكني أحببت زوجته أكثر. كانت

السيدة إيما امرأة من كتب، لا تراها إلا غارقة في كتاب، وأحب الكتب إليها هي كتب الأمصار والتاريخ والمعمار، عرفت ذلك لاحقًا، وقد أحببتها أنا الأخرى وقرأت كثيرًا منها، مع أنني تخصصت لاحقًا في فرع الصيدلة، وكنت أتمنى أن أكون محامية، لكن أمي قالت لي: "المرأة تحتاج في هذا البلد لمن يدافع عنها لا عمن تدافع عنه، المرأة يُرافع عنها ولا ترافع عن أحد".

كانت أخواتي لا تترددن في القول عاليًا: "إن لون عينيك فضيحة أمي النائمة، وقد جئت لتوقظيها، الفتنة نائمة فلا توقظيها يا سكورا!".

كانت أمي تستعجل زواجي كي أرحل من البيت الذي أصبحت فيه لعنة، شخصًا غير مرغوب فيه، مع أنني لم أرتكب ذنبًا. وأنا أحب والدي وأحب أيضًا جارينا السيد تيسيي وزوجته إيما، وأحب كتبهما وقطهما وجرس تليفونهما. بالمناسبة، في بيتهما تعلمت كيف أجيب في الهاتف. كانت السيدة إيما إذ تكون غارقة في صفحات كتاب من كتبها، تقول لي بإشارة من عينيها بعد أن تنزل النظارة: "أجيبي يا ساكو (هكذا كانت تختصر اسمي سكورا)". كنت أجيب، وكانت بعد كل رد على مكالمة تصحح لي أخطائي وتدربني على فن الجواب، تقول لي: "أولاً، عليك أن تقولي مساء الخير أو صباح الخير سيدي أو سيدتي، ثم تطلبي اسم مَنْ على الخط متبوعة بعبارة من فضلكم، ثم تقولي بكل أدب، ترغبون في محادثة مَنْ، من فضلكم؟ ثم تقولي: دقيقة أتأكد هل لا يزال بالبيت؟ ثم تنتظري موافقة المطلوب، إن كان يريد الرد، عليك أن تقولي: لا تقطع من فضلك، إنه معك، وإن كان لا يرغب أو غير موجود

عليك أن تقولي: متأسفة، إنه ليس هنا، يمكنكم إعادة الاتصال في وقت لاحق، ثم تنهي المكالمة بـ: مع السلامة، طاب يومكم أو مساءكم..". وقد حفظت درسها جيدًا. من السيدة إيما تعلمت المحادثة بالفرنسية، وهي اللغة التي حتى الآن أتكلمها أكثر، مع أنني درست في مدرسة جزائرية معربة.

كنت أسمع نصائحها، وأقلّب كتبها، وأقرأ منها بعض الصفحات، وأستمتع بالصور واللوحات في كتب الرحلات والبلدان والعمران والفن التشكيلي التعبيري، ربما هروبًا من نظرات أمي القاسية. كنت أحبذ البقاء طويلا في بيت السيدة إيما، وكانت أمي تشعر بالراحة حين أكون خارج البيت، خاصة حين تستقبل ضيفًا؛ إذ السؤال الذي يتكرر على لسان كل من يزورنا، وبشكل بديهي، وهو ينظر إلى لون عيني قائلا، بنوع من المزاح المبطن بالخبث: "هل هذه ابنتك؟" والسؤال بطبيعة الحال يكون موجهًا لأمي، التي تحاول أن تجيب بنكتة باردة تخفي في باطنها مرارة ما: "لا، لقد عثرنا عليها ذات صباح في قفة موضوعة عند عتبة المنزل!". أمي لم تتنازل عن لكنتها الجبلية، وهي تتكلم الأمازيغية التي لا تتقن سواها، وكنت أحب في أمي لكنتها، صديقاتي في المدرسة يتكلمون لغة أمازيغية نصفها فرنسية".

كان يونس الصيني يتابع حديثي وعينه في بستان عيني باحثًا عن السيد تيسيي المختفي هناك متدثرًا بحكاية وردية.

انتبهت، وقد أدركت أنني جئت على آخر قطرة نبيذ في غراف الفخار التقليدي الصنع، والحكاية لا تزال تسيل من على شفتي.

بنوع من الوقاحة، الزبائن الجالسون من حولنا ينظرون إلينا باستغراب، وبدأ بعضهم يتهامس عن وجودنا الشاذ: "جزائرية

بعينين خضراوين في جلسة رومانسية مع صيني يأكل الذباب والأفاعي!".

حاولت أن أهرب من العيون المغروسة فينا من كل الجهات، وشرر نار نظرات الزبائن رجالا ونساء تحرق ظهري وبقية أطرافي.

قال أحدهم لصديقته أو زوجته قبيحة الشكل بفم ممتلئ: "لم يبق للجزائرية سوى أن تقاسم الصيني السرير، وصحن شرائح لحم الكلاب!".

على طاولة قريبة منا قال رجل يبدو عليه أنه جامعي، أو إطار في شركة ما: "إن ميزان التبادل التجاري بين الجزائر والصين فاق ميزان التبادل ما بين الجزائر وفرنسا. لقد أصبحت الصين البلد الأول في التعامل الاقتصادي والتجاري مع الجزائر!". كان الرجل، الذي يبدو أنه أستاذ في الاقتصاد السياسي أو ما يشبه هذه التسميات، يتكلم كمن يحاضر في مدرج كلية الاقتصاد والتجارة.

استغرب الثاني المعلومة ولم يرفع عينيه من على طاولتنا، ثم عقب قائلا بسخرية لاذعة: "بعد الاستثمار الاقتصادي سينتقلون إلى الاستثمار البشري، سيصادرون منا جميلاتنا، انظر إلى هذه الجميلة، حورية خضراء العينين تجلس إلى هذا المنفوش الشعر وبلا عينين!".

قال آخر بربطة عنق وردية: "كان الغرب يعتقد أن الصين بعدد سكانها المذهل ستكون السوق الذهبية لمنتوجاتهم، ولكن ما حدث هو العكس، لقد صار العالم كله سوقًا للمنتوجات الصينية المقلدة وغير المقلدة".

خفت أن يهجم الزبائن علينا، ويرجموني في الشارع الرئيسي، فطلبت الحساب وغادرنا المطعم.. التعاليق تلاحقنا، ولهب الأنظار الفضولية تحرقنا.

على عتبة باب المطعم، مسكت يده في يدي، أدخلت أصابعي بين أصابعه، شعرت بيده صغيرة ورطبة، ضغطت عليها قليلا، مشينا بضعة أمتار ثم افترقنا، كل في اتجاه سيارته.

وكان قلبي يدق بطريقة أخرى!

•

11

اليوم يوم خميس، خميس آخر، الساعة تشير إلى الرابعة والربع مساء، قبل أن أغادر مكتبي بمعهد باستور، كما هي العادة كل خميس، على الساعة الرابعة والنصف، أحدس جرس تليفوني، وأعرف أن الذي على الخط لن يكون سوى يونس الصيني. بطريقة تلقائية، أخرجت المحمول من حقيبة اليد ونظرت إلى الشاشة كمن ينتظر مكالمة مؤكدة. لم يطل بي الانتظار وإذا بالهاتف يدق، وإذا برقمه يرتسم على الشاشة مع اسم مستعار كنت قد سجلته على رقمه: سليمة.. غالبية الأسماء الموجودة في مذكرة الهاتف أكتبها على غير حقيقتها، أكتب الاسماء كما يحلو لي حتى لا تتمكن أمي من معرفة المتصل بي إذا ما حاولت تقفي مكالماتي، وهي غالبًا ما تتلصص على رسائلي ومكالماتي. خفق قلبي لرنات جرس الهاتف، لأول مرة يخفق بهذه الطريقة، ترددت في الرد على المكالمة، شعرت وكأنني أستعد للسقوط في هاوية سحيقة. امتنعت عن الرد، هي بداية شيء ما، تذكرت تعليقات الجيران وصراخ أطفال الحومة وعيون زبائن المطعم والتعاليق والضحكات.. استرجعت كل هذا العالم من الكراهية والحقد ولم أجب، بعد دقائق عاود الاتصال، وكنت متيقنة أنه سيعيد الاتصال بعد ثلاث دقائق وعشرين ثانية، وكان الذي توقعت، وكنت أتمنى أن يعيد الاتصال! في هذه المرة أيضًا لم أجرؤ

على الرد، شعرت بارتجافة في يدي، وبدوخة صغيرة في رأسي، لست أدري لماذا، ربما سببه الخصام الذي حصل بيني وبين أمي البارحة إثر رجوعي متأخرة قليلاً. لقد قابلتني عند عتبة البيت بهجوم شنيع وسباب من نار: "امرأة مطلقة مثلك، لا تخرج من المنزل كالرجل الأعزب متى أرادت وترجع إليه متى أرادت! المرأة المطلقة قنبلة موقوتة. يجب أن تربط من ساقها ومن لسانها، ويوضع لها قفل في عضوها..".

هاتفي يدق، مرة أخرى يدق، أسمع موسيقى رناته التي هي مقطع من السمفونية التاسعة لبتهوفن، أحاول أن أسترجع ملامح وجه يونس الصيني. لا أتذكر منه سوى صوته وخجله وحديثه عن ابنة عمه وعن معلمة الكمان. كما في المرات السابقة: لم أرد على المكالمة، هذه المرة تجرأ وترك لي رسالة صوتية: "أنا يونس، أتمنى أن تكوني بخير، سأتصل لاحقًا".

لم تعجبني رسالته الصوتية: باردة، مؤدبة كثيرًا، ينقصها دم المغامرة وخبث العاشق. كنت أتمنى أن يقول لي: "أعرف أنك لا تريدين الجواب، وتتحججين بالعمل، وأن لا شخصية لك، أنت خائفة من عاشق يأكل لحم الكلاب والأفاعي وسلاطة من ذباب أزرق". لم يقل أي شيء من هذا، أعدت سماع الرسالة ثلاث مرات، وفي الرابعة مسحتها قبل الانتهاء منها، ولكني وبعد لحظات تأسفت لمحوها؛ إذ تبين لي أن في صوته رنينًا غير عادي، ربما هو رنين العشاق على الطريقة الصينية؟

قبل أن أغادر مكتبي هجم علي عبد الرحمن الثرثار، قلت في نفسي، هذا المخلوق سيزيد من تعكير مزاجي، قال لي:

- هل من أخبار جديدة عن أسباب موت الصيني، وهل تم تسلّم الجثة من قبل ذوي الميت؟

قلت له أو لنفسي:

- وهل هناك من عائلة لهذه الجثة؟

شعرت وكأنني المسؤولة عنها، ربما الرسالة الصوتية التي بعث بها إلي يونس جعلتني أشعر بأنني الشخص الوحيد الذي من واجبه تسلّم جثة الضحية.

لم أرد عليه أو لم يسمع ما قلته جراء أصوات شتلات المفاتيح التي يحملها في يده، والأخرى التي يعلقها في حزامه الجلدي المهترئ جهة اليمين وجهة اليسار.

مشى بجنبي في الرواق، وغجغجة ساقه الاصطناعية قد زاد صوتها؛ إذ غادر جميع الموظفين والموظفات مكاتبهم، قائلاً:

- لقد وصلني استدعاء من السيد الضابط الرئيس.
- من هذا الضابط الرئيس؟ قلت له.
- ذاك الذي جاء منذ فترة صحبة الصيني الذي يسمى يونس، والمتهم بالقتل، والذي تعشيت معه الخميس الماضي في مطعم "خيمتنا"، ألا تذكرين؟! كان معهما مصور بآلة تصوير تشبه الكلاشنكوف، لقد جيء به للتعرف على الجثة التي طال وجودها في البراد، بل وتجاوزت الوقت القانوني للتخزين، وأخاف أن يدخل الصيف، وكما هي العادة، يتكرر انقطاع الكهرباء، فتتعفن الجثة وتصل رائحتها إلى الصحف ووزارة الصحة ووزارة الداخلية وقصر المرادية!

مرة أخرى يرن هاتفي المحمول، بحثت عن الجهاز في حقيبتي اليدوية، بين الأوراق وأغراضي الفوضوية، حين عثرت عليه كان جرس رناته قد سكت، انتبهت فإذا المكالمة من يونس الشينوي مرة أخرى. قررت أن أكلمه ثم أرجأت ذلك إلى حين وصولي إلى السيارة المركونة بموقف المؤسسة، قلت، أكلمه وأعتذر له بمثل هذا: "عليّ أن أصطحب ابنتي عند طبيبها النفساني، فاليوم هو موعد جلستها الخامسة". لكني حين ركبت السيارة محاولة التخلص بأسرع وقت ممكن، وبأية طريقة، من عبد الرحمن ومن رائحته الكريهة ورنين مفاتيحه، نسيت أن أكلمه.

أقلعت السيارة دون أن أعرف إلى أين أتجه، فأنا لا أريد أن أقابل ملامح وجه أمي التي، دون مقدمات، ستبدأ في محاسبتي ومعاتبتي وإعطائي مجموعة من الدروس عن كيفية سلوك المرأة المطلقة، وربط لسانها في الكلام، وانضباطها في طريقة سياقة السيارة، ومعرفتها اختيار المشي على الرصيف الخالي من الذكور، وكيفية قول صباح الخير للرجل المسن وللرجل المتزوج والرجل المطلق والرجل الأعزب وللشاب وللمرأة وو...

أوقفني شرطي المرور، هي المرة الألف التي يوقفني فيها، بإشارة من يد متعبة فيها استخفاف واضح، كنت أنتظره أن يوقفني، هي عادة يمارسها رجال شرطة المدينة، لا تمر امرأة خلف مقود سيارة إلا وأوقفوها، هي معاكسة على الطريقة جزائرية، فحولة جزائرية بلباس رسمي.

قبل أن يطلب مني أوراق السيارة، منحته إياها، وأغلقت زجاج النافذة قصدًا حتى أغيظه، هو نفس الشرطي الذي أوقفني البارحة

وقبل البارحة.. وسيوقفني غدًا! من لكنة حديثه أدركت بأنه يكون من منطقة جيجل في الشرق الجزائري أو من الغزوات في الغرب، فالقاف ينطقها أهل هاتين المنطقتين كافا.

لم يتصفح الوثائق، بل تصفح ملامح وجهي مبتسمًا ابتسامة ريفية خبيثة.

أكملت طريقي دون أن أعرف إلى أين؟ أي طريق؟

في شارع صغير متفرع عن شارع ديدوش مراد ركنت السيارة في مكان عثرت عليه محررًا. في العاصمة، يصعب أن تجد مكانًا شاغرًا لتوقيف سيارتك. أخرجت هاتفي، قبل أن أبحث عن رقم يونس الشينوي في ذاكرة الجهاز، قلت في نفسي: "سيتصل بي الآن". نظرت إلى وجهي في المرآة، وإذا الهاتف يرن، أجبت دون تردد: "اسمح لي، لم أستطع الرد على مكالماتك، كنت مشغولة في اجتماع مع المدير!!". رد عليّ ببرودة: "لا يهم، نلتقي في مطعم البوسفور، في وادي حيدرة". قلت له: "سأكون هناك عند الساعة الثامنة، علي أن أمر إلى البيت لتفقد لِيليا". أنهيت المكالمة بسرعة، أغلقت الهاتف. قبل أن يدور محرك السيارة، وقف شاب عند عجلة السيارة، طلب مني دفع سعر التوقف، بحركة عفوية منحته عشرين دينارًا، رفضها بتذمر وغضب قائلا: "منذ الصباح وأنت تثرثرين في الهاتف وتنظرين إلى المرآة، تمشطين وتتجملين وفي الأخير تمنحينني عشرين دينارًا، التوقف في مكان مثل هذا الشارع، في قلب العاصمة، فرصة ليست متاحة لكل شخص، ركن السيارة هنا يبدأ بخمسين دينارًا، حتى ولو كان لأجل مكالمة هاتفية مدتها دقيقة، القانون هو القانون، تلك هي تسعيرتنا". كان يكلمني ويهش على الأرض بعصاه الحديدية، كأنما

يهددني، منحته قطعة الخمسين وانطلقت، سمعته يسبني ويشتم عائلتي، ويلعن أبـــي الذي يتركني أسوق السيارة وأتجول بها لوحدي في مثــل هذا الوقت المتأخر، وقد بدأ سواد الليل ينـــزل من السماء.

قلت في نفسي: "رجل الشرطة أرحم من هذا الأهوج".

الذكور في الجزائر تيوس.

حين بلغت المطعم، الذي أدخله أول مرة، وجدت يونس الشينوي قد سبقني، كان يقرأ في مجلة إشهار عن السيارات والدراجات الناريـــة الاحترافية الكبيرة، يكون قد عثر عليها في مكتب الاستقبال.

من بعيد، أشار لي كي ألتحق بطاولته التي اختارها في أقصـــى الصالة. كان المطعم شبه فارغ، بعض الزبائن اتخذوا لهم أمكنة حول بعض الطاولات في الزوايا والأركان، الجميـــع يتحـــدث بصـــوت خافت، الكل يوشوش للكل.

قطعت القاعة طولا، كانت كبيرة، كبيرة بوسع ملعـــب كـــرة القدم أو أكثر، هكذا أحسست بها إذ كانت عيون الزبائن ذكـــورًا وإناثًا تلاحقني منتظرة على أي طاولة سأحط، وحـــين جلســـت إلى طاولة الصيني، بعد أن قبلته قبلتين، وابتسمت له وابتسم لي، تحـــول الصمت من حولنا إلى وشوشات، ثم إلى ضحكات أو ما يشبه ذلك، لم أعر الأمر كبير انتباه، قاومت.

قلت في نفسي: "لقد غيرنا المكان، جئنا إلى حـــي راقٍ: حـــي حيدرة، حيث الطبقة البورجوازيـــة الدزيريـــة، وحيـــث إقامـــات الدبلوماسيين الأمريكيين والأوروبيين. جئنا هنا حتى نهرب من العيون الماكرة والتعليقات البليدة، وها نحن وكأننا في المطعم ذاتـــه، مطعـــم "حيمتنا" في ذاك المساء".

جاءنا النادل الذي بدا لطيفًا، وجه إلي الكلام قائلاً: "سيدتي، أنت صاحبة السيارة الحمراء، بيجو 307؟". قلت له: "نعم". قال لي: "الرجاء، ودون إزعاج، تحريكها من مكانها؛ فذاك مدخل مرأب منزل خاص".

أسرعت، وعلى فمي جملة اعتذار كبيرة، تاركة حقيبة يدي فوق الكرسي، قطعت المسافة نفسها إيابا، لكن هذه المرة لم أشعر بشرر النظرات إلي، وقبل أن أغادر المطعم إلى الشارع اعترض طريقي صاحب المحل، شاب ثلاثيني بلحية خفيفة على طريقة الممثلين الأمريكيين وعارضي الأزياء، قائلاً: "اسمعي يا سيدة، نحن لا نريد في هذا المحل شينويين (صينيين)، الجزائرية الأصيلة تجيء مع جزائري أصيل، هذه آخر مرة أسمح بها بمثل هذا الاستهتار. المرة القادمة سأطردكما، أنا لا أريد آكلي الكلاب والذين لا دين لهم يجيئون محلي، سمعة المحل قبل كل شيء، هل فهمت يا سيدة، يا محترمة؟!".

منتكسةً، عدتُ إلى الطاولة، على الفور فهم يونس الشينوي أن قضية تغيير موقف السيارة لم يكن سوى حيلة لحديث ثنائي بيني وبين صاحب المحل حول موضوع المرافق الصيني.

طلبت بيتزا روايال، وطلب يونس ستيك وسلاطة مشكلة. كنت منزعجة من كلام الملتحي، ولكن حزنًا بدا على ملامح يونس أنساني فجأة هذا الاضطراب والقلق.

بي رغبة إلى كأس نبيذ، أريد أن أطرد شيئًا يستقر كحبة ملح كبيرة في حلقي أو على قلبي. ترددت أن أطلب نبيذًا، ولكني لم أستطع أن أقاوم.

صب النادل كأسًا لي، وبقرف، صب كأسا ليونس، كنت أشعر بأنه يقاوم شيئًا ثقيلا على قلبه. بعد الكأس الثالثة بدأ يونس يتحدث بشاعرية عالية، الرجال كالأطفال حين تدرك كيف تجرهم إلى لعبة ما، يفرغون قلبهم دون حساب أو اعتبار لأحد أو لزمان.

قال لي: "هل وجدوا من يستلم جثة ابن مربي الحجل، أعني العامل الصيني، من بيت حفظ الجثث؟". الحقيقة لم أكن أنتظر سؤالا عن هذا الموضوع، ولم تكن لي رغبة الكلام في مثل هذا الموضوع، خاصة ونحن على عشاء، وأمام قنينة نبيذ من نوع " La Cuvée du Président"، واحد من أجود أنواع النبيذ الجزائري. حاولت أن أتجاهل سؤاله، وذلك بتغيير الموضوع كلية، قائلة بابتسامة خفيفة: "يقال إن جامعة الجزائر ستفتح السنة القادمة قسمًا لتدريس اللغة الصينية. لقد تأخرنا كثيرًا، فتعليم الصينية أضحى مسألة سياسية واقتصادية واجتماعية وإنسانية".

كان يونس صامتًا، وكأنه نزل إلى عمق قرارة بئر كأس نبيذه، تغيرت ملامح وجهه، ثم قال، كان حديثه بنغمة صوتية خافتة، كأنما كان يخاف أن يسرق الذين من حولنا بعضا من أسراره:

"لست أدري لماذا منذ أن التقيتُ بك نسيتُ ملامح وجه معلمتي للموسيقى. لقد حاولت بكل قواي أن أسترجع صورتها لكن، وفي كل مرة، كنت وبمجرد أن أفكر فيها تطفو صورتك فوق الذكاري، فتغطي على كل شيء، وتعمي ذاكرتي".

ثم أجهش بالبكاء، نظر الذين من حولنا إليه، فسحبته إلى دورة المياه وطلبت منه أن يغسل وجهه بالماء البارد، ففعل، شعرت بأنه ارتاح قليلا.

حين عاد إلى الطاولة، كان قد استعاد بعض قواه وابتسامته، نظر إلي، وإذ أطل على خضرة عيني، قال لي:

"طوال حياتي كنت أحلم أن تكون لي أخت أجلس إليها، أحادثها وأتخاصم معها، وأنظر في عينيها كي أرى العالم بأربعة عيون، عينان اثنتان لا تكفيان لرؤية العالم بشكل دقيق وشاعري. أمي كانت تريد ذكرًا، وقانون تنظيم النسل في بلادنا صارم كالنصل، لا يرحم، وهي التي من أجل أن أكون لها أنا، أنا الذكر، رمت بأختي التي تكبرني بسنة على الرصيف. لقد حكت لي أمي كيف حملت طفلتها، وقد ألبستها ثيابا خشنة خوفًا عليها من البرد، كان الفصل بداية الربيع، وقد قررت بالاتفاق مع أبي أن يضعا أختي، التي كان عمرها آنذاك عشرين يومًا، في سلة المهملات! رميُ البنات على الرصيف هي عادة اجتماعية وثقافية وديمغرافية يعرفها المجتمع الصيني، وقد أغمض النظام عينه عنها؛ تطبيقًا لقانون تنظيم النسل الذي هو واحد من مواد الدستور ومبادئ الحزب، فإذا ما كان للزوج ولد، فليس من حقهما إنجاب مولود آخر، وإذا ما رزقت المرأة بطنا بنتًا فلها حظ ثانٍ أملاً في ذكر، وهو الحظ الأخير: أكان المولود ذكرًا أم أنثى؛ لذا تضطر الأم التي أنجبت بنتًا في الوضع الأول أن تمارس عملية وضع الرضيعة الثانية على الرصيف، ومن جراء تفشي هذه الظاهرة فقد تكونت جمعيات خيرية صينية مدعومة، وبسرية كبيرة، بجمعيات عالمية ومنظمات غير حكومية دولية، تعمل من أجل جمع بنات الرصيف وتهريبهن إلى أوروبا وأمريكا، والاهتمام بهن من حيث التعليم والتربية والصحة وتحضيرهن لمستقبل ما. وقد نتج على هامش عمل هذه الجمعيات سوق المتاجرة بالبنات بالتنسيق

مع تجار الرقيق الجديد، وأرباب النخاسة المعاصرة، وهكذا ظهرت سوق عالمية لبيع وشراء بنات الرصيف الصيني، وتولدت عن ذلك بورصة لها قوانينها، ولها أمراؤها وأباطرتها في الصين وفي الدول الأوروبية وفي أمريكا، وهناك طلب خاص على هذه السلعة التي يعتقد أنها ممتازة للاقتصاد، وتحترم العمل القاسي، وتصبر على قساوة الطبيعة أينما عاشت ووجدت، ولها ثقافة الطاعة.

حين وضعت أمي أختي الرضيعة على الرصيف، إلى جانب براميل القمامة، عادت وبها حمى باردة. بكت كثيرًا، ومن يومها سقطت ضحية الكحول وأنواع مختلفة من الحبوب المهلوسة: الطبية منها، والتقليدية التي يبدع الفلاحون في صناعتها من جذور نباتات وأوراق أشجار يتم انتقاؤها حسب ثقافة عريقة ومتوارثة. بعد عشرة أشهر ويزيد بأيام، جئت أنا، فكنت بمثابة الشعاع الذي أعاد لأمي نوعًا من التوازن، لكنها مع ذلك لم تتوقف عن عادة الكحول وتناول المهلوسات، وكانت مع كل فجر تخرج إلى الرصيف، وبالضبط إلى ذلك المكان الذي وضعت فيه أختي، تجلس هناك قليلا، تبكي وقنينة المشروب الكحولي لا تفارقها، حين تعود تأخذني بحرارة إلى حضنها، وتشهق بالبكاء وتصرخ عاليًا باسم أختي. ظلت على هذه العادة، لم تتنازل عنها لمدة تزيد عن العشرين سنة. لم أتجرأ يوما على سؤالها عن سبب خروجها اليومي إلى الشارع، مهما كان الجو حرًا أو مطرًا، حتى جاء يوم سقط فيه الثلج، بشكل عجيب، حتى وصل إلى مستوى النوافذ، كانت المرة الأولى التي لم تستطع فيها الخروج إلى الرصيف؛ فأخذتني بين ذراعيها باكية بعمق، وحكت لي قصة أختي التي رميت كما ترمى القمامة. من يومها، وبدافع غريب،

أصبحت أتابع البرامج الاجتماعية على قنوات التليفزيونات الأوروبية، وقد سقطت بالصدفة ذات ليلة على برنامج وثائقي مخصص لفتيات الرصيف الصينيات، ومن بين من تم استجواهن في الشريط فتاة كانت تقول إنها، حسب ما هو مسجل على هويتها، وجدت على رصيف شارع فرعي في قرية، هي قريتنا، وإن التاريخ الذي تم العثور عليها فيه، هو تقريبًا التاريخ الذي حدثتني عنه أمي، بقيت حتى آخر الحصة أتتبع قصة تلك الفتاة التي أصبحت مدربة الجمباز في مدرسة الموهوبين والموهوبات في بلد أوروبي هو النمسا، ومن يومها شعرت أن تلك الفتاة لن تكون سوى أختي، وبدأت التفكير في كيفية البحث عنها، لكني كلما فكرت في السفر إليها خفت ألا تكون هي؛ فأضاعف من ألم أمي وأفقد الحلم والوهم الجميل الذي جعلني أحس بأن لي أختًا. ومن يومها أيضًا أصبحت وفيًا لتلك القناة".

شرب كأسًا أخرى بنفس واحد، علت نبرة صوته درجة، وهو الذي لا يرتفع له صوت أبدًا، وقد علت من حولنا أحاديث ومناقشات الزبائن حول الطاولات، واختلطت أصوات النساء بالرجال، بعمق.. نظر في البستان الأخضر الممتد في عيني، بحنان دافئ، أخذ يدي اليسرى وأغرقها بين كفيه الصغيرين، وقال مبتسمًا، ولأول مرة أجد ابتسامته جميلة، وشفتيه اللتين أراهما الآن مشهيتين للتقبيل:

"دون شك، كانت لأختي عينان كعينيك، خضرتهما من خضرة بساتين الكرز التي تنبت واسعة في إقليمنا".

لم تعجبني ملاحظته، فأنا لا أريد أن أكون في عينيه أختًا؛ فالأخت في عيني الأخ الجزائري عيب وعار وفضيحة مستورة وقنبلة موقوتة.

بدا لي أن أصفعه وأغادر المكان دون عودة.

وأنا أتخيل صورة أخته الصغيرة، ملفوفة في أثواب وملاحف شتوية، ملقاة على الرصيف عند أقدام براميل القاذورات الكبيرة التي يتم جمعها مرة في الأسبوع، تذكرت طفلتي، فقلت له: "علينا الانصراف، فقد تأخر الوقت وأنا أم لطفلين ينتظراني، وغدًا مدرسة وعمل".

اعتذر وعاد إلى خجله، وقد شعر بأنه ربما يكون قد جرحني بما رواه لي، وهو ما عمق ملامح الحزن والقلق في عيني.

غادرنا المطعم تحت شرر نظرات الزبائن المستنكرة، والذين لم يتردد بعضهم في التفوه ببعض التعليقات على ثنائي غريب مشكل من صيني وجزائرية.

حين وصلت السيارة أخذ يدي وقبلها، فشعرت وكأن عالمًا غريبًا مدهشًا يزلزلني. وتذكرت العبارة التي لطالما حفظونا إياها في المدارس: "اطلب العلم ولو في الصين". أما، وأنا أودعه، فقلت بيني وبين نفسي: "أطلبي الحب ولو في الصين".

تسللت إلى غرفتي خوفًا من أن يلقاني لسان أمي عند العتبة، ماذا كانت ستقول أمي لو علمت بأنني كنت على عشاء مع صيني؟! لحن. سكتة قلبية. تذبحني. تحرك القبيلة لجلْدي..

ارتميت على السرير، حتى دون أن أفرك أسناني. نظرت إلى طفلتي لِيلْيا التي كانت تغط في نوم هادئ، تمنيتُ لو أن أمي كانت رحيمة بي ففعلت بي مثلما فعلت أم يونس الشينوي بأخته، ورمت بي في كيس زبالة لأكون طعمًا للكلاب الضالة بدلا من الجمعيات غير الحكومية، ففي بلادي: الكلاب الضالة أسرع من جمعيات الدفاع عن حقوق المرأة والطفولة!

الصينيون يرمون البنات الصغيرات في أكياس الفضلات، وأما الرجل الجزائري فيحكم على المرأة بالعيش طوال حياتها في سلة المهملات وأكياس الزبالة.

12

كانت أمي، ومنذ أن اقتنت لي أول حمالة للصدر أُلمُّ فيها نهدين كبرا بسرعة مثيرة، ومنذ أن نـــزلت مني أول قطـــرة دم الخصـــوبة، تستعجل زواجي، ليس رغبة في الزواج كســـبيل للســـعادة كمـــا تؤمن بذلك، ولكنها كانت تريد أن تتخلص من وجودي وبأســـرع وقت من هذا البيت، أن تختفي عيناي اللتان بلونهما الأخضر الفاضح من قدامها ومن قدام الجيران ومن علـــى شـــفاههم وفي أحـــاديثهم المغرضة التي توقظ الفتنة النائمة، إنهما الشهادة الواضحة على شـــيء ينام في حديقة أسرارها الخلفية المسيجة بسياج الغمـــوض. منـــذ أن كبرتُ وصارت تتبعني أينما توجهتُ ظلالُ الشباب، يلاحقونني حتى باب منـــزلنا العائلي على مرتفعات حي الينابيع، من يومها أصبحتُ تهمة تمشي على رجليها، وجراء ذلك بردت علاقة أبـــي بـــأمي، وكأنما اكتشف بأن شيئًا غامضًا خبأته عنه خلال كـــل ســـنواتهما الطويلة المشتركة، وأن شيئًا ما حدث ذات يوم بين أمـــي وجارنـــا السيد تيسيي النقابـــي الجريء، وصوت الحق داخل شركة صونلغاز التي عملا فيها جنبا إلى جنب، ربما من صُلب هذا النقابـــي جئـــت، أنا الفضيحة العارية من خلال لون عينيهـــا الأخضـــر، أخضـــر لا يشبه أي أخضر، مائل إلى الزرقة الداكنة التي تغلف مـــوج البحـــر حين الهيجان!

لون عيني بقدر ما جذب لي غضب أمي وغيرة أخواتي جـــذب إلي بالمقابل كثيرًا من المعجبين، وأسقط وابلا من رسائل الحـــب في صندوق الرسائل، وفي دفاتري ومحفظتي وجيوب معطفي الشـــتوي الذي كنت أعلقه عند مدخل القسم. ولكثرة المعجبين كنت حـــائرة في من أختار وكانت أمي تريدني أن أسقط في فخ واحد مـــن هـــذا الجمع من التيوس، وأن أقطع دراستي، وأذهب إلى بيت تيس أفرخ له فراخًا بعيون مثل عيوني أو بلون آخر لا يهم.

كان طبيب الأسنان مدلل أمه، والذي اسمه نـــزيم، هو من بدأ يتميز من المجموعة الراكضة خلفي، كانت أمه التي تعمـــل مـــديرة مدرسة، امرأة أنيقة، صارمة، ذات شخصية كبيرة ومؤثرة، تـــتكلم فرنسية دون لكنة، هي من شدني إلى ابنها نـــزيم الذي، على العكس من ذلك، بدا أمام قوة شخصية أمه فاقدًا لكل مبادرة، لا يتحرك إلا في ظلها، ولا يقوم بعمل إلا بعد استشارتها وأخذ موافقتها. امرأة من فولاذ، لا تترك للأب ولا للابن حيزًا لكلام أو رأي للإدلاء به، مـــع ذلك كنت أحب هذه المرأة، ربما أناقتـــها الكلاســـيكية بنظارتهـــا وعطرها وأطقمها التي تحسن اختيارها صيفًا وشتاء، هي التي جعلتني مغرمة بها أكثر من اهتمامي بابنها. كنت أريد أن أكون مثلـــها، أن أصنع شخصيتي على مقاسها، وبذات المزاج وتلك الجدية.

كنت أبحث عن الخروج من سلة الفضلات.

لم أكن أدري هل سقطت في حب شخصية الأم أو الولد المدلل الطبيب؟ رحبت أمي بالخطوبة وباركتها، وحرصت على ألا نتـــأخر في إقامة حفل العرس، ولو كان ذلك على حساب أختي التي تكبرني، والتي تأخر تأكيد خطبتها سنة كاملة، والعادة تقول لا يمكن تـــزويج

الصغيرة قبل الكبيرة، ومع ذلك استطاعت أمي أن تتحدى والـدي وتقنعه بضرورة الموافقة على إقامة عرسي قبل عرس أختي الكـبرى بثلاثة أشهر، وكان ما أرادته. وقد رحبت بذلك التعجيل أيضًا حماتي أم نـزيم، وما كدت أتسلم شهادة التخرج المؤقتة من جامعة الجزائر حتى ارتفعت زغاريد العرس ونُسيتْ زغاريد الشهادة. ورضـخت، بل ربما، أنا الأخرى، كنت أريد أن أرمي بنفسي في مزبلة كتلك التي ألقيت بها أخت يونس الشينوي. أبدل مزبلة بأخرى.

جئت بيتي الزوجي، وفرحت بـي حماتي كثيرًا. وأكثر منـها، رحب بـي والد زوجي الذي غادر عمله متقاعدًا في الأسبوع التالي لدخولي بيتهم الواسع، الذي هو عبارة عن فيلة كولونيالية بحديقـة صغيرة وبعض الأشجار. كان السيد قاسي (والد زوجـي نـزيم) رجلا مثقفًا لا يفرط في جريدته الصباحية، ولا في فنجان قهوته الذي يحتسيه على البلكون، يمشط شعره الحريري، ويجلسني قبالته ليحدثني عن السياسة قليلا، وحين يشعر أنني مللت من هذا الحـديث يغـير خطابه ليكلمني عن روايات ألكسندر دوما ومغامرات أرسين لوبين، وكذا عن تفاصيل رحلاته صحبة زوجته حماتي السيدة طـاووس في بلدان أوروبية وأسيوية وأمريكية. كانت أحاديثه ممتعة ومثيرة، تلـك التي تفصل أسفاره المهنية التي كان يقوم بها بتكليف من وزارة الصيد والموارد المائية، التي كان يشتغل فيها مستشارا مكلفًا بمهمة. كانت له ذاكرة خرافية، ومع ذلك، مرات كـثيرة، كـان يسـتعين بـدفتر ملاحظات كتب فيه شبه يوميات؛ لتأكيد حدث أو أثـر أو اسـم مطعم أو بار. بعناية فائقة يحتفظ بمجموعة من الكنانيش، يجمع فيـه كثيرًا من التواريخ وأرقام الهواتف وأسماء المدن والشوارع، وقائمـة

أسماء فواكه البحر التي تناولها لأول مرة في مطاعم خاصة بـالأمراء، وأسماء أنبذة وبيرات، وأسماء نساء كان لا يريد التوقف كثيرًا عندهن. كان السيد قاسي موسوعة بحرية مفتوحة، وربما هو الـذي جعلـني أنسى مرور الأيام والشهور تحت سقف هذا البيـت دون أن أنتبـه، لأجد نفسي ذات يوم ببطن منتفخ في انتظار مولودي الأول. كانت حماتي السيدة طاووس فرحة بـي، أو بالأحرى ببطني المنتفخ، وكان ابنها نـزيم، أي زوجي، يخرج صباحًا ليقضي يومه كاملا في عيادة صغيرة فتحها في قرية عزازقة ببلاد القبائل، لا يعود منـها إلا لـيلا. ومرات، يضطر للمبيت هناك، حيث رتبت له غرفـة لمثـل هـذه الظروف الطارئة. قليل الحديث، ذكي، ولكنه غامض الأحاسـيس. هو الرجل الجزائري في حضرة أمه الطاووس، يتنازل عن شخصـيته بالكمال والتمام، أمامها هو مَحْوٌ، لا شيء، هي الحاضرة دائمًا، وفي كل مكان دائمًا، وفي كل حديث أو قرار دائمًا. تشرف على كـل شيء، وتراقب كل شيء: من تبديل إزار السرير إلى زيارة طبيـب النساء إلى الحمام إلى كمية الملح التي توضع في طبخة المساء.. كانت سيدة البيت بامتياز وبسلطة، عين لا تنام ولا تسهو، وكنت معجبـة بقوتها وسلطتها وذكائها الذي لا يترك للصـدفة مكانًـا في الحيـاة اليومية داخل الأسرة. حين تكون بالبيت تتحـرك كالنحلـة دون توقف، وهي تكرر عبارتها التي لا تسقط من لسانها: "الصدفة والحظ مِعْولا الغبـي والكسول". حتى حملي كانت تعرف أطواره أكثر مما أعرف، تتابعه من أول يوم انتظرتْ فيه دم العادة الشهرية فتأخرت، أخذت يومها دفترًا صغيرًا، جلست قبالة الحديقة وبدأت تعد الأيام؛ يومًا يومًا وساعة ساعة، نادتني، جلست بجوارها، صبت لي كـأس

شاي بالنعناع، ثم أخذت تسألني عن كل شيء أشعر به من ألم الظهر أو البطن، أو رغبة في التقيؤ، أو رغبة في أكل شي ما كحبات القهوة المحمصة، أو التذمر من رائحة التبغ، أو تحسس في الجلد، أو حلم أو كابوس، كانت امرأة فطنة. ولعل محاصرتها لحياتي من جهة، ومن جهة أخرى محاصرتي من قبل السيد قاسي بحكايات البحر والأسفار والأسماك التي كان يرويها لي على الشرفة، كل هذا جعلني أنسى أسرتي، وبالتالي أتحرر وأحرر أمي من وجودي، ومن لون عيني الذي كان يرهق كاهلها ويغضبها، وقد سبب لها مرض السكر لاحقًا، قبل أن أغادر بيتنا إلى بيت الزوجية هذا.

أشعر بالذنب..

كانت حماتي طاووس ترعى حمْلي، وترعى، في الوقت نفسه وبالعناية نفسها، حملها الوديع نزيم، ابنها المدلل والوحيد، الذي شيئًا فشيئًا، يومًا بعد يوم، بدأت أشعر بغلبة الجانب الأنثوي في شخصيته، وغياب الفحولة التي كنت أبحث عنها في الرجل الجزائري البربري.

وأنا ألاحظ حركاته الأنثوية هذه كنت أقول: "دون شك، شخصية أمه التي لا تنسى شيئًا، ولا ترد له طلبًا، هي التي جعل منه رجلا رطبًا، مبللا ولينًا وأنثويًّا".

جاء طفلنا الأول، وكان ذكرًا، وأصبحت بين عشية وضحاها، في عين حماتي، أميرة تحاط بكل الطقوس الملكية، وكان عليها أن تختار لحفيدها اسمًا، فلا أحد يتجرأ أو يفكر في اختيار الاسم، وحين اقترحت اسم "مالك"، وهو اسم جدي، اسمًا لابني؛ صرخت في قائلة: "هذا ليس من صلاحياتك، صلاحيتك انتهت مع الولادة، الآن

جاء دور التربية والسهر على صحته، لا ترفعي عنه عينًا، ولا تـــردي له طلبا: في الليل كما في النهار، في الشتاء كما في الحـــر". كانـــت تتكلم بسلطة، كأنما هي تخاطـــب تلاميـــذ مدرســـتها أو الحـــراس والمعلمين الذين تحت سلطتها. بلعت الملاحظة العنيفة وســـكت، ولم يتفوه نـــزيم زوجي بكلمة واحدة سوى أنه وافق أمه بالسكوت، ثم بحركة من رأسه المدور، بشعره الممشوط بفرقة واضحة على اليسار. في الصباح التالي ذهبتْ إلى البلدية وسجلته، دون أن يكون أحد منا على علم باختيارها، عادت حاملة الدفتر العائلي، رمته لي في حجري قائلة: "اقرئي اسم ابنك، حتى لا تخطئي في اسمه المرة القادمة". كـــان اسم ابني: محند أكلي، هكذا أرادته حماتي. مع ذلك وفي غيابها كنت أناديه "مالك"، وظل يحتفظ بهذا الاسم المركب محند أكلي- مالك.

13

ينقضي يومي هكذا في البيت، بلذة ودون تخطيط، فبمجرد أن تغادر طاووس حماتي البيت صحبة نزيم زوجي عند السابعة والنصف صباحًا، أظل أنا ووالد زوجي السيد قاسي رأسًا لرأس، كان لا يتوقف عن حكاية ما يقرأه من كتب. وكان قارئا نهمًا، يقرأ في كل شيء وبسرعة مدهشة، تتغير العناوين بين يديه كل يوم، لا يرى كتاب بين يديه مدة تفوق يومين، على أطول فترة. يقرأ في الأدب وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا. كان يكره الطب ويحب ابن بطوطة، ويضحك كثيرًا من بعض مبالغاته في الكذب على الأقوام التي يدعي أنه زارها. وقد قرر ذات يوم أن يكتب كتابًا في تصحيح هفوات ابن بطوطة، ولكنه نسي المشروع بمجرد أن دخل في قراءات أخرى. وكان إلى ذلك شغوفًا بالسينما؛ فهو يعرف التفاصيل عن عشرات الأفلام، بعضها قد شاهدها أكثر من مرة، وبمقدوره أن يستعيد تفاصيل الفيلم لقطة لقطة، يعزف بفمه إيقاع موسيقى الفيلم قبل أن يشرع في حكاية قصته، ويتذكر أسماء الممثلين والممثلات من الأمريكيين والفرنسيين والإيطاليين، يعرف التفاصيل عن حياتهم ومغامراتهم وعلاقاتهم مع رؤساء الدول، ومواقفهم السياسية من إسرائيل وفلسطين وجنوب إفريقيا. وكان أيضًا بارعًا في إعداد الشاي بطقوس بربرية دقيقة، فلا تخلو جلستنا من عبق الشاي

بالنعناع الذي يحرص على غرسه في مربع جانبي بحديقة الفيلا، والتي تسكنها أسرته منذ الاستقلال بمدينة برج الكيفان، هذه المدينة الساحلية الجميلة التي تقع على أطراف مدينة الجزائر العاصمة من الجهة الشرقية. كانت جلساتنا تحت ظل شجرة الخروب العتيقة العالية أسعد أيامي في سنوات حملي، وسنوات تربية طفلي الأول والثاني (الأنثى التي لم تتأخر كثيرًا لتجيء مستعجلة إلى الحياة). لم تكن حماتي حريصة ولا متحمسة لتسمية الطفلة حين جاءت، لذا حين عرضت عليها اسم: ليلْيا (عشيقة السيد قاسي، تلك المرأة الإيطالية التي تعرف عليها في رحلة إلى الصين ودامت علاقتهما مدة تجاوزت العشرين سنة، ولا يزال يحن إليها، ويكاتبها خفية عن زوجته طاووس. هذه الأخيرة كانت تعلم بكل شيء، ولكنها كانت على يقين أن هذه الرسائل هي من مراهقات الشيخوخة، المراهقة المتأخرة)، لم تعارض السيدة طاووس الاسم، حركت رأسها موافقة، وهي تلقي بنظرة تجاه زوجها قاسي، نظرة تحمل آلاف المعاني، وانتهت الحكاية هنا. وجاءت لِيلْيا إلى الدنيا، وكنت سعيدة بها؛ لأنني شعرت أنها ملكي أكثر من محند أكلي- مالك الذي كان ملكًا خاصًّا لحماتي.

مع مرور الزمن أصبحت أنتظر بفارغ الصبر خروج حماتي طاووس وزوجي صباحًا كي أخلو بالسيد قاسي، نشرب الشاي المنعنع معًا، ومنه أسمع حكايات الأسفار البحرية وأسماء المرافئ والمدن وأعالي البحار وسرعة الرياح وخوف البحر وليل البحر ونهاره. كان أطلسًا، ومكتبة شفوية مفتوحة على كنوز الدنيا، وبالقدر الذي كنت أجد متعة في الاستماع إليه، كان هو الآخر يجد في اندهاشي

لحكاياته واستمتاعي بلغته المثيرة متعة لا تضاهيها متعة. وقد بدأت أشعر أنه هو الآخر ينتظر ساعة خروج زوجته وابنه للعمل كي يستفرد بي ويدلق لسانه وغوايته، وبالفعل: كنت أشعر أنه بدأ يغريني ويثير فيّ أحاسيس غريبة، غامضة، وأصبحت لا أطيق يوم الجمعة، وأيام العطل المدرسية؛ حيث تظل حماتي بالبيت، فتمنع عنا متعة شرب الشاي بالنعناع تحت شجرة الخروب، وبسرعة تنهي كل حديث أو حكاية يبدأها، معلقة بشراسة: "كل فلوسك صرفتها على الخمارات وبنات الليل، ولا تزال تحن إلى ذاك الزمن المفلس! لولاي لكنت الآن في جوف الحوت، أو شحاذاً على رصيف شارع من شوارع المدن الساحلية الإيطالية أو اليونانية. عليك أن تستغفر ماضيك، وتتمنى لابنك وحفيدك ألا يسيرا في السبيل الذي مشيته".

كان السيد قاسي لا يرد على كلام زوجته، يسكت، يخرج تبغه ذي الرائحة المنعشة من علبة دمشقية الصنع منقوشة الأطراف بمضلعات ونجوم وطيور خرافية، يلف له سيجارة كبيرة كأنما يريد طرد ثقل نزل على القلب في يوم الجمعة هذا، أيام الجمعات ثقيلة. ينظر إلى ساعته، ينتظر ساعة القيلولة كي يهرب من وجهها. لم يكن يحب القيلولة إلا يوم الجمعة وأيام العطل المدرسية، منه تعلمتُ أنا الأخرى نوم القيلولة أيام الجمعات والعطل المدرسية. في داخلي بدأ ينمو إحساس غريب تجاه السيد قاسي، أشعر به قريبًا إلي أكثر وأكثر، مريحًا ومتحضرًا ومنسجمًا مع العالم الداخلي الذي يعيشه؛ عالم الرحلات والكتب والأفلام والناس الذين صادقهم أو عايشهم أو سافر معهم أو سافروا معه، كان له عالمه الذي يغنيه عن هذا العالم المحصور بين جدران هذه الفيلا التي اشتراها من أحد البحارة

الإيطاليين، الذين -كما روى لي- كان مغرمًا بلعب القمار معهم.
كان السيد قاسي لا يتردد أن يطعمني من يديه برتقالة يقشرها بشعرية كأنما هي امرأة جميلة يعريها كي يرى مفاتنها أمام ضوء النهار أو تحت فانوس ناعس، كان يؤكلني العنب من عنقود يقطفه بعناية من دالية الحوش، يؤكلني العنقود حبة فوق حبة، حتى آخر حبة. وكان، بين الفينة والأخرى، يتفقد خضرة بستان عيني، وكأنما اللون الأخضر فيهما يتبدل مع تساقط حبات العنب في فمي، حبة بعد حبة بعد أخرى، حتى آخر حبة في العنقود، ينظر إلى لون عيني كأنما يبحث عن ابنة أنجبها في حجر امرأة عشيقة على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط، هو الوحيد الذي كنت أشعر بمتعة حين يغرس عينيه في عيني ليستطلع الأخضر فيهما. وكنت أتمنى أن يكون الأخضر في عيني كما يتمناه ويرغب فيه، وأن يكون متطابقًا مع ما في رأسه من ذكريات مدن سافر إليها على شواطئ أوروبا.
وأصبحت أجده جميلا ومثيرًا ومريحًا، حتى جاء اليوم الذي بدأت أشعر فيه بخوف من شيء قادم، غامض، مزلزل، قد يجعلني أقبل على مغامرة مع السيد قاسي غير محسوبة العواقب. وقد أصبحت أرى في نفسي، مرات كثيرة، بطلة من بطلات الأفلام التي يروي لي قصصها الغرامية، أو صورة عن بطلة شاركته رحلة من رحلاته الطويلة.
ومرات أتصور نفسي تلك المرأة التي عاش معها رحلة عسلية، ثم مع طلوع صباح يوم ماطر نسيها في غرفة بفندق لا يعرف عنوانه ولا يتذكر حتى اسمه. كانت حكاياته تعلقني في السماء وتجعلني أحلم، ولا أنتبه إلى الأيام التي تعبر فوق جسدي وقد كبر محند - مالك وكبرت لِيْليا، ومعهما كبرت حكايتي مع السيد قاسي في رأس حماتي

طاووس، وبدأت تتصيد جلساتي مع زوجها فتدخل علينا في أوقات هي ليست أوقات عودها من المدرسة التي تشتغل بها مديرة. وأصبحت تتغيب كثيرًا عن عملها، وهي التي تحرص على الوقت، وسيدة الانضباط، وهي التي ظلت تفتخر بأنها لم تأخذ عطلة مرضية واحدة طوال مدة خدمتها كمديرة للمدرسة، خدمة تجاوزت الثلاثين سنة.

حرصها ورقابتها وعينها المفتوحة على كل حركاتنا وإشاراتنا وسكناتنا وأذنها المتلصصة على كل كلامنا وأنفاسنا وتمتماتنا كل هذا الحصار دفعني، ولمرات عديدة، أن أفكر في الشيطان!!

شيء غير عادي يجري في البيت، هذا الصباح لم تلتحق السيدة طاووس بعملها، اعتقدت أنها مريضة؛ فقلقت وشعرت بحزن عليها وهي امرأة من حيوية ونشاط، ولكني حين سألت السيد قاسي عن سبب تأخرها، أطلت من الباب قائلة وعلى ملامحها ابتسامة خبيثة منكرة: "ابتداء من اليوم، سأشارككما شرب الشاي بالنعناع، لقد أحلت على التقاعد". لأول مرة أرى وجه حماتي طاووس دون ماكياج، شعرها دون تسريحة الصباح، وهي التي تقضي أزيد من نصف ساعة في التجميل والتعطر. من يومها توقف زوجها السيد قاسي عن إعداد الشاي بالنعناع، وعن تقشير البرتقالة كما تقشر الجميلة من ثوبها، وما عادت الدالية تعطي العناقيد المشهية التي آكلها من يده الرقيقة المرتجفة الحنونة، آكلها حبة بعد حبة بعد أخرى حتى آخر حبة. جفت حكايات السندباد عن رحلاته البحرية والبرية، ونسي السيد قاسي أفلامه الجريئة بموسيقاها وبوقع حوافر خيلها، وتوقف عن رواية قصص كتبه ذات الحجم الكبير والأجزاء الكثيرة.

وبدأت أشعر بالقلق والملل، ولأول مرة أشعر بالزمن يعبر ثقيلاً، وقد كان قبل ذلك خفيفًا عليلا. هروبًا من هذا الجو، قررت أن أخرج للعمل، متحججة بأن طفليّ محند أكلي وليليا لم يعودا بحاجة كبيرة إلى وجودي معهما النهار بطوله؛ فقد التحقا بالمدرسة. عارضت حماتي هذا الاقتراح في البداية، لكنها قبلت أخيرًا بإحساس مَنْ كانت تريد أن تتخلص من وجودي في البيت لترمي بي في الشارع. لقد أصبح وجودي يقلقها كثيرًا، خاصة وأن السد قاسي تدهورت حالته الصحية، وعاد لشرب الكحول الذي كان قد تخلى عنه منذ أن جئت البيت عروسًا.

14

عثرت على وظيفة بمعهد باستور بوصية وتدخل من السيد قاسي الذي كان على علاقة بمدير المؤسسة؛ فقبلني على الفور. وبعد أسبوع، وجدت نفسي رئيسة مصلحة التكوين لأظل بها قرابة السنتين، ثم بعد ذلك انتقلت إلى رئاسة مصلحة الأمن والوقاية والجنائز التي لا زلت على رأسها حتى اليوم. في البداية، لم أكن أتصور أنني أستطيع تحمل مسؤولية الإشراف على بيت حفظ الجثث، ولكن، ومع مرور الأيام، أصبح هذا العمل كغيره، لا فرق بين الأحياء والأموات، بل العكس، في كثير من المرات يبدو العمل مع الأموات أريح وأفضل منه مع الأحياء.

لا فرق بين الأموات والأحياء في بلدنا، إنهما يختلفان في شيء واحد؛ إذ إن لكل صنف سجلاً خاصًّا به، ومرات يسجل الأحياء مع الأموات، والعكس صحيح.

بمجرد أن تركت عملها، ظهرت علامات الكبر والشيخوخة على حماتي طاووس التي بدأت تسقط في أزمات هذيان متواصل. لم تستطع أن تتقبل، ولا أن تتحمل وجودي بجوارها وأنا أراقب سقوطها نحو الهاوية، وهي التي كانت على جمال وتسلط وأناقة؛ فاقترحت علينا أنا ونزيم والطفلين الانتقال إلى شقة كانت قد تحصلت عليها من قبل في إطار مجموعة من السكنات التي خصصتها

وزارة التربية، قبل سنوات، لمديري المؤسسات التربوية وللمعلمين القدامى، وظلت شاغرة. سعدت لهذا الاقتراح لأنه سيحررني نهائيًّا من حماتي التي بدورها كانت قد حررتني من أمي ومن غيرة أخواتي. ولكني شعرت بحزن كبير وأنا أودع السيد قاسي الذي بدأ يفقد الذاكرة، بكيت وأنا أغادر عالمه البهي الذي يلامس الخرافي فيه الواقعي ويتقاطعان، وقد بدا عليه هو الآخر حزن كبير، وبدت ملامح وجهه شبيهة بملامح ميت وهو يحتضنني مودعًا، وقد نسي اسمي إذ أراد أن يدعو لي بالنجاح والتوفيق في العمل وفي الحياة. وأنا أقبله تأسفت لأني لم أكن في مستوى بطلات حكاياته، كان علي أن أصادق الشيطان وأسكب نار المغامرة في علاقتنا. أدركت أنني لم أكن أتقن أكل حبات العنب ولا شرب كؤوس الشاي المنعنع، ولم أكن أفقه فتنة الخلوة تحت شجرة الخروب المئوية.

خرجت من البيت وأنا أشعر بأني أحب السيد قاسي، لكن لم تكن لي جرأة تلك النساء الجميلات اللواتي سافر معهن ونسيهن في الفنادق وفي المدن وعلى خطوط الهواتف.

تقع الشقة التي انتقلنا إليها في حي الحراش، ومن أول يوم فيها بدأت أبحث عن حريتي التي قد تعوضني عن حكايات وأحاديث السيد قاسي. ولأول مرة، بعد اثنتي عشرة سنة قضيتها داخل أسوار الفيلا بمدينة برج الكيفان، ها أنا أتنفس خارج مجال السيدة طاووس التي كانت تحاصرني من كل جهة، لم أنتبه، وإذا السنين قد مرت بسرعة خيالية.

في العمل: كان المدير العام السيد بورنان حميم رجلا أنيقًا ومتحضرًا يحب الموسيقى، ولا يخفي كأس الويسكي من على مكتبه،

رجل حياة. ومنذ الأسبوع الأول لتواجدي في المؤسسة لم يكن بإمكانه إخفاء نظرات الثعلب المستيقظة في عينيه حيالي، كلما رآني أو استدعاني إلى مكتبه لأمر إداري ما، كان يطيل النظر في خضرة عيني كمن يشك في طبيعة البستان الذي أمامه، وكنت أفتعل بعض الحركات الإغوائية كي أتأكد بأن الزمن لم يمر بالقدر الذي يكسرني ويحبطني، ولأتأكد من أنني لا زلت قادرة على الإغراء، وإثارة الفتنة في الرجال كما كنت قبل الزواج.

كنت أبحث عن رجل يشبه السيد قاسي الطيب.

كان زوجي نزيم الذي ترك العيادة بقرية عزازقة وانتقل إلى العاصمة لا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل؛ مخمورًا تارة، ومتعبًا تارة أخرى. في البداية، أثارتني العطور التي يتعطر بها، عطور أنثوية ساخنة، لكني كنت أكذب حاسة شمي، ثم بدأت أستغرب حركاته المتكررة أمام المرآة قبل الخروج، وأخذت أستغرب اختياره ألوان ثيابه المثيرة: الوردية والحمراء والقرنفلية والبنفسجية، وأشكال سراويله المشدودة على مؤخرته بقوة. ولم نعد نمارس الجنس إلا عابرًا، وما عاد يطلبني لذلك كما كان في بداية زواجنا، خاصة قبل ولادة محند أكلي. وحين بدأ الجمود بيننا يأخذ شكل الجدار الإسمنتي، وبالضبط يوم حصل محند على شهادة الباكالوريا، قررنا أن يتخذ كل واحد منا له غرفة مستقلة ينام فيها.

في غرفتي هذه شعرت أكثر بحريتي، ولكن مراهقة محند أكلي جاءت لتكدر علي صفاء الأيام؛ فكدت أفقد عقلي حين عثرت في جيوب معطفه على كمية من الحشيش المعالج، وحين صرخت فيه وقد كدت أجن، أجابني بهدوء: "لا تقلقي يا أمي، جميع زملائي من تلاميذ الثانوية والمتوسطة يتعاطون الحشيش، إنه مستهلك أكثر من التبغ

العادي، والفتيات يستهلكنه كما الفتيان على قدم المساواة". وبالفعل، كلامه هذا خفف عني بعض الغضب، وحين سألت زملاء لي في العمل، أكدوا لي ما قاله محند أكلي، وبدأ كل واحد يروي قصصًا غريبة عن تعاطي المخدرات حتى في أوساط تلاميذ الابتدائي؛ فسكنني نوع من الاطمئنان الكاذب وأنا أقول: "المصيبة إذا عمت خفت".

وحين انتقل محند أكلي إلى الجامعة، وسجل في فرع المحاسبة، بدأت مشاكل أخرى تظهر مع ابنتي ليليا التي تصغره بسنتين تقريبًا، والتي فجأة توقف جسدها عن النمو، فقد توقفت عن الطول و لم يظهر لها نهدان كما هي نهود صديقاتها اللواتي يجئن البيت للسهر معها، وسكنني رعب لذلك، وكان علي أن أصحبها إلى طبيب نسائي مختص؛ فأكد لي بأن لا شيء يدعو للقلق أو الخوف، ثم عرضتها على طبيب نفساني الذي بدلا من الاستماع إليها بدأ يستمع إليّ أنا، وقد اكتشفت في الأخير، من خلاله، أنني أنا التي كنت بحاجة إلى مثل هذه الجلسات النفسية.

سعدت وشعرت بتوازن أم، يحدث معي هذا لأول مرة، حين كلمتني ليليا عن شاب يدرس معها في الثانوية، بقسم غير قسمها، وأن عينها بدأت تسقط عليه، وأنه هو الآخر لا يكاد يمر يوم دون أن يبعث لها برسالة أو يعاكسها بعبارة عند مدخل أو مخرج الثانوية، وأنه تجرأ فقبّلها في غفلة منها! وأنها لم تتردد في صفعه، وقد آلمته كثيرًا وما كانت تقصد ذلك أبدًا!

ضحكت وأنا أستمع إلى ليليا، وتذكرت السيد قاسي وحكايات عن نساء عرفهن وصفعنه مرات كثيرة، وتلك لعبة الغواية، لا استرجال الأنثى.

في زحمة العمل، وضجيج حياة طفلي: محند أكلي وليليا، استقل زوجي تماما بحياته، ما عدت أراه إلا لبعض الوقت، علـــى عجـــل، أخبرني بقرار من مدير الشركة التي يشتغل بها، أنه قـــد تم نقلـــه إلى الفرع الجهوي للشركة الكائن مقره بمدينة وهران.

أنا أحب وهران، كنت أتمنى لو أنني تزوجت شابًّا وهرانيًّـــا لا يعرف سوى أغاني الراي، وشرب البيرة، وانتظار الصيف كي يدهن جسده بزيت الزيتون مدة أربعة أشهر يقضيها علـــى الرمـــل، وفي الحانات والأماكن الغامضة.

حين عاد ابني محند أكلي، ذاك المساء، فرحًا كونه حصل علـــى رخصة السياقة، شعرت بأن من يقود سيارة، وهي رمـــز الوصـــول والتحدي، قادر أن يقود حياته إلى النجاح، ففي سياقة السيارة كثير من الحذر والحيطة والانتباه والذوق أيضًا، كمـــا في مســـار حيـــاة الإنسان.

لست أدري لماذا، فمنذ أن انتقلنا إلى شقتنا بالحراش، عفوًا هي شقة السيدة طاووس، مع حبـــي لاسم محند أكلي فقد أسقطته مـــن على لساني، وعدت أنادي ابني باسم مالك مختصرًا، ربما كي أتحـــرر نهائيًّا من حماتي ومن صوتها واعتزازها بأنها هي التي منحته واختارت له هذا الاسم. هي استعادة سلطتي على أطفالي، وعلى نفسي. لقـــد أصبح مالك رجلا بكامل المواصفات، بطول أطول مني.

حين طلب مني أن يأخذ سيارتي للذهاب لزيارة صـــديق لـــه لمراجعة بعض الدروس المعقدة، وافقت، وكنت سعيدة أن يقود ابـــني سيارتي وحده، دون أن أكون إلى جنبه؛ إذ حين أكون إلى جـــواره، وهو في القيادة، لا يسكت لي لسان عن الملاحظات، طالبة منه تـــارة

تقليص السرعة، وتارة أخرى الانتباه شمالا أو يمينًا، أو عدم التجاوز.. هو الخوف على حبيب من مكروه.

قلت له: "بعد الانتهاء من مراجعة الدروس، عليك أن تمر لأخذي من بيت والدي، فأنا سأمر لزيارة أمي، إنها مريضة وستجرى لها عملية جراحية بعد أقل من أسبوع، وأريد أن أبقى إلى جوارها بعض الوقت". وافق، وبهدوء انطلق بالسيارة في اتجاه وسط المدينة، تابعته بعيني حتى اختفى في آخر الشارع.

في منزلنا العائلي الأبوي الذي أستثقل العودة إليه، ذاك المساء، كان والدي رقيقًا معي، شفافا، وكنت أشعر أن أمي، وهي على فراش المرض، كعادتها، لا ترفع عينها تجاهي، متحاشية أن تسقط على اللون الأخضر في قرارة عيني، شعرت بدفء غريب بين أخواتي، شعور لم أشعر به من قبل، منذ الطفولة.

أنا لم أعرف الطفولة..

دق هاتف البيت الثابت، أسرعت ناديا أختي لترد، اختفت بعض دقائق ثم عادت وقد تغير لون وجهها تمامًا، وبدت عليها ملامح القلق، سألتها أمي: "من كان على الخط؟". وقد قرأت على ملامح وجهها شيئًا ما؛ فأجابت أختي والكلام كان موجهًا أساسًا لي: "مالك، محند أكلي". قلت وقد أسرعت نحو الباب: "حادث سيارة". قالت لي: "لا خوف عليه، استهتار مراهق".

بعد بضع دقائق كنا في مخفر الشرطة، كان مالك موقوفًا في غرفة معزولة بباب حديدي. ارتحت إذ سمعت صوته وتأكدت من وجوده حيًّا، ثم جلست على كرسي من حديد بارد وبكيت. بكيت

كما لم أبك يوما في حياتي، جاءني الضابط وقد عرفني قائلا: "ألست أنت السيدة التي تشرف على بيت حفظ الجثث في معهد باستور الوطني؟".

قلت له دون أن أرفع نظري إليه: "نعم، أنا رئيسة الأمن والصيانة وحفظ الجثث".

قال لي: "ما أخبار جثة الصيني؟".

وتذكرت بأن بغرفة حفظ الجثث تنام جثة صيني، مهملة منذ ستة أشهر أو يزيد.

خفف الضابط من ألمي، قائلا: "كأس نبيذ زائدة عن اللزوم دفعت بابنك إلى حماقة كاد يفقد بسببها روحه وأرواح الشرطة، على الحاجز الذي أراد أن يقتحمه عنوة بعد أن طُلب منه التوقف".

قلت له: "عفوًا سيدي، إنها المرة الأولى التي يسوق فيها سيارة وحده، دون أن أكون إلى جنبه بملاحظاتي ودروسي وأوامري، أتمنى ألا يكون الأمر خطرًا".

قال وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة: "كأس أخرى.. وكان بإمكانه أن يحدث الكارثة".

أمضيت على محضر، حتى دون أن أقرأ تفاصيله، كنت سعيدة كون ابني على قيد الحياة. ركبت السيارة التي أصيبت ببعض الضرر، وضعته بجنبي وانطلقت في اتجاه شقتنا بالحراش، لم أتكلم ولم أكلمه، وظل مالك ساكتًا وقد صحا من سكرته.

حين وصلت الشقة على قلق، فتحت غرفة زوجي نزيم كي أخبره بالحادث؛ وإذا بي أجده عاريًا في أحضان رجل غريب.

صعقت وتراجعت على الفور باكية، وانسحبت إلى غرفتي محتضنة مالك وليليا.. واستعدت ذاكرة عطوره الدافئة.

في الصباح قررنا الانفصال..

15

بدا عبد الرحمن قلقًا قليلا، وهو يدخل مخفر الشرطة تلبية للاستدعاء الذي وصله من رئيسها. كان قد زيت مفاصل ساقه الاصطناعية بزيت الزيتون حتى لا تثير صوتًا عاليًا، غير بعيد من بناية المخفر ركن سيارة الاستعجال، عند مدخل البناية الحديثة المسيجة بالحديد من كل الجهات، النوافذ والأبواب والسطوح جميعها عليها قضبان من فولاذ، استقبلته حفيظة مرتدية إزار التنظيف الوردي عليه بعض بقع بيضاء من أثر الجافيل، قائلة: "خيرًا إن شاء الله، يبدو أنك استحليت المكان!". رد عليها: "صباح الخير". وأخرج ورقة الاستدعاء وأشهرها في وجه السيدة التي حكت شعر رأسها في حركة دائرية، محاولة أن تتذكر أين سبق لها وأن رأت هذا الوجه النحس: "ملامحك أعرفها، أنت نزيل المخافر والمحاكم، سكير أو سارق أو إرهابي تائب؟". أجابها بابتسامة عريضة: "لا هذا ولا ذاك، أنا سائق سيارة كلوندستان، استعمل سيارة الإسعاف الخاصة بنقل الجثث كسيارة أجرة، أسترزق بها خارج ساعات العمل، أستغلها كتاكسي". وأشار إلى السيارة المركونة غير بعيد، ابتسمت حفيظة معلقة: "والله معك حق، عباد اليوم موتاهم مثل أحيائهم، نقل موتاهم أفضل من أحيائهم، على الأقل الميت هادئ وناعم لا يصرخ ولا يسب الحكومة. الجميع ميت بطرق مختلفة!!". وأفسحت له

الطريق ليتقدم إلى وسط قاعة الانتظار التي عبقت منها رائحة الجافيل والصابون والسجائر. أدار نظره في القاعة كأنما يبحث عن شيء ما، فعلقت حفيظة قائلة: "كانت عندنا قطة تؤنسني مع خمسة من صغارها المرقطين والمتشابهين كأنهم نسخة واحدة، لكن الصينيين الذين ملأوا العاصمة سرقوا الصغار وأمهم ليتعشوا بهم، يبدو حسب مقال قرأته أن المدينة إذا ما اختفت عنها القطط والكلاب الضالة، ستزحف عليها الجرذان وستصاب بالطاعون، وستكون نهاية الحياة عليها. وسبب كل هذا الصينيون الذين هجموا على الأوراش والتجارة والصناعة، وقريبًا الفلاحة، وأكلوا الكلاب والقطط والذباب والأفاعي". مادًّا ساقه الاصطناعية المزيتة أمامه، إذ لا يمكنه طيها، قال عبد الرحمن: "هذه مصيبة، سمعت من أحد العلماء الذين ينشطون حصة دينة على قناة تلفزيونية خاصة، أنه من علامات يوم القيامة أن يعوم الجنس الصيني على الدنيا، إننا نقترب من الساعة؛ إذ سيجيئ الصينيون على جميع الحيوانات والحشرات، ولن يبقى على هذه البسيطة من الأجناس أحد سواهم، وبعدها يشرعون في أكل بعضهم بعضًا حتى يقوم سيدنا إسرافيل وينفخ في الصور، وتحل الساعة التي لا ريب فيها!".

انتبه عبد الرحمن وإذا الساعة لا تزال لم تلحق الثامنة: "لا داعي للتحديق في ساعة قاعة الانتظار، إنها معطلة، البطارية فيها ميتة". علقت حفيظة على نظرته للساعة، البناية تبدو فارغة مع حركة خفيفة تسمع في الطابق الأول، تستيقظ مدينة الجزائر العاصمة بدءًا بمخافرها ثم مساجدها ثم أسواقها، وبعد ذلك يتحرك الشارع من خلال حافلات النقل العمومي، وصراخ بائعي السردين، ملاحقين

بمواء قطعان القطط الضالة التي لم تقبض عليها أيدي الصينيين بعد، يدفعون بعرباته بين الأزقة الضيقة في أحياء القصبة وباب الوادي وبلكور والقصبة وشوفالي والحراش..

قال عبد الرحمن لحفيظة، وكأنه يتحدث لنفسه: "تعجبني مدينة الجزائر في الصباح الباكر، فأنا أراقب استيقاظها يوميًّا، منذ جئتها العام 1974 هاربًا من رجال الدرك الوطني الذين جاءوا للبحث عني في قريتي بني فرطاس على الحدود الجزائرية المغربية، فقد كنت هاربًا من الخدمة الوطنية، والتي ظللت هاربًا منها، مقسمًا أنني لن أدخل ثكنة حتى جاء عفو الرئيس الشاذلي بن جديد. بعدها، بدأت أشعر بأنني مواطن أستطيع أن أسافر في حافلة عمومية من مدينة إلى أخرى دون صخرة خوف في قاع البطن، وأستطيع أن أسهر في بار حتى الصباح، وأشرب مثلما يشرب الآخرون مما حرم، وذلك حسب ما يسمح به جيبي المثقوب! كنت حين أسكر أقول صارخًا: عاش الشاذلي بن جديد، ولكني ومع تأزم الوضع الأمني في البلاد، وتعاظم شوكة الإرهاب، ندمت على الفرار من الخدمة الوطنية؛ لأنني وجدت نفسي غير قادر على استعمال السلاح لمقاومة الجراد الأصفر الذي جاء على اليابس والأخضر".

قالت حفيظة، وهي لا تزال تفرك فروة رأسها في حركات دائرية: "أنا على العكس منك تمامًا، أهرب من صباحات المدينة، أكرهها، أحلم أن أنام حتى الحادية عشرة، أسعد حين أشرب قهوة الفطور عند منتصف النهار. مع كل يوم يطلع، أتمنى أن أصحو فأجد النهار قد ولى، والشمس مالت نحو الغروب. لست أدري لماذا يسكنني مثل هذا الشعور كل صباح من صباحات الله، إنني لا أحب

الصباحات، أنا خفاشة أحب الليل وأتمنى ألا ينتهي أبدًا. ومع ذلك، أنا مجبرة أن أنهض مبكرًا حتى أقوم بتنظيف وترتيب المخفر، أقوم بذلك منذ هربت من الجبل تاركة ابني الرضيع هناك. الواقع إن صراخ طفلي، في رأسي حتى الآن، والذي تركته في الجبل هو الذي يوقظني كل صباح!".

شعر عبد الرحمن بنوع من الحزن وهو يستمع إلى حفيظة، و لم يتجرأ على السؤال عن رضيعها، ولماذا تركته في الجبل، ولا السبب الذي قادها إلى الجبل.

نظر إليها وتذكر على الفور سكورا التي ببرودة أعصاب، ظاهرية على الأقل، تشرف على بيت حفظ الجثث؛ بثلجه ومُثلّجيه ومُثلّجاته، ليس هناك أي شبه بين السيدتين، لكن حفيظة ذكرته بسكورا، مع أن الأولى لها عينان تغرقان في ليل، والثانية عيناها تسبحان في بستان من خضرة استثنائية. ربما هناك تقارب أو تشابه في الصوت؛ فكلاهما له بحة جنسية مثيرة قليلا.

اختفت حفيظة قليلا في الرواق، ثم عادت لتطلب من عبد الرحمن التفضل إلى مكتب الضابط الرئيس. حرك ساقه مزيتة المفاصل، وتبعته رنات شتلة من المفاتيح التي تعود أن لا يخطو خطوة إلا إذا سمع موسيقاها تتبعه.

حين دخل عبد الرحمن على الضابط رئيس المخفر، وجده يتكلم في جهاز الطالكي والكي، والهاتف الثابت أمامه، يرن رنينًا كلاسيكيًا يشبه ذلك الذي سمعه أول مرة في بيت المعمر، الذي اشتغل أبوه الشيخ أحمد التلّي الفرطاسي عنده كغسالٍ للأحصنة وعلافٍ للأبقار والعجول. هو رنين الطفولة، فهو مثل أبيه بدأ الشغل

في السابعة من عمره، ولا يزال يجري خلف الخبزة بساق اصطناعية، وخلف مقود سيارة الإسعاف، موزعا ما بين نقل الجثث ونقل الأحياء. أيوجد في هذا البلد أحياءٌ؟ أشار الضابط، دون أن يقص مكالمته على عبد الرحمن بالجلوس على كرسي من خشب قديم بدون متكئ. جلس ومد رجله الاصطناعية أمامه وهو يلعب كعادته بشتلات المفاتيح. أجال نظره في الغرفة، فبدت له عارية وفقيرة وغير نظيفة، ما هو واضح فيها صورة رئيس الجمهورية المعلقة في إطار ذهبي. كان الإطار معلقًا بصورة مائلة قليلا إلى جانب إطار آخر عليه كتب النشيد الوطني "قسما"، رائحة السجائر تملؤها، ومسدس الضابط موضوع على المكتب، حين أنهى الضابط المكالمة قام من مكانه، من خلف المكتب، قرب كرسيًّا خشبيًّا آخر كان موضوعًا غير بعيد من الباب المغلق، ثم صافح ثانية عبد الرحمن بكثير من الود؛ مما جعل هذا الأخير يستغرب هذا الترحيب، وهو ما جعله يستعيد من شخصيته ويحرك شتلة مفاتيحه لترن أكثر وأكثر. قال الضابط لعبد الرحمن: "قهوة أم شاي؟". أجاب على الفور: "قهوة مركزة". نادى الضابط على حفيظة التي جاءت بسرعة البرق، كأنما كانت واقفة عند الباب تتسمع على الحديث أو تنتظر طلبًا كانت تتوقعه. بدأ الضابط يتكلم عن ظروف البلد التي تحسنت من حيث الأمن السياسي، ولكن الجريمة والاعتداءات كثرت، وأن أغلبها ناتج عن استهلاك المهلوسات والحشيش الذي يدخل البلاد من حدودنا الغربية بالقناطير، بل أكثر من ذلك: فقد انتقل الجزائريون إلى مرحلة خطيرة، وهي بداية زراعة الحشيش في مزارع سرية، وأغلبها فوق السطوح الترابية في بعض القرى والمداشر التي انتشرت في كثير من

ولايات البلاد. كان عبد الرحمن يسمع، وهو يلاعب شتلة مفاتيحه، وبين الحين والآخر يحرك ساقه الاصطناعية، ويعدل من جلسته على هذا الكرسي الخشبي المتعب. جاءت القهوة فوق صينية بلاستيكية وإلى جنبها كأس ماء، شرب كأس الماء إلى نصفه، ثم رشف من قهوته التي في كأس من زجاج.

كان عبد الرحمن ينتظر من الضابط أن يبدأ في الحديث عن الأمر الذي لأجله استدعاه، وكأن هذا الأخير كان يقرأ ما يدور في رأس عبد الرحمن، فقال: "قد تتساءل لماذا استدعيتك هذا الصباح، وعلى عجل؟ بكل صراحة لأنني بحاجة لخدمتك، بل الوطن في حاجة إلى خدمتك؛ الدولة الجزائرية بأمس الحاجة إليك، فأنت حسب تحرياتي في المؤسسة الاستشفائية الأكثر أهلية وذكاء لأداء مثل هذه المهمة التي سأعرضها عليك". عدّل عبد الرحمن من جلسته، ورشف من كأسه رشفة عميقة أحدثت صفيرًا عاليًا، ثم نظر إلى الضابط في شبه حيرة مغلفة بثقة ظاهرية.

"سيدي الضابط الرئيس في حاجة إلى خدماتي؟! إن في الأمر خطأً ما!".

قدم لي سيجارة من نوع أجنبي، تناولتُها، ثم أشعل الولاعة وقرب نارها اللطيفة من وجهي، حركتُ ساقي، غمغمت قليلا، وأخذتُ نفسًا عميقًا فاشتعل رأس السيجارة بتوهج. عدت إلى وضعيتي الأولى، نظرتُ إلى إطار رئيس الجمهورية المعلق مقابلي يتصدر الغرفة، لم يتغير منذ خمس عشر سنة. على الرؤساء تغيير صورة إطارهم مع كل عهدة، إنهم دون شك يسعدون بأن يروا أنفسهم لم يتغيروا، ولو وهميًا قلت له: "والله الرئيس شاخ كثيرًا،

تعب صحيًا". لم يرد علي، أعطى أمرًا على الطالكي والكي قـائلا لمحدثته: "أتركوه ينتظر، أنا في جلسة عمل مهمة جدًّا". قال ذلـك بفرنسية مشوبة ببعض الكلمات الأمازيغية، على الخـط في الجهـة الأخرى ميزت صوت حفيظة، أو واحدة أخرى لها نـبرة صـوت مشابهة.

اقترب مني أكثر، وقال: "أريدك أن تساعدني في البحث عـن حل لمسألة لم أجد لها مخرجًا، وأعتقد أنك قادر على أن تعثر لها على حل؛ فهي من اختصاصك. في المقابل، سأمنحك رخصة غير مكتوبة، رخصة شفوية، للعمل سائق أجرة كلوندستان بسيارة الإسعاف على خط دالي إبراهيم - ساحة أول ماي؛ فلا فرق بين نقل الجثث الحية أو أخرى ميتة في بلد عاش عشرية كان الواحد فيها يمشـي حـاملا كفنه باستمرار. لن يعترضك شرطي في المدينة، سأعطي أمرًا في هذا الشأن".

سكت قليلاً، ثم واصل:

"دون شك لقد سمعتَ بأن الرئيس الصيني سيزور الجزائر قريبًا، أي بعد ثلاثة أشهر تقريبًا، وسيسبق الزيارة الرئاسية، وتحضيرًا لهـا، زيارة وزيري الخارجية والداخلية، وأن الصين بلد يعيش فيه مليـارا من البشر أو أكثر، وأنه البلد الذي تجـاوزت معاملاتنـا التجاريـة والاقتصادية معه حجم مبادلاتنا مع فرنسا. أنت تعرف أن مثل هذه الزيارة نراهن عليها كثيرًا في إعطاء دفع كبير لتحقيق برنامج فخامـة الرئيس، خاصة في شقه المتصل ببناء المساكن ومد الطرقات والأشغال العمومية عامة. إن شيئًا ما يعكر هذه الزيارة، ونخاف أن تصل رائحة هذا الشيء إلى الإعلام المغرض الذي يعارض برنـامج الـرئيس. إن

موت ذاك الصيني قد يحول القضية من مسألة حالة حدث معزول إلى مسألة سياسية مركزية، والمشكل يا السي عبد الرحمن يكمن في أننا لم نعثر على مقبرة تقبل أن ندفن فيها هذا الصيني، الذي لا تزال جثته بالجناح المخصص لحفظ الجثث بمعهد باستور. وقد مر عليها الوقت القانوني، وأخاف أن يحل الصيف ومع العطل الكهربائي المتكرر في الحي فستتعفن، وتكون الفضيحة لنا ولوزارة الصحة. لقد حاولنا البحث عن سبيل لإعادة جثته إلى بلده، لكن الشركة الصينية المشغلة، وصاحبة مشروع بناء الحي السكني على أطراف العاصمة، لا تؤمن عودة عمالها في حالة الوفاة، وكأنهم جاؤوا وهم يعتقدون بأن لا موت في بلادنا قد يلاحقهم. وحين فكرنا في دفنه في الجزائر بحثنا في عقيدته، فلم نجده لا مسلمًا مالكيًّا كي ندفنه في واحدة من مقابرنا الكثيرة، ولا إباضيًّا كي ندفنه في مقبرة الإباضيين، وبحثنا، إذ قلنا ربما كان مسيحيًّا، فإذا به ليس كذلك ولا يهوديًّا، إنه مواطن صيني بدون دين. لقد حرنا بعد أن رفضت جميع مصالح البلديات التي طلبنا منها دفنه لديها إخراج رخصة الدفن؛ ففكرت وقلت لا بد أن تكون لك معارف قد تخرجنا من هذه الورطة قبل حلول ضيف الجزائر الكبير، وقبل انطلاق حرارة الصيف، وأن تقترح علينا مكانًا لدفنه".

على الفور فكرتُ في ابن عمي وأخي من الرضاعة زهير أورابح (اسمي أنا عبد الرحمن أورابح) رئيس بلدية بني فرطاس، والتي تبعد بحوالي أربعمائة وخمسين كيلومترًا عن العاصمة، بلدية على الحدود الغربية مشهورة بالتهريب، تهريب البنزين والويسكي والحشيش والبنائين وحرفيي التبليط القادمين من فاس ومكناس، والذين يتم

تشغيلهم بطريقة غير شرعية وبمقابل زهيد، في بناء وتزويق الفيلات الجديدة التي أقيمت على طول الساحل الجزائري من قبل أثرياء جدد امتلأت جيوبهم وأكياسهم بالمال من كل الجهات، وفي سنوات لا تزيد عن أصابع اليدين.

ابن عمي هذا كان زميلا لي في مدرسة "أبو العلاء المعري" الابتدائية التي دخلناها في يوم واحد، لكنه لم يطل به المقام على مقاعدها؛ فقد غادرها مباشرة بعد إخفاقه في اجتياز امتحان شهادة السنة السادسة ابتدائي، في حين واصلت أنا دراستي حتى الجامعة التي سجلت فيها بمعهد الحقوق بحلم أن أصبح محاميًا أدافع عن الشيطان. ابن عمي هذا لن يرد لي طلبًا، فدفن جثة صيني من أكلة لحم الكلاب والحشرات والأفاعي في مقبرة القرية ليس بحدث مهم، والمقبرة مليئة بالقبور المجهولة التي لا يُعرَف أصحابها، وغالبيتهم من ضحايا الإعدامات الجماعية والفردية التي مارسها الإسلاميون سنوات الإرهاب وتركوها مرمية على جانب الطريق الوطني أو على أطراف الغابة.

قلت على الفور للضابط الرئيس: "الأمر بسيط، هين، عندي أين أدس هذا العفن غير المسلم، هذا الخنزير، وسنحتفل بزيارة الرئيس الصيني دون نباح صحافة، ولا مؤامرة فرنسية تريد التشويش على علاقاتنا مع شريكنا الاقتصادي والتجاري الأول: الصين".

أخرج الضابط رزمة أوراق نقدية، سلمني إياها، حاولت أن أفتعل حركات التعفف والرفض أو التمنع، لكن الضابط لم يعر حركاتي السخيفة أي اعتبار ووضع الأوراق أمامي؛ فأخذتها وقد أعددتها بنظرة، وقدرت قيمتها بنظرة خاطفة من عين لا تفوتها أمور مثل هذه، ووضعتها في جيبي بعد أن حركت ساقي الاصطناعية

قليلا حيث غجغجت، ومعها صعد رنين صوت شتلة المفاتيح على جنبي الأيمن ثم الأيسر.

قلت له وأنا أستعد للانصراف: "غدًا ستقف الجثة في جلسة حساب القبر، قبل أن تواصل نزولها إلى جهنم وبئس المصير".

ابتسم الضابط الرئيس، فأبان عن أسنان سوداء مهترئة كفتات الفحم في فمه.

بمجرد أن خرجت، عدت إلى سيارة الاسعاف المركونة غير بعيد عن المخفر، جلست بالداخل، أعددت الأوراق النقدية، كان عددها كما توقعته من نظرة خاطفة ذئبية. عيني لا تخطئ.

قلت في نفسي: "اضرب الحديد ما دام ساخنًا، عليّ أن لا أضيع وقتًا، المسألة فيها الصين والصينيون ورئيس الصين الشعبية، إذن الوقت من ذهب".

انطلقت مباشرة إلى أول محل طاكسيفون، كان شبه فارغ، أخذت لي مخدعًا ثم ركبت رقم هاتف ابن عمي زهير أورابح، رئيس بلدية بني فرطاس. لم أنتظر إلا ثوان حتى أجابني على الطرف الآخر من الخط، بعد السلام والسؤال عن الأهل والبلد والجو والمطر، قلت له: "إن هناك شيخًا صوفيًا، عالمًا كبيرًا جاء من بلد العلم والعمل الذي أوصانا الله عليه بقوله: "اطلب العلم ولو في الصين". وقد كان يرغب أن يتوفاه الله في هذا البلد، وقد كان له ما تمنى، والله لا يرد للمؤمنين الصادقين دعوة ولا طلبًا، وقد فكرت أن تحظى قريتنا بشيخ نعمر عليه ضريحًا بقبة أو قبتين، نجعله مزارًا للمؤمنين، وبه تزيد البلدية جاهًا ووقارًا، وترفع عنها عين الدرك والأمن، وتزداد تجارة التهريب، وينعم الساكنة ببركته؛ إذ يبسط جناحه عليها بالرحمة

والدعوات الحسنة، ونبني حواليه مقهى ومطعمًا وفندقًا وحمّامًا للرجال وآخر للنساء. اعلم يا أخي من الرضاعة أن الطريق السالك إلى البركة والشفاء والنجاح والتفوق أصبح يمر عبر الأضرحة والراقين، وقد تأسست على ذلك -ومن خلاله- تجارة رابحة جدًّا في هذا البلد. اعلم يا أخي أن هذا الشعب عامة بمثقفيه وجامعييه وأمييه وساسته وتجاره.. أضحى مريضًا نفسانيًّا، وأنهم جميعًا يرفضون عيادة الأطباء النفسانيين، ويفضلون عليهم زيارة الأضرحة والرقية؛ هي دواؤهم وهي ملاذهم بعد أن غلقت في وجوههم أبواب الحظ، ولم ينالوا من ثروات البلاد التي توزعها كمشة من الناس سوى الهواء والريح. ألم تسمع بذاك الأستاذ الذي ترك طلبته ومدرج الجامعة وفتح له عيادة للمداواة بالرقية؟! وهو الآن ينعم بالجاه والمال، وسيترشح في الدورة القادمة ليكون نائبًا في البرلمان، ومنصبه جاهز مسبقًا، وقد تهاطلت عليه أعداد لا تحصى من المرضى القادمين من كل جهات الوطن، وتسابقت عليه قنوات التلفزيونات الخاصة والعامة لتجري معه حوارات في حلقات، وهو ما زاده شهرة على شهرة. انتبه يا ابن عمي وأخي يا زهير هذه فرصتنا، وعليك أن تفكر في مستقبلك السياسي هنا في العاصمة؛ فمناصب القرى لم يعد لها نفع كبير، أنت أكبر من منصب رئيس بلدية مرمية على أطراف بلد مساحته تساوي خمس مرات مساحة فرنسا. عليك أن تفكر في منصب برلماني أو وزير، فالذين يتولون هذه المناصب ليسوا أهم منك، وغالبيتهم يعتمدون في الوصول إلى المناصب أو البقاء فيها على الرقية، هم أول من يزور الدجالين المشعوذين والسحرة، حتى الفريق الوطني يعتمد على راقٍ اسمه بلحمر أو بلخضر، فعليك أن تقفز.. هي

فرصتك يا ابن عمي ويا أخي، ومعها فرصتي أنا أيضا ألعق معك ومن صحنك بعض العسل".

وانتهت المكالمة وقد شعر زهير أن باب المستقبل انفتح له، وأن الطريق إلى العاصمة أصبح سالكًا.

في اليوم التالي كان الضابط الرئيس قد جهز الأوراق جميعها، رخصة إخراج ونقل جثة الصيني الذي أصبح اسمه: "الحاج الشينوي". وضع عبد الرحمن الجثة في سيارة الإسعاف الخاصة بنقل الجثث، وأقلع في اتجاه قرية "بني فرطاس".

الجو حار قليلا، مما اضطر عبد الرحمن أن يملأ خلفية السيارة بقطع ثلج كبيرة رتبها من حول التابوت كي تلطف الجو؛ خوفًا من أن تطلع رائحة الجثة المخزنة منذ أزيد من تسعة أشهر.

حين وصل القرية، بعد نصف نهار من السير تقريبًا، والليل بدأ في النزول، استقبله أهل القرية بالخشوع والصلوات، وقد أحضر رئيس البلدية أفضل مرتلي القرآن الكريم الذين جلسوا على زربيات مصنوعة من الدوم والحلفاء، على الرصيف المغبر، يقرأون من كتاب الله دون انقطاع، منذ مطلع الفجر.

كانت القرية كلها في استقبال جثمان "الحاج الشينوي" الذي درس في مدينة بخارى، وشكل حزبًا إسلاميًّا من أجل تحرير الصين من الكفار انطلاقًا من مقاطعة شينغ يانغ الإسلامية التي كبر فيها، وفيها حفظ القرآن على والديه اللذين حجا سبع مرات، وفي السابعة: تم إعدامهما من قبل حرس الحزب الشيوعي بدعوى تشكيل جمعية أشرار دينية، تطالب بإسقاط سلطة الحزب في المقاطعة، والتآمر ضد السلطة المركزية.

القرية كلها، صغيرها كما كبيرها، نساؤها كما رجالها، الجميع يردد القصة نفسها، قصة الشيخ الحاج الشينوي الذي رأى في المنام أنه سينزل ببلاد الإسلام التي هي الجزائر، وأنه يرغب في الذهاب على خطو الشيخ عبد الكريم المغيلي صهر الشيخ العلامة سيدي عبد الرحمن الثعالبي حتى تمنطيط وتمبوكتو؛ ليواصل الدعوة في بلاد إفريقيا السوداء مع المجاهدين الجدد، ولكنه حين وصل الجزائر المحروسة، زاره في المنام سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وقال له: "إني أرى أنك ستنام على جدودنا الغربية لتكون حارس البلاد في تلك الجهة، كما أنا حارسها في الوسط، وصهري الشيخ المغيلي يحميها من الجنوب". وفي الصباح، أسلم الشيخ الحاج الشينوي روحه لباريها، وكان قد كتب في وصيته أن يدفن في قرية "بني فرطاس"، كما فهم من زيارة الشيخ العلامة سيدي عبد الرحمن الثعالبي صهر الشيخ المغيلي، محارب الكفار من يهود تمنطيط.

حين دخلت السيارة القرية، رفع المرتلون أصواتهم عاليًا وغيروا من إيقاع القراءة، وارتفعت خلفهم أصوات النساء المنتحبات المتخصصات في فن البكاء، وفن الندب على الأموات، واللواتي تم جلبهن من القرى المجاورة، ومن مدينتي تلمسان وندرومة بسعر مناسب جدًّا، وجرى الأطفال حفاة في الشوارع يتبعون السيارة التي يسيل من أطرافها الماء جراء ذوبان قطع الثلج. أنزلت قصاع الكسكسي أمام بوابة مسجد القرية الوحيد، وعلى الأرصفة غير المعبدة، وتوقفت فرقة المرتلين الأولى لتعوضها فرقة أخرى بقراءة أخرى، وعلى إيقاع آخر يسمى "القراءة الشرقية". وكان زهير أورابح رئيس البلدية في حالة من الخشوع والتأمل الروحي، وهو يتبع

السيارة التي سارت قليلا، ثم توقفت ليرفع منها جثمان الشيخ الحاج الشينوي البخاري، ويحمل بخشوع على الأكتاف، ويسار به حتى الرحبة التي يقام عليها السوق الأسبوعي، ثم يعاد به إلى داخل المسجد. كان الإمام يتابع كل حركة منذ وصول الجثمان إلى القرية، وهو شاب أغواه تنظيم الفيس (الجبهة الإسلامية للإنقاذ) المحل سنوات التسعينيات فسار في مساره، ولكنه، وبعد أن عاش محنة النفي إلى الجنوب، عاد من تلك المحتشدات الصحراوية محطم الداخل نفسيًّا، بعد أن تم الاعتداء عليه جنسيًّا من قبل شيوخه ورفاقه في الجبهة داخل المعسكرات، والتي تم فيها حشد مناضلي الحزب، وبعض قادته من الصف الثاني والثالث والرابع. قام الإمام مكحل العينين بوضع الجثمان في ركن بارد من قاعة الصلاة بالمسجد، غير بعيد عن نافذة يجيء منها هواء بحري بارد تحسبًا لأي شيء، كما أمر بذلك عبد الرحمن، وهو صاحب خبرة في الجثث وعارفٌ بعلامات تفسخها وانفجارها، لا سمح الله.

في الصباح، مع ترتيل القرآن الكريم، وبفتوى أصدرها إمام المسجد، قال إنه قرأها في كتاب **الشمس الطالعة من الغرب**، تم ختان الحاج الشينوي البخاري، قبل أن يغسل على الطريقة الإسلامية، ويكفن، ويرمى عليه كيس ملح من الحب الخشن حتى لا يتفسخ، والحرارة بدأت ترتفع ونحن في الأيام الأخيرة من شهر أبريل.

تناقل الناس في قرية بني فرطاس والقرى المجاورة خبر وصول جثمان الشيخ الشينوي البخاري. ومن قرية لأخرى كان الناس يزيدون في الخبر؛ فبعضهم روى أن الشيخ وصل مشيًا على الأقدام، وحين دخل القرية جلس إلى ظل مسجدها ونام قليلا ثم مات. وقال

آخرون إنهم رأوه يطوف القرى طائرًا بجناحين بيضاوين كبيرين كجناحي الملك الذي أرسله الله إلى محمد حاملا الرسالة، وحط على أطراف القرية ثم صلى بعض ركعات ثم نام ومات. وقال آخرون إنه جاء مباشرة من منطقة في الصين؛ حيث يقمع الإسلام من قبل دولة شيوعية كافرة، وأنه مر على طشقند وتبرك بتراب بلد الإمام البخاري، وهو الذي حدثه في المنام، وطلب منه أن يجيء إلى بلادنا؛ كي يدفن فيها، ويظل علامة من علامات بلد مطلع الشمس.

منذ الصباح، بدت أزقة وممرات قرية بني فرطاس غاصة بالناس: نساء ورجالا وأطفالا، من كل الأعمار، قدموا من القرى والمداشر المجاورة، كانوا راجلين، أو راكبين دوابهم من بغال وحمير وبعض الأحصنة النحيفة، وقد شكلوا حزامًا بشريًّا يمتد من مسجد القرية وحتى المقبرة المتواجدة في الضواحي، على بعد بعض كيلومترات جهة المدخل الشرقي للقرية.

منذ الفجر، لم يتوقف قراء القرآن عن الترتيل، كانوا يقرأون ويغمسون أصابعهم تباعًا في بوقال من العسل الصافي البري؛ حتى لا يفقدوا أصواتهم، ولا تخونهم حبالهم الصوتية.

بعد صلاة الظهر وصلاة الجنازة على رأس الموكب، ظهر رئيس البلدية وإلى جانبه عبد الرحمن بساقه الاصطناعية التي كانت غجغجات مفاصلها أكثر صوتًا من جراء المشي على الأرضية غير المستوية. كانا يسيران في خشوع كبير وهما يراقبان أفواج المواطنين المؤمنين التي تتسابق في اتجاه المقبرة، صارخة بصلوات ورافعة الأدعية، مع نحيب نساء يسمع من النوافذ المفتوحة، وعلى عتبات البيوت، ومن فوق السطوح.

فوق الجميع، حومت طائرة عسكرية للتأكد من الوضع، بعد أن وصل إلى أذن المسؤول العسكري عن الناحية نبأ تحرك القرى دون سابق إنذار؛ فكان عليه أن يكون يقظًا، مع أن بعض الجنود تسلقوا سور الثكنة العسكرية المجاورة، وقد ارتدوا ألبسة مدنية، والتحقوا بالسائرين والناحبين والصارخين بالدعاء خلف جنازة الحاج الشينوي.

لم يطل وقت الدفن بالواقفين الذين امتلأت بهم المقبرة على آخرها؛ إذ ووري الحاج الشينوي التراب، ورفع الإمام أكف الدعوات، واعتبر مدفن هذا العلامة الفهامة الطاهر في قريتهم طالع خير، وبشارة من الله ورسوله أن اصطفى هذه القرية لتكون مكان نوم الشيخ، وأنه سيرافقهم يوم القيامة، وسيكون على رأس أهل القرية والقرى المجاورة إلى الجنة التي بها يوعدون.

على أطراف المقبرة: نصبت الخيام، وذبحت الأضاحي، وظل القرآن الكريم يرتل سبعة أيام وسبع ليال دون توقف، حيث تم جلب تسعة وتسعين مرتلا من المدينة المركزية، ومن طلاب بعض الزوايا القريبة، وظلوا طوال المدة يتناوبون الترتيل، مجموعة بعد مجموعة، وعليهم تدور جرار العسل البري والسمن الحر الذي يدهن الحبال الصوتية، ويرفع شهية القراءة، ويعظم التقوى. وفي اليوم السابع جيء بأمهر البنائين والبلاطين والمزوقين من فاس ومراكش وسجلماسة. وخلال يومٍ واحد، وقبل أن تغرب الشمس، كانت القبة قد رفعت فوق القبر بضريح وسقيفة، وبني القبر وزلج بزليج نادر فيه الأخضر والأحمر والأبيض والأصفر، وعليه أسدلت الزرابي التي تم جلبها من السوقر وبسكرة للغرض عينه.

وافترق الناس بعد أن تم تعيين قيم مؤقت على الضريح من قبل رئيس البلدية، فقد رفض عبد الرحمن تولي المهمة؛ لأن أشغالاً كثيرة ومهمة تنتظره في العاصمة، على حد قوله.

16

كيف يمارس الصيني الجنس؟ كيف يعوي هذا المخلوقَ الصغير حين يصل إلى الذروة؟ ماذا يقول وهو على قمة الشبق؟ بأي لغة يهذي أو يعوي وهو في بلد المليون والنصف مليون شهيد؟ بلغته الأم أم بلغة القطط الساخنة؟ ما الوضعيات التي يفقهها دينًا، والأخرى التي يفضلها دنيا؟ ما الدين في الجنس في بلد بدون دين؟ ما شكل العضو الجنسي الصيني؟ ما حجمه؟ وما لونه؟ وما طوله؟ لن يكون سوى عضو صغير، لا يتجاوز حبة الفولة السودانية بقشرتها الخارجية، فأمي نقلاً عن جدتي رحمها الله كانت تقول: الرجل صاحب الرّجل الصغيرة له عضو صغير، صغير الرِّجْل صغير العضو، وهذا الصيني الذي يسكنني لا يحتذي أكبر من 38، وأنا شغفي بالرجل الذي له رِجل بمقياس يفوق 46، يملئني حتى الإفاضة والشفاعة والجنون!

لكني متأكدة أن الرجل قصير الطول في بلد الصين لن يكون شبيهًا بالرجل القصير في بلاد الجزائر. إن قصره يوصله إلى قطف النجوم. إن لهم هناك في شؤون الدنيا أمورًا لا يفقهها الرجل عندنا، الغارق في التحليل والتحريم.

كلما عدت إلى فراشي مرهقة من جري النهار بين المكاتب والاجتماعات، وملفات الأموات، وضجيج النقابة، ورائحة عبد

الرحمن الكريهة، وصوت مفاتيحه المعلقة في خصره الذي يعلو مع عرجه، وغجغجة ساقه الاصطناعية، أسرع تحت مرشة الحمّام، أصوبن جسدي بصابون مزيل للرائحة مصنوع بطريقة تقليدية فيها الحكمة الشعبية، اشترته لي جارة من مراكش، امرأة تسكن بيتًا مقابلا لبيتنا العائلي، تعيش وحيدة منذ نصف قرن ولا أحد سأل يوما عن سر وحدها، وقد تعودت أن تسافر كل سنة لقضاء رمضان في هذه المدينة الحمراء. بعد الحمام، أتمدد عارية على السرير، واضعة يدي تحت رأسي الملقاة كالذبيحة على الوسادة، وأحدق في السقف، أعد الدوائر وأفكر في قصر الرجل الصيني، وفي صمته وصبره وحبه للعمل.

كلما فكرت في بلد العجب، أزداد رغبة في اكتشاف جسد يونس الشينوي. جسد الرجل الجزائري لم يعد يثيرني، لا وجود للرجل في الجزائر، هذا البلد يمتلئ بالذكور وليس بالرجال، الذكر الجزائري أناني في كل شيء، وأكبر أنانيته تتجلى في طريقة ممارسته للجنس، ينام مع زوجته وهو يفكر في أمه، ينام مع عشيقته وعقله في وضوئه الكبير لصلاة الجمعة الكبيرة. سرير الجزائري محاصر بالممنوعات، كله مناطق محرمة، الذكر الجزائري لا يسمح لجسده ولا لجسد المرأة التي تقاسمه السرير بحرية الطيران. لا جنس بدون تحليق في السموات التي لا توجد إلا في الأحلام. الذكر الجزائري يمارس الجنس وهو يفكر أنه بصدد صناعة طفل ذكر وريث للذكورة، يصنعه كما يصنع الحرفي إبريقا من فخار، الجنس في ثقافة الجزائري مهمة اجتماعية، لا علاقة له بالمتعة والإدهاش والصلاة الكبرى.

في السرير يعود الجزائري إلى أصله: تيس!

نـــزيم زوجي الذي تقاسمت وإياه حياة السرير قرابة العشـــرين سنة خذلني، لم أشعر يومًا بجسده كما اشتهيته ساخنًا عنيفًـــا كـــبيرًا متورطًا مجنونًا، عشت بين يدي طبيب كل ما يقوله عـــن الجســـد مرتبط بالأمراض أو الأدوية أو أمه..

لا أخفي عليكم، بـــي رغبة إلى جسد غريب وغامض، أريـــد أن أمارس الحب مع رجل لا أفهم لغته، وأريده أن يلجني وهو يتمتم عبارات الحب في أذني، عبارات حب بلغة بني جنسه، ولو كانت لغة الهنود الحمر، سأفهمها حتى وإن كنت لا أعرفها، أفقه معانيها حـــتى ولو لم تنـــزل يومًا على دفاتري المدرسية، نمارس الحب بكل اللغات، حين نحب تنسحب اللغة بمفهوم دو سوسور. أريد غريبًا كي أطارد غربتي التي طالت في جسدي وفي سريري. أريد جسدًا غريبًـــا كـــي أخلص جسدي من غربته المفروضة عليه بالأخلاق والدين وعيـــون الأم ورقابة الأب والأخ والجار الملتحي وغير الملتحي..

هكذا، مسكونة بهذه الرغبة، قررت أن أتعلم اللغة الصينية وأن أبدأها بلغة العاطفة، الكلمات المعبرة عن الحب والجسد.

نـــزلت المدينة، درت بعض مكتباتها التي حُولت بعضـــها إلى مطاعم وبعضها الآخر يبيع كتب الدين والفتاوى والدعاوى وأهوال القبر وكيف تصنع القنابل التقليدية، من مكتبة إلى أخـــرى، كلمـــا سألت عن كتاب مبادئ تعلـــم الصـــينية، ينظـــر إلي المكتبـــي باستغراب، كأنني أطلب شيئًا مستحيلا أو منكرًا. "جزائرية جميلـــة بعينين خضراوين تريد أن تتعلم الصينية؟ تعلمي الإنجليزية أو الألمانية يا سيدة". أصل مكتبة "العالم الثالث" بساحة الأمير عبد القادر، مـــن هذه المكتبة أشتري كتبـــي التي تصدر بالجزائر، أو المستوردة بشكل

غير منتظم من باريس، لا أغيب عن حفلات التوقيع التي تنظم بهذا الفضاء لبعض الكتاب الجزائريين والأجانب. أحب الكتب الموقعة من مؤلفيها، أجدها حميمية ودافئة، فيها نفس مضاف. يشرف على هذه المكتبة السيد عبد الرحمن، هذا عبد الرحمن آخر، هذا الاسم متداول كثيرًا بين أبناء مدينة الجزائر؛ احترامًا وتقديرًا لحارسها الولي الصالح "سيدي عبد الرحمن الثعالبي". يحفظ المكتبي عناوين كتبه جميعها، ويعرف قراء العاصمة وأذواقهم، وهم بدورهم يكنون له كثيرًا من الاحترام، ويسمعون اقتراحاته وتوجيهاته في اختيار ما يقرءون في شتائهم وفي صيفهم، في سفرهم وفي إقامتهم.

أكره كتب تعليم اللغات الموجهة للسواح، كتب بلغة باردة استهلاكية وفارغة، بلا قلب وبلا روح، قائمة بـ: أسماء الفنادق، تعبيرات دبلوماسية، تأدب أو نفاق زائد، تكلف قاتل، صباح الخير سيدي أو سيدتي، كم سعر الغرفة، أين محطة المترو، الاستيقاظ صباحًا، رقم الرحلة، عنوان المطار، شركة التاكسي، رقم الغرفة، رقم الحافلة التي تمر بالفندق، عناوين المتاحف، أسماء الأكلات المحلية الشهيرة، عناوين المطاعم، قائمة قنوات التليفزيون..

أريد أن أتعلم اللغة الصينية الشيطانية، هل هناك شيطان في الصين؟ مرات كثيرة أقول: "الشيطان عربي أو مسلم، لو ذهب الشيطان للسكن في الصين لوجد نفسه غريبًا أو تحول إلى ملاك.. إن الشيطان في بلاد الإسلام يشعر أنه بين إخوانه وخلانه وذريته ومحبيه".

أريد أن أتعلم لغة الجنون الصيني، وهل هناك جنون صيني؟ مرات كثيرة أقول: "الجنون مسلم الهوى وعربي الانتماء، الحكمة صينية الوطن، كونفوشيوسية الملّة، وشهوانية الحياة".

أريد أن أتعلم اللغة التي بها يحلق الصيني، بها يذوق عسل الجسد! يقال إن الدين في الصين يعلم الكثير عن الجسد والجنس، الشعوب التي لها ثقافة روحية كبيرة فيها بالموازاة، مع ذلك، ثقافة حسية متميزة، ولعل أهم من تحدث عن علاقة الجنس بالصلاة هم المتصوفة، أما كان الشيخ الأكبر ابن عربي يعتبر ويقول ما معناه: "النكاح أكبر الصلوات".

الصيني صبور في العمل، وفي الحب!

الصيني لم يخلق على عجل، وفي ظلام، كما خلق الذكر الجزائري.

أشعل سيجارة، أسحب من قلب تبغها نفسًا حارقًا، أتسلق بجناحي حلمًا أزرق، وأتساءل: "ما شكل المرأة التي يحبها الصيني؟ نموذج كلوديا شيفير أو بريجيت باردو أو أنجيلا جولي؟".

عين الصيني ترى ما لا يراه الذكر الجزائري.

الرجل العربي، وقد ورَّث هذا للرجل البربري عن طريق الدين واللغة والسياسة والنفاق، يحب المرأة التي على شكل أمه وعلى شاكلتها، أتساءل هل الصيني يشذ عن ذلك؟

كان أستاذ العربية المصري الصعيدي الذي درسنا الشعر الجاهلي والتربية الإسلامية والرياضيات!! يحفظ المعلقات والقرآن عن ظهر قلب، يقول لنا شارحًا مواصفات المرأة الجميلة في عين العربي، دون أن يرفع عينه علينا نحن البنات النحيفات:

"عشق العرب المرأة التي تتمتع بمقاييس ضخمة، وكانوا يطلقون عليها "الخديجة" أي ممتلئة الذراعين والساقين. وهناك "البرمادة" التي ترتج من سمنتها. والبدانة من أهم مقاييس الجمال العربي، فقد

كانت المرأة "العبلاء" هي المرأة الجميلة في نظر العربي، والعبلاء هي من كان أعلاها خفيفًا وأسفلها كثيبًا، وكانوا يتعوذون بالله من المرأة النحيفة الزلّاء "خفيفة الشحم" ويقولون: "أعوذ بالله من زلّاء ضاوية كأن ثوبيها عُلّقا على عود". ويصف العرب المرأة البدينة بخرساء الأساور؛ لأن البدانة تمتد إلى الرسغ فتمنع ارتطام الأساور فتصبح خرساء".

كنا نسكت، وكان الذكور من التلاميذ يقهقهون، ويقومون بحركات هزلية في القسم، لإثارتنا والانتقام منا نحن النحيفات.

ما العطر الأنثوي المفضل لدى الرجل الصيني؟ عطر شرقي فيه غموض الآلهة ومتاهات العوالم الأخرى؟ أم عطر إفريقي وحشي؟ أم عطر فرنسي رومانسي؟ أم عطر إيطالي مثير وعنيف؟

ما اللون الذي يفضله على شفاه امرأة عاشقة؟ الوردي، القرمزي أم الأحمر؟ الصيني يكره اللون الأحمر، إنه لون الشيوعية التي كثيرًا ما كانت السبب في القمع والحجر على الحرية الجنسية والسياسية والفكرية في بلادهم، اللون الأصفر لون الغيرة والشمس الغامضة (أنا لا أحب اللون الأخضر، لست أدري لماذا يذكرني بالمقابر والموتى).

ربما هو يحب المرأة عارية بدون لون؟ لون لحمها الحي الطبيعي الوحشي المتوحش هو أفضل لون يعبده الرجل الفحل في المرأة العاشقة.

هل الصيني يحب ممارسة الجنس في الظلام؟ في الليل إذا عسعس كما يقوم به المسلمون والعرب؟ إننا شعب الظلام، عربه كبربره، صُنعنا في الظلام، ولا زلنا نعيش في الظلام، ولا ننتج غير الظلمة، من

ظلمة إلى أخرى. ظلمة في السياسة، ظلمة في الولد، ظلمة في الاقتصاد، ظلمة، ظلمة، ظلمة، ظلمة... الصيني يفضل ممارسة الجنس في ضوء عادي، ضوء نهاري، أو تحت شمعة كونفوشيوسية الطلع، ما بين الروح في شهوانيتها والجسد في روحانيته الشعرية يراقب الصيني شبقه.

نحن نتكاثر في الظلمة كجرذان قنوات الصرف الصحية، ذات الشوارب الطويلة التي تخيف القطط.

شعرت بماء لزج دافئ ينزل من جسدي ثم يبرد. انتبهت، فإذا أنا عارية ممددة على السرير نصف ملفوفة بفوطة الحمام التي انفصلت أطرافها عن جسدي، ويدي اليمنى تفرك ما بين فخذي بعنف.

مسكونة بهاجس البحث عن شيء فقدته في نزيم، بدأت الرحلة بقراءة كل ما يسقط بين يدي من الكتب الصينية المترجمة إلى الفرنسية. كان أول كاتب شدني إليه، لطرافة اسمه، هو الروائي مو يان، ومعنى اسمه هذا بالعربية هو: "الذي لا يتكلم". قلت ضاحكة وأنا أقتني روايتين له: "لأقرأ الذي يفضل الكتابة على الكلام، فكتابنا العرب والمغاربيون ألسنتهم أطول من أقلامهم ومن مواهبهم!".

لم تكن قراءتي له مرتبطة بحصوله على جائزة نوبل للآداب، أنا لا تثيرني الكتب الحاصلة على جوائز كثيرًا، أغلبها روايات مؤدبة، وأصحابها لهم علاقات داخل شلل لجان التحكيم.

ربما ما أثارني في روايتي مو يان هو العنوان: الأولى كان عنوانها **بلد الكحول**، والثانية **ثديان جميلان، ردفان مثيران**. في هذين الكتابين شعرت بعالم الصين ينفتح أمامي قليلا قليلا. كنت أقرأ الرواية، أتابع شخصياتها وأفكر في يونس. ومع أن الكاتب يتحدث

عن الجنس، لكني شعرت لديه بنوع من التردد وفقدان الثقة، وعدم الوصول إلى ما كنت أبحث عنه؛ فالروائي بدا غارقًا في حكايات جدته، وفي العالم الريفي التقليدي، لذلك تركته، إنها ليست الكتب التي تسكنني، التي توصلني إلى قلب يونس الشينوي، إلى سرير صيني حي!

بدأت البحث عن كتب يسكنها الشيطان الصيني، تلك التي تفكك تفاصيل العلاقات الحسية بين المرأة والرجل. كنت أبحث عن كتب تناقش وتحتفي بثقافة السرير، فسقطت صدفة على كتاب لم أعثر على مثيل له في الثقافة الجنسية، لا عند العرب ولا عند الأوروبيين، إنه كتاب ذكي بعنوان جريء خارج عن المألوف، اسمه: **الجسد، سجادة صلاة** والمترجم إلى الفرنسية بعنوان: «De la chair à l'extase» وهو للكاتب لي يو (Li Yu)، وكما جاء على غلاف الكتاب، فالمؤلف من الأدباء الكلاسيكيين الصينيين على شاكلة موليير في الأدب الفرنسي، وهو شاعر ومسرحي وروائي، ولد عام 1611 بجنوب الصين في عهد إمبراطورية مينغ، وهي آخر السلالات الصينية.

قرأت الكتاب بشهية، أنساني روايات مو يان، وقربني أكثر إلى قلب الشينوي الحي، باب فُتح لي نحو السرير.

منذ كتاب **الجسد، سجادة صلاة** بدأت في تأسيس مكتبة خاصة بالصين في الآداب والجغرافيا والتاريخ والدين والموسيقى والفلكلور والبخور والتوابل. كنت أقرأ، بنهم ومزاج، ما يقع تحت يدي من روايات الشيطان الصيني.

للصين شيطانها!

أريد مطاردة كل وجودي ملائكي في الصيني، وأبحث في المقابل عن مصاحبة الشيطان فيه!

شيطان الصين ليس كشيطان اليمن أو مصر أو الجزائر.

برغبة كبيرة شرعت في تسجيل موسيقات الصين المختلفة، وسماعها باستمرار في السيارة، وقبل أن أنام، وحتى في مكتبي بين الساعة الواحدة إلا ربع والثانية إلا ربع، ساعة قيلولة أمي مع الجنرال أبي! لم أختر هذا الوقت؛ إنما وجدتني رهينة هذه الساعة! هي موسيقى مثيرة، تحمل في سحرها تاريخ حضارة ضاربة في الغموض والدهشة.

وكانت سبيلي الآخر إلى الشيطان الصيني.

لقد استغربت فضول الصينيين في الموسيقى حين سقطت، وبالصدفة، على تسجيل لأوركسترا أوبيرا بكين، وهي تؤدي أغنية جزائرية عريقة من الموسيقى الأندلسية، إنها أغنية "قم ترى"، التي كانت تغنيها حماتي أم نزيم، خصوصًا بعد أن تقاعدت، وكأنما كانت بهذه الأغنية في سفر مستمر داخل بستان مغامرات لا يعرفه غيرها، مغامرات عاشتها في مكتبها كمديرة للمدرسة. كنت دائما أقول: طاووس لا تتأنق من أجل العمل، إن لها في ذلك أمر وسر.

الصيني صبور في الحب، نَفَسه طويل، الحب عنده ليس مركزًا للعالم، بل للعالم مراكز متعددة، منها: الإخلاص للعمل، والتفكير في المستقبل الشخصي، وفي مستقبل الأسرة أيضًا، لكني سأجعل يونس ينسى الصبر والعمل والمستقبل وينسى أخته التي أعطتها أمه للرصيف!

قررت أن أبدأ بتعلم مجموعة من الكلمات الصينية التي تدور حول الجسد والجنس والعواطف والشيطان. في البداية فكرت في أن

أسجل في دورة للغة الصينية بالمكتبة الوطنية؛ فهي المؤسسة الجزائرية الأولى التي بادرت إلى تعليم هذه اللغة لمجموعة من الدبلوماسيين ورجال الأعمال وبعض إطارات الدولة، ولكني تراجعت بمجرد أن تسلمت البرنامج، فأنا لا أرغب في تعلم لغة بقفاز أخلاقي ودبلوماسي وبنكي. أريد أن أتعلمها كي أمارس بها الحب وفقط. أريد الصينية لغة لي، كي أمر إلى قلب وجسد يونس الشينوي، في لحظته المتوهجة الحية الحيوانية.

كيف نتعلم لغة نريد أن نمتلكها لغرض واحد: هو أن نمارس الحب بها؟ لغة نريدها للحوار العاطفي والجسدي؟ أنا لا أريد اللغة الصينية للعلم أو الإدارة أو السفر أو الأدب أو البنوك، أريدها لكي أتنفس هذا الرجل، وأقشره من كل غموض، وأجرده من الصبر.

هذا الليلة، وأنا أبحث عن من أستنجد به من أصدقاء لي لمساعدتي على تعلم اللغة الصينية التي سكنتني، فغطت على اللغات الأخرى التي أتكلمها وأقرأ بها: العربية والأمازيغية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية، تذكرت أن لي صديقة تشتغل مترجمة دبلوماسية لدى سفارة فنزويلا، تحب بابلو نيرودا والسياب، وهي متخصصة في اللغات الشرقية القديمة. قلت: لماذا لا أتصل بها؟ فقد تساعدني من خلال علاقاتها بالسفارات، في الحصول على وسائط حديثة تكنولوجية لتعلم هذه اللغة، اللغة التي أريدها، لغة الشيطان، لا لغة السياحة والفنادق والمطارات وأدب المحادثة.

لي استعداد داخلي كبير، وشهية نهمة لا تحد لتعلم الصينية؛ فاللغة التي بها نحب نستطيع أن نستوعبها في سبعة أيام وسبع ليال.

اللغة التي ينام فيها رجل عشيق أو امرأة عاشقة هي لغة نلعقها كما العسل. حين أفكر في يونس الشينوي، أقول: "إن أبسط لغات العالم تعلما هي اللغة الصينية!".

بعثت برسالة قصيرة على إيميل صديقتي ليندا الحواس، سألتها عن أحوالها وعن مشاريعها القلبية والمهنية، ثم طلبت منها وهي العارفة باللغات، أن تبحث لي عن وسائط تكنولوجية لتعلم اللغة الصينية. وكما تكتب المراهقات الرسائل، أنهيت رسالتي برسم سلسلة من القلوب!

لم أنتظر سوى بعض الدقائق حتى جاءني الجواب منها في رسالة ساخرة:

"عزيزتي ساكو (هكذا كانت تناديني)، اشتقت إليك كثيرًا.

روتين العمل الدبلوماسي ممل، يجعلك تتصرف مع الناس بقناع أبدي، قناع تلبسه كل يوم حتى إنك تنسى ملامح وجهك الحقيقي. أنا الآن بمهمة في كاراكاس، مرافقة ومترجمة لأحد الأمراء الذي يريد أن يشتري حصانًا فنزويليًّا، جئنا لثلاثة أيام، وها هي الزيارة تمتد لليوم السابع.

عزيزتي ساكو، من رسالتك يبدو أنك وقعت في سحر كونفوشيوس، وأنك تُطبخين على نار صينية وهاجة، فمن يكون يا ترى هذا الكونفوشيوس؟ أول مرة أسمع فيها بامرأة جزائرية تريد تعلم اللغة الصينية. لقد حاولت شخصيًّا دراستها، لكني تركتها في أقل من ثلاثة أشهر، بعد أن تعلمت منها جملا وكلمات، وتعلمت الحساب حتى العدد ثلاثة وستين.

عزيزتي ساكو، بمجرد العودة إلى باريس، التي ستكون محطة توقفنا ونحن في طريق العودة إلى الجزائر، سأبحث لك عن وسائط تكنولوجية جديدة لتعلم الصينية".

وذيلت رسالتها بالكلمات التالية باللغة والكتابة الصينيتين ومقابلها بالفرنسية:

الحب:	l'amour	爱情 àiqíng
العين:	l'oeil	只 zhī
الرجل:	l'homme	人类 rénlèi
المرأة:	la femme	位美女 yí wèi méin ǔ
الجسد:	le corps	身体 [shēnt ǐ
الفم:	la bouche	张 zhāng
القبلة:	le baiser	吻 wěn
الموعد:	le rendez-vous	约会 yuēhuì
العشيق:	l'amant	情人 qíngrén
الابتسامة:	le sourire	微笑 wēixiào
السرير:	le lit	张 zhāng
النهد:	le sien	只 zhī
الجنس:	le sexe	生殖器 shēngzhíqì
العطر:	"le parfum	阵 zhèn

قرأت الرسالة وانفجرت ضاحكة على كلماتها الختامية، لكني تساءلت كيف يدخل الحب قلبًا؟ من أي ممر يتسلل إليه؟

أطفأت جهاز الكمبيوتر..

أعود إلى الحمّام، يسيل الماء دافئًا على جسدي الملتهب، أصوبنه وأنا أفكر في يونس الشينوي، وأفكر في أستاذ العربية وهـو يعـدد أوصاف المرأة التي يفضلها الرجل العربـي. ألفه ثانية بفوطة نظيفة، أعود إلى غرفتي، لِيليا نائمة على طرف السرير الواسع، أرتمي علـى الطرف الآخر، ولا أستطيع أن أنام، وأعود لمداعبة عضوي المتفجـر الحي.

17

لقد انتهت المهمة.

فجرًا، زيّت عبد الرحمن ساقة الاصطناعية، هي عادة الصباح، ركب سيارة الاسعاف وأقلع في اتجاه العاصمة، بعد أن قضى ثمانية أيام بقرية بني فرطاس، التي بمجرد أن ووري فيها الشيخ الحاج الشينوي تغير اسمها، لتصبح على ألسن الجميع: قرية الحاج الشينوي!

وسعد الناس بهذا الاسم الجديد المبارك كثيرًا.

فأل خير، والطريق مضمون ومعبد حتى باب الجنة.

كان الجو ربيعيًّا لطيفًا، والطريق نحو العاصمة بدا خاليًا من المركبات الشحن الكبيرة. كان عبد الرحمن يشعر بانتعاش كبير وهو يقطع المسافة ما بين قرية بني فرطاس، أو بالأحرى قرية الحاج الشينوي والعاصمة، ورغبة منه في قليل من الاستراحة واحتساء فنجان قهوة توقف في قرية مسدارة وهي في منتصف الطريق تقريبا، اتخذ له مقعدًا في مقهى شعبي يتوسط الشارع الرئيسي الذي يمر به الطريق الوطني. كان غاصًّا بالرجال من كل الأعمار، أصاخ السمع، فإذا بالجالسين إلى الطاولة المجاورة لطاولته يتبادلون حديثًا جادًّا، وقد نشب بينهم اختلاف عن أصل الحاج الشينوي، هل هو من بخارى التي منها الإمام البخاري رضي الله عنه؟ أم من بكين التي منها الشيوعي ماو تسي تونغ لعنة الله عليه؟ كانوا يتحدثون عن الحاج

الشينوي بحميمية وبثقة، حتى إن واحدًا منهم قال إنه رأى الشيخ الشينوي في المنام، وأوصاه بزيارة الأراضي المقدسة التي باركها الله، وأن يقف على روضة قبر الرسول، قبل أن يجيء ليقف على قبره البسيط في قرية بني فرطاس.

كان الرجال الذين يحتسون قهوهم بقلق يتحدثون إلى بعضهم بعضًا بكثير من الدهشة والإيمان.

راقب عبد الرحمن زيت ساقه الاصطناعية، وحزام شدها إلى الفخذ، شرب قهوته، دخن سيجارتين، وقبل أن يواصل طريقه إلى العاصمة دارت برأسه فكرة العودة إلى قرية بني فرطاس لينذر حياته خدمة لضريح الحاج الشينوي، الذي منه تطلع البركات والمال وهو طريق الجنة!

قال في نفسه: "لكم أنا غبي، لقد أحضرت لابن عمي الجنة في سيارة نقل الجثث، وها أنا أعود إلى الجحيم!".

بسرعة مجنونة، التهمت سيارة الإسعاف طريق العاصمة دون أن ينتبه، فإذا هو على أبواب المدينة التي يحرسها بعناية منذ قرون سيدي عبد الرحمن الثعالبي الذي سمي باسمه.

حط الليل، مدينة الجزائر بدأت ترسل أبناءها إلى أسرهم، مَنْ لديهم أسرّةٌ. فرغت الشوارع و لم يبق فيها سوى المشردين من النساء والرجال والأطفال الذين ملأوا الشوارع الفرعية المحيطة بالبريد المركزي، واتخذوا من الأقواس ملاجئ، ومن الممرات التحت أرض مساكن وأماكن يمارس فيها الرجال مجامعة النساء. المخنثون المثليون يقفون على الأرصفة، ينتظرون السيارات الفارهة التي تقلهم إلى النوادي الخاصة بهم، حيث مقر الجمعية التي تدافع عن حقوق هذه

الأقلية. خفف عبد الرحمن من سرعة السيارة، وإذا بالنساء تهجمن عليه عارضات أجسادهن، لأول مرة يلاحظ ما آلت إليه المدينة من تريّف؛ وذلك نتيجة هجرة كثير من البدو الهاربين من الإرهاب، بعد أن حاصرهم في القرى والمداشر، وأكل رزقهم واعتدى على نسائهم واختطف أطفالهم وبناتهم.

حين تسلل إلى سريره، تساءل بندم لماذا رجع وقد ترك الغنيمة كاملة لزهير ابن عمه، قائلا: "كان علي أن أظل هناك، أن أتخذ من الضريح كنزًا، وأن أبني لي فندقًا للزوار والقادمين للبحث عن دواء بركة؛ فالشعوذة والرقية تفوقت على الطب الفيزيولوجي والنفساني. الشعب كله مريض نفسانيًّا، أنا غبي بامتياز".

هرب النوم من عينيه، لم ينتبه إلا وهو يحاول أن يمد يده لإيقاف جرس المنبه الذي يدق عند الساعة الخامسة صباحًا على مدار السنة. لا فرق بين عطلة أو نهاية أسبوع، لا جمعة ولا ثلاثاء، هي حالة تعود عليها دماغه، فحتى حين تكون بطارية المنبه ضعيفة أو منتهية، فإن مخه مؤقت على ساعة المنبه المحددة. شعر بتعب عميق ورغبة في دقائق استرخاء إضافية، تعسيلة الصباح.

تكاسل بعض الوقت، استدار في سريره، ثم فجأة تذكر أن عليه أن يمر على رئيس المخفر ليقدم له تقريرا شفويا مفصلا عن مراسيم دفن آكل الكلاب والأفاعي والحشرات، والتي مرت بسلام وأمان، وهو في ذلك يطمع في رزمة أوراق نقدية أخرى، كما أشعره الضابط بذلك، دون الإفصاح عن الأمر بشكل صريح يوم عرض عليه قضية التخلص من جثة هذا الصيني الذي لا دين له. غسل عبد الرحمن وجهه بماء بارد، شعر بانتعاش في دماغه، شيئًا فشيئًا، تخلص

من إحساس بالتنمل سكن مؤخرة دماغه، تناول فنجان قهوة على ثلاث جرعات مستعجلة، مع سيجارة سحب دخانها في ثوان.

أسرع نحو الخارج، كان الشارع كالعادة في ضجيجه وغباره وصراخ نسائه وأطفاله وباعته المتجولين، طوى ساقه الاصطناعية وجلس خلف مقود سيارة الاسعاف، دار المحرك قليلاً، أسال بعض الماء على الزجاج الأمامي، دارت المَسّاحتان في حركات متعامدة، صفا المنظر أمامه، أقلعت السيارة، سار بضعة أمتار، هجم عليه الزبائن الذين يعرفون أنها سيارة الإسعاف لكنها تشغّل سيارة أجرة. في رمش العين امتلأت، وصرخ بعض من لم يتمكنوا من الحصول على مكان، مستنكرين ومرسلين سبابًا. ما إن ابتعد بضعة أمتار حتى تكلم الرجل الخمسيني الجالس في منتصف المقعد الخلفي الثلاثي، بين شاب على يمينه، وامرأة منقبة بدون عمر على يساره، قائلاً دون مقدمات: "يبدو أن الساعة قادمة، إننا نقترب من قرن أربعطاش! أما سمعتم حكاية الصحابي الذي أرسله الرسول إلى الصين منذ خمسة عشر قرنًا ليهدي الناس في بلد يعبد التماثيل والخنافس والأوهام! لقد عاد الأسبوع الماضي لينزل بقرية اسمها بني فرطاس أو بني قرطاس، تبعد عن العاصمة مسافة نصف يوم بالسيارة، بسيارة مثل هذه الخردة المتهالكة التي نركبها والتي تشبه التابوت. إنه الصحابي الذي لأجله قال الرسول (فردد الجميع من خلفه وبصوت واحد: عليه الصلاة والسلام): "اطلب العلم ولو في الصين". ويقال إنه لا يزال يرتدي البردة التي ألبسها إياه الرسول (فردد الجميع من خلفه وبصوت واحد: عليه الصلاة والسلام) بيديه الكريمتين! وأنه أقام صلاة الجمعة بحشد من أبناء تلك القرية المباركة وجمع غفير من

الملائكة، ثم جلس إلى ظل الجامع، شرب ماء ساخنًا ثم مات، بعد أن قال للحاضرين من البشر والملائكة: إنه مأمور كي يموت هنا ويدفن هنا، ومن هذا المكان سيعود إلى ربه على رأس جماعة صادقة مؤمنة من أبناء القرية التي تسمى بني فرطاس أو بني قرطاس، الله أعلم. ويقال إن جنازته كانت غفيرة لم تشهد مثلها البلاد في العدد والحال، جنازة أكبر وأعظم من جنازة الرئيس هواري بومدين وجمال عبد الناصر، وإن زوجًا من الملائكة سحبوا إزارًا كبيرًا امتد على مدى البصر غطى الشمس الحادة ساعة مراسيم الدفن، وأن أسرابًا كثيرة من العصافير كانت تطير حول المعزين حتى تكون أجنحتها لهم مراوح للتهوية، بعد أن شعر البعض بنوع من الاختناق نظرًا لحرارة ذلك اليوم، مع أنه كان يومًا ربيعيًّا، وتلك علامة الساعة".

كان الجميع من ركاب السيارة يتابعون الحكاية، وكأنهم يعرفونها، وربما ليتأكدوا من بعض تفاصيلها فقط. مثلهم كنت أستمع إلى الرجل الخمسيني وأتابع بين الحين والآخر، من خلال المرآة الارتدادية، علامات التأثر البالغة المرتسمة على ملامح وجهه وعلى وجهي الجالسين على جنبيه. أنا الآخر شعرت بقشعريرة تصعدني من رأس الساق الآدمية إلى قمة رأسي، وبدأت أتساءل بيني وبين نفسي: "ربما يكون الأمر صحيحًا، وإذا ما كان صحيحًا، لماذا ضيعتُ فرصتي وقد اختارتني العناية الإلهية لأنقل الحاج الشينوي إلى مقره هناك؟". انتبهت فإذا بي أكاد أدهس شيخًا يقطع الطريق، فرملت، ثم أشعلت سيجارة. نزل آخر راكب وقد اندهش للحكاية، حتى إنه سألني قبل أن يغادر: "أين توجد قرية بني فرطاس أو بني عباس؟".

قلت له: "على بوابة البحر غربًا". لم يقل شيئًا، وضع نظره بين رجليه، ومضى يتكلم وحده.

درت بالسيارة آخذًا اتجاه مخفر دالي إبراهيم. لقد أزعجتني حكاية هذا الراكب هذا الصباح، والأمر أضحى أكبر من موت صيني وُلد للعمل، للعمل وفقط.

غير بعيد، وفي ذات المكان، قبالة المخفر، ركنت السيارة ونزلت، شعرت بألم في أعلى فخذي المربوط إليه ساقي الاصطناعية بأحزمة بدأت تهترئ. سرت بتؤدة، حين دخلت قاعة الانتظار التي وجدتها مكتظة بالمراجعين، كانت الساعة قد قاربت منتصف النهار، استقبلتني حفيظة وهي تمضغ علكة، وتصنع بواقات صغيرة على أطراف فمها الجميل المشهي. سحبتني من كتفي إلى غرفة قريبة خالية، شعرت على الفور بثقل الرطوبة فيها وكأنها ظلت مغلقة لشهور، وبرائحة كريهة تطلع من زواياها. قالت لي بنوع من الاستغراب: "هل سمعت؟ من أكلة القطط والكلاب الضالة ظهر نبي جاء بلادنا ليموت فيها، في قرية قيل إنها توجد في أقصى الشمال الغربي، ومنها يقوم يوم القيامة ليقود الناس إلى الجنة. أنا في الحقيقة لا أعتقد أن جزائريًّا واحدًا سيدخل الجنة، إنهم فاسدون دون استثناء، لا يمكن أن يكون في هذا الشعب واحد يستحق أن تطأ قدمه مراعي وزرابي الجنة بنعيمها، لا أحد من رجالهم سيذوق جسد حورية، ولا كأس خمر ولا أصبع عسل، ولا أعتقد أن الله ولا الرسول سيشفع لأحد منا، إذا ذهب الجزائريون إلى الجنة فستعلق أبواب جهنم وتطفأ نارها".

كنت أستمع إليها وهي في حالة من الدهشة، ثم نسيتْ حكاية الحاج الشينوي، وأخذت تكلمني عن ابنها الذي تركته في الجبل.

قالت: "كل ليلة، في الشتاء كما في الصيف، وقد مضى على ذلك سبع سنوات، أتفقد شوارع العاصمة، أتفحص الأطفال الذين ينامون في العراء مع أمهات عازبات نزلن من الجبل في إطار قانون الرحمة، ولم يستطعن العودة إلى ديار أهاليهن خوفًا من العار والفضيحة، يخفن من الالتجاء إلى مؤسسات حكومية قد تعيدهن إلى قراهن وبيوت آبائهن بعد تحقيق بسيط، وهو ما تخافه هاته الأمهات، لذلك يفضلن البقاء في العراء، يقضين الليالي متسترات بكرتونات أو أغطية وسخة، في بلد ينام ويتغطى بالذهب الأسود والأصفر. وضع التشرد هذا جرهن إلى احتراف بيع الجسد، واستهلاك الحشيش، وأنواع أخرى من المهلوسات. ليال كثيرات قضيتُها متفرسة ملامح وجوه مئات الأطفال؛ علني أجد بينهم طفلي. أنا متأكدة أنه ينام على كرتون ويتغطى بآخر، ممددًا في شارع من شوارع العاصمة أو وهران. لم أقطع الأمل، سأجده عما قريب. إنه لم يذبح ولم يرم في النار. أريده، حتى وإن التقطته من الشارع، سأذهب إلى ضريح الحاج الشينوي في قرية بني فرطاس لأطلب منه أن يدلني على سبيل يوصلني إلى طفلي، هو من لديه الحل ومفاتيح الظلمة".

بشق الأنفس تخلصت من حفيظة، ومن رائحة الدخان والمنشطات المزعجة التي تفوح من فمها، سارت أمامي، تبعتها وهي لا تزال تتحدث عن طفلها الذي قيل لها إنه ينام بشارع اسمه شارع زبانا بوهران، فهناك مجموعة من الأطفال من الإناث والذكور بعمر ابنها قد نزلوا المدينة، ولا أحد يعلم من أين جاؤوا. "إن واحدًا منهم هو ابني، سأسميه: عبد الرحمن نسبة لحارس هذه المدينة، مدينة الجزائر، سأنذره خادمًا طول الحياة لضريح الحاج الشينوي".

دخلت على الضابط الرئيس، كما في المرة السابقة، وجدته يتكلم في ثلاثة هواتف في الوقت نفسه، إضافة إلى إعطائه بعض الأوامر المتقطعة من خلال جهاز الطالكي والكي الموضوع أمامه على المكتب. حتى لا أقطع مكالمته، سلمت عليه بإشارة من يدي ورأسي، أجابني بمثلها، ظللت واقفا وهو يتحدث. كنت أحرك ساقي الاصطناعية علها تحدث غجغجة عالية فيرحم تعبي ويدعوني للجلوس، لم يفعل. حين أنهى المكالمة الطويلة، والتي يبدو أنها كانت مهمة، ونظرًا للتركيز الذي طبعها، والتعقيبات الهادئة والطاعة، فهي لن تكون إلا مع أحد مسؤوليه الكبار. رفع رأسه إلي، ثم قال لي دون مقدمات: "عليك أن تختفي من المدينة، أن تختفي نهائيًّا، وفورًا". ثم سكت.. مشتت الذهن، أخرج سيجارة ونصبها بين شفتيه، عض عليها بأسنانه، وبدأ في البحث عن الولاعة البلاستيكية الخضراء التي كانت موضوعة أمامه على المكتب ولم يلاحظها، ثم أضاف: "يبدو أن الأمور تعقدت كثيرًا عقب دفن هذا الكلب آكل الكلاب والجيف، إننا على حافة الفتنة. لقد انقلبت البلاد من كثرة الإشاعات، الصحف والساسة والوزراء، الجميع يتسابق لزيارة الضريح ويقترح المساعدة والهبات والزكاة والعطايا". قلت له: "ماذا أفعل يا سيدي الرئيس؟ أنت تأمر وساقي الثانية لك، أقطعها من أعلى الفخذ إن أردت". سكت الضابط الرئيس قليلاً، ثم قال: "عليك أن تكون في القرية، لتراقب يوميًّا وبالتدقيق من يزور الضريح من الطبقة العليا، أهل الحل والربط: هم أو نساؤهم؟".

ها أنا ذا، مرة أخرى، أشعر بأهميتي في عين الضابط الرئيس على الرغم من البرودة والغضب اللذين قوبلت بهما من قبله، ثم أضاف:

"لقد سكن السلطة خوف أسود، فهي تخاف من أن يرحل جميع الصينيين المتواجدين في المدن الجزائرية، والذين يقدر عددهم قرابة النصف مليون إلى قرية بني فرطاس أو قرطاس أو بسباس فيؤسسوا هناك مملكة أو حزبًا أو مقاطعة تخلق لنا مشكلة تضاف إلى مشكلة الأمازيغ الذين يطالبون باستقلال ذاتي تحت قيادة المغني فرحات مهني، أو حركة الطوارق في الجنوب التي تريد هي الأخرى أن تنفصل وتأخذ البترول، وتتركنا نتخاصم على زيت الزيتون والتين البربري".

غادرتُ المخفر عائدًا إلى معهد باستور، قلت سأمر على مكتب سكورا أسلم عليها وأسمع رأيها، وهي التي أكلت قلب صيني حي، وأتفقد شتلات المفاتيح وبعدها أنطلق في اتجاه قرية الطفولة، قرية بني فرطاس أو الحاج الشينوي. سأكون شوكة في حلق ابن عمي زهير الذي لن يقبل بوجودي في القرية؛ فذلك قد يقلص من سلطته التي أنا صابُّها عليه، أنا ولي نعمته.

أقطع شوارع مدينة الجزائر، كعادتها، غاصة وحركة مرور السيارات بطيئة ومختنقة، قلت: "لا بأس، هذا الازدحام يمنحني وقتًا للتفكير في ما سأقوم به في القرية التي علي أن أدخلها هذه الليلة أو في أبعد الحدود غدًا. بيني وبين نفسي قررت أن أتخذ لي مأوى قريبًا من الضريح، سأرتب لي سريرًا بالسقيفة المجاورة لقبر الحاج الشينوي، ذاك هو أفضل مكان يمكنني أن أراقب منه كل صغيرة أو كبيرة تدور في القرية وفي الضواحي، ومن هنا يمكنني أن أرفع يوميًا تقريرًا مفصلا للضابط الرئيس".

حين وصلت العيادة، فتح لي البواب نور الدين الأعور وهو يحمل جريدة معربة بين يديه، فاتحًا على الصفحة الرئيسية مقربًا

وجهه منها حتى ليكاد أنفه يمسح ما بين السطور، قائلا لي: "يحدث في هذا البلد العجب العجاب، كنا نعتقد بأن الصينيين قادمون لبناء مليون مسكن للجزائريين، وبالتالي تحقيق برنامج الرئيس على أرض الواقع، فإذا هم يجيئون بأنبياء وخوارق. لقد حط بقرية بني سوسان أو بني فرطاس رجل صيني يدعي النبوة، وطلب من أهل القرية أن يدفنوه حيًّا حتى يستعجل الله يوم الحشر، وأنه هو من سيقود أهل هذا البلد إلى البرزخ، وهم بتلابيبه متشبثون ليدخلهم الجنة التي بها يوعدون".

لم أعر حديث نور الدين الأعور الثرثار اهتمامًا. تناولت شتلة المفاتيح، فرحت بها، منحني رنينها شعورًا بالملكية والأبهة وكأني القائم على أبواب الجنة التي يعد بها الحاج الشينوي أهالي قرية بني فرطاس. أسرعت مباشرة إلى بيت الجثث، لست أدري لماذا شعرت برغبة في استنشاق هواء حجرة حفظ الموتى، دخلتها، سرت حتى آخر صف البرادات الممتلئة جثثا، جيئة وذهابا ثلاث مرات، بعضها كان نصف مفتوح. فتحت البراد الأول فإذا بي أجدني أمام جثة رجل صيني، تراجعت، بسملت، ثم فتحت الثاني فوجدتني أمام جثة صيني أو صينية، فنساؤهم تشبه رجالهم في ساعة الموت وفي ساعة الحياة. ارتجفت وشعرت بألم في فخذي، وفتحت الثالث وحتى الثامن فإذا بالجثث جميعها بملامح صينية لرجال ونساء بنفس الشكل، ونفس الملامح ونفس الطول. لم يكن من بينهم أطفال!

ما الذي جرى؟

مشيت القاعة الباردة التي شعرت بها حارة كالفرن، جيئة وذهابًا مرتين أو أكثر. استنشقت هواء الموتى وأنا أستمع إلى موسيقى شتلات

المفاتيح المعلقة في خاصري، على الجنب الأيمن والأيسر، ثم خرجت متوجهًا إلى مكتب سكورا، المرأة التي أكلت قلب صيني حي!

اقتحمت المكتب دون أن أدق بابه، كنت أريد أن أفاجئها، معتقدًا أنها قد تكون اشتاقت إلي رؤية وجهي وسِنّي المغلفة بالذهب الأصفر، لكنني لم أجدها جالسة على كرسيها الرئاسي، كان الهاتف الثابت يدق، حين التفتُّ دخلتْ، من حركات يديها المبللتين عرفت أنها كانت بدورة المياه. قبلتني على وجهي، قائلة: "كنتَ في بيت حفظ الجثث، بك رائحة الكبريت الأصفر يا عبدو". هي الوحيدة التي تناديني باسمي مصغرًا "عبدو". لم تعلق ولم تقل شيئًا عن الجثث الصينية في الثلاجات، بل أخذت تحدثني عن عطل وقع في سيارتها هذا الصباح مما أخرها عن مواعيدها وعن العمل، ثم بدأت تكيل لميكانيكيي السيارات سيلا من الشتائم الكبيرة والقبيحة. معها الحق، فالميكانيكي الجزائري جُعل ليخرب ما هو جيد وسليم في السيارة بدلا من إصلاح أي عطب طارئ فيها.

قلت لها: "سأعود غدًا إلى قرية بني فرطاس لمعاينة ما يحدث من إشاعات بدأت تعكر صفو الحياة السياسية في البلاد. إشاعات نسجت جميعها حول آكل الكلاب الذي دفناه هناك بعد أن لم نجد له مكانًا ليرقد فيه، تحاشيًا لكلاب الصحافة الذين قد يرفعون من درجات نباحهم بمجرد وصول الرئيس الصيني إلى بلادنا، بغرض تعكير الزيارة وليفسدوا ما بين بلادنا والصين من تبادل تجاري فاق مستوى التبادل الذي بيننا وبين فرنسا".

نظرت إلي باستغراب قائلة: "لم أكن أعرف أنك غارق في السياسة إلى هذه الدرجة يا عبدو". ثم ضحكت، لاحظت لأول مرة

ميلانا في بعض أسنانها الفوقية، ميلانا شهيًّا، لذلك حاولت اختصار ابتسامتها حتى لا تزيد في الإثارة، جميل ضعف النساء الجميلات حدًّا حين نكتشف خللا ما في واحد من تفاصيل ملامحهن.

سكتت قليلا، ثم قالت تعقيبًا على حديثي عن الجثث الجديدة بغرفة حفظ الأموات: "كم عددهم، أنبياء أم رسل؟".

فهمت ما كانت تقصده، فأجبتها على الفور: الصينيون متشابهون.

وغادرت المكتب.

18

حين يمارس اثنان الجنس يكونان إما اثنين، أو أربعة، أو ستة في الفراش الواحد، على السرير الواحد نفسه!

كيف؟

يكونان اثنين فقط: إذا ما تمكن كل منهما من مسح العالم الخارجي من رأسه، محو وجه قد يسكن الذاكرة، وجه ويلح في الوجود مثل هذه اللحظة الشبقية، ويستطيع كل من منهما أيضًا إلغاء الإله الذي يعكر اللحظة ويراقبها؛ إن قتل حبيب سابق، وقتل الإله يجعل السرير لا يتسع سوى لاثنين، وتلك مهمة ليست بالسهلة، ذاك هو الحب وتلك هي الصلاة الشبقية.

يكونان أربعة: إذا ما كان كل واحد منهما يمارس الجنس وهو يفكر في حبيب فقده، ويريد استرجاعه عبر هذه اللحظة الجميلة التي تمناها أن تكون معه، فباعدت بينهما الأيام، وذاك جنس الخيانة، أو ممارسة الجنس بالنيابة.

يكونان ستة على سرير واحد: إذا ما كان كل واحد منهما يريد أن يسترجع وجهًا حبيب عرفه وضاع منه في محطة من محطات قطار الأيام، ويريد استرجاع إلهه كي يصلي له أو يستغفره أو يطلب شيئًا مثل الغفران أو الولد أو التوبة، وذلك أبأس الجنس وأبخسه.

أنتظر الملكة، بدون إله، عاريًا من كل ذكرى، حتى وجه معلمة الموسيقى ضيعتُ ملامحه!

هل جربت ذاك الاحساس الذي يملأ القلب ويرتجف له الجسد، وأنت تنتظر ملكة تنــزل في غرفتك، تقرفص كالقطة علــى مخــدة محشوة بريش النعام موضوعة على سجاد أصيل، أو تحط فوق سريرك بفوضاه المدوخة المجنونة وقد نسيت أن ترتبه قبل مغادرتك الغرفة هذا الصباح، أو تحط بين يديك كطائر ضاع من جناحية طريق الســماء فدخل فجأة من نافذة مفتوحة لتجده مرتجفًا مبللا أمام مدفأة وقنينــة نبيذ ممتاز ومائدة ممدودة وموسيقى، تحيطها شهوة حكاية مدلاة على أطراف الليل حتى مطلع الفجر!

الملكة قادمة.

نظرت إلى ساعة الحائط، هي الساعة التي أهدتني إياها مُدرّســة الموسيقى، وضعَتْها في حقيبتي قبل رحيلي، قائلة: "ستتذكر عــزفي، وتستعيد قيلولاتنا كل دقيقة وكل ثانية تهرقها في ذلك البلد البعيد، لا موسيقى بدون قيلولة وبدون عبث بالأعضاء الحساسة الثمينة!".

أحب هذا الساعة الجدارية كلاسـيكية الشــكل، بأرقامهــا الرومانية المتناسقة، وأستأنس في الليــالي البــاردة، وفي القيلــولات الصيفية برقصات عقارها الطويلة ذات الرؤوس التي تشبه رأس ريشة الحبر المدرسية، إنها وهي تتحرك من رقم إلى آخر، تنتقل من شهر إلى آخر، ترحل من عمر إلى آخر كأنما هي تجري نحو موعد آخر مــع الملكة. تحدث في قلبــي وفي أذني صوتًا يشبه حفيف أجنحة فراشات الضوء، فأشعر بحنين لمعلمة الموسيقى التي ضيعتها، وأبحث عن حضن دافئ، أو مرفأ آمن في هذه المدينة العنيفة الراكضة دون توقف.

حين تكون الملكة قادمة بجلالها وجلالتها لتنــزل ضيفة علــيّ، فمن يا ترى أكون أنا؟

الأمير أم الخادم؟

الوسادة أم الرأس الحالم على الوسادة؟

أمي التي لا أعرف هل أحبها أم أكرهها، والتي ألقت بأختي في برميل الزبالة على الرصيف، والتي وضعت لي جناحين على الكتفين، كانت حين تنتظر ضيفًا عزيزًا، وقبل وصول هذا الأخــير بســبعة وعشرين دقيقة بالتمام والكمال، تفتح كتاب الروح، كتاب بــوذا، وتشرع في قراءة بعض ما جاء فيه من آيات وحكم بصوت غنــائي قريب من التمتمة، ربما لم تكن تفهم من معانيه الكثير ولا القليــل، ولكنها كانت تشعر بأن عليها أن تقوم بذلك احترامًــا واحتفــالاً داخليًّا بزائر عزيز. أنا هذا المساء أيضًا، مساء الخميس الجزائري، بعد أن شربت كأسين كبيرتين من العرق الصيني، فتحت الكتاب وبدأت أقرأ، لم يكن كتاب بوذا؛ لأنني لست متدينًا، ولكنه كتاب **الجسد، سجادة صلاة** لــ لي يو. كنت أشعر وأنا أقرأ بأنني أشــبه طــائرًا خرافيًّا يحلق داخل ثنايا الحكايات الإيروتيكية العجيبــة والجريئــة، مرات.. بعض الكلام لا نحتاج لفهم مضمونه، إنه يتموقــع خــارج الفهم والإفهام، ومع ذلك يكون مثيرًا وقويًّا ومؤثرًا.

أقرأ في الكتاب فتضيع مني بعــض تفاصــيل الحكايــة، عقلــي وإحساسي مأخوذان بموسيقى عقارب الساعة التي تشبه حفيف أجنحــة الفراشة الضوئية الضائعة أو على ضفاف الاحتراق. بين الفينة والأخرى، أسرق النظر إلى أرقامها الرومانية في انتظار الملكة التي ستطل دون شــك متأخرة بعض الوقت، هكذا أتوقع، فإيجاد مكان لركن السيارة في هــذا

الحي ليس بالأمر الهين، أتصورها تقوم بدورة أو دورتين حول البناية التي تعود إلى الزمن الكولونيالي في انتظار أن يفرغ مكان ما.

قضيت ثلاث ساعات أو أكثر في تحضير أكلات صينية من صنع يدي. أحب الطبخ والحلاقة، أجد فيهما كثيرًا من التأمل والفن. غادرت المكتب الساعة الرابعة وأربع دقائق، بعض الأطباق أعددهما البارحة وقبل البارحة أيضًا، كلما طبخت أكلة كنت أبحث عن طريقة لإثارة دهشة الملكة، من خلال الشكل قبل المذاق، في الصين نأكل بالعين أولاً. أعرف أن الملكة ليست أكولة، مع ذلك علي أن أكون في مستوى الضيافة كما تمليها ثقافة المائدة، عليّ أن أضع على الطاولة ثلاثة وعشرينا صحنًا من الصحون الصغيرة المزوقة برسومات الطواويس والطيور الخرافية الأخرى. لماذا ثلاثة وعشرون؟ لست أدري، هكذا كانت تتصرف أمي حين تستقبل أبي العائد من غيبة؛ كي تحتفل به حول المائدة قبل احتفال السرير.

المائدة سرير عين العاشق!

طول مكوثي في البيت قبالة أمي، علمني -وبطريقة عفوية- تحضير كثير من الأكلات. قلت لها مرة وأنا أنظر إلى التليفزيون تارة، وأتابعها تتفنن في طبخها وترتيب صحونها على المائدة الطويلة تارة أخرى: "أتمنى أن أكون حلاقًا أو طباخًا". غضبت لكلامي هذا، وعنفتني بكلام قريب من الشتم قائلة: "أنا التي كنت أتمنى أن أراك وزيرًا، أو مسؤولاً كبيرًا في الحزب، أو طيارًا في محطة الاكتشافات الفضائية، أو جمّاع ثروات في إفريقيا، ها أنت تريد أن تكون خادمًا، مقدم أطباق بيدين: واحدة في العجين، وأخرى في الأرز المنقوع، أو بأصبعين في عيني مقص يراقص قمل شعر الرؤوس".

سكتُّ، وعدت لمتابعة فيلم وثائقي عن سور الصين العملاق.

أحب هاتين المهنتين: الحلاقة وفن الطبخ، وأفضلهما على غيرهما من المهن الأخرى، لا لشيء إلا لأنني كنتُ -ولا أزال- أهيم بالروائح العطرة؛ بعطور حلاق القرية البسيطة الدافئة الشعبية، وبعطور البهارات في المطابخ الشرقية القوية النافذة.

تأخرت الملكة، أكيد أنها تدور دورة أخرى، رابعة أو خامسة، حول البناية بحثًا عن مكان كي تركن فيه سيارتها. أفتح النافذة، أطل على الشارع من الجهة الجنوبية، إنه مضاء بشكل جيد. سقط الليل بسرعة، من هنا أراها تكلم حارس الموقف الأبكم، من إشارات يديهما، فهمت أنه يكون قد عثر لها على مكان.

عدت إلى الصالون، رائحة زكية تعبق من الزربية التي أفضل الجلوس عليها بدلاً عن الكراسي.

المصعد معطل، الأمر ليس بجديد، إذن على الملكة أن تتسلق السلالم حتى الطابق الثالث، تسع وخمسون درجة، أعدها يوميًّا عند النزول وعند الصعود، هي عادة تتبعني منذ الطفولة. لقد تدربت على الحساب منذ المدرسة الابتدائية عن طريق العدّ المتكرر لسلالم المدرسة، وسلالم البيت، وسلالم السوق المركزي، وسلالم العمارة الضخمة التي بها مقر الحزب.. أرمي بسمعي نحو مدخل العمارة، أسمع صوت خطواتها وأنفاسها وهي تصعد السلم درجة درجة، كأنما تقفز فوقها اثنتين اثنتين، قلبي يخفق. أعود إلى الصالون، أنظر إلى عقارب الساعة، موسيقى حفيف أجنحة الفراشة اختفت، ومعها اختفى رأس الريشة المدرسية.

فتحت الباب وهي لا تزال في الطابق الثاني، استقبلتها عند عتبة شقتي في الثالث بقبلتين على الوجنتين الساخنتين المـوردتين. قالـت وهي تخطو إلى الداخل: "عفوا على التأخير، قضيت نصف ساعة أو أكثر وأنا أدور حول العمارة بحثًا عن مكان أركن فيه السيارة، أزيد من مليون ونصف مليون مركبة متواجدة بالعاصمة، وهي المدينة التي لا تتسع لأكثر من ثلاثمائة ألف سيارة، هذا جنون استهلاكي".

تخلصت من معطفها بحركة رقيقة، تناولته من يدها وعلقته على المشجب اللوحي الموجود خلف الباب عند المدخل. جلستْ علـى وسادة مرمية على الزربية إيرانية الصنع، ألقتْ بجانبها حقيبتها اليدوية التقليدية المصنوعة من جلد بني اللون، حقيبة عادية وبسيطة، دون أن تطلب شيئًا. قدمت لها كأس ماء دافئ كنت قد سخنته حتى غـلا، وتركته عشرين دقيقة يبرد قليلا. مثلها أنا الآخر، تناولـت كأسًـا، شربته دفعة واحدة في حين ظلت هي تشربه كما يُشرب الشـاي. كنت أراقب حركات شفتيها وهي تشفط المـاء جرعـة جرعـة، فتحدث فيّ زلزالا يابانيًّا بارتدادات عجيبة.

بحرقة، دون مقدمات، عادت لتحكي قصة ابنتها ليليا التي تبلغ من العمر ستة عشر عامًا وبضعة أشهر، ولم ينبت لها نهدان يناسـبان عمرها ولم تجرب ألم العادة الشهرية، حيث أنها أصـبحت معقـدة نفسيًّا تميل إلى العزلة، تهرب من لقاء صديقاتها في الثانويـة اللـواتي تخشى أحاديثهن عن دمهن وآلامهن وعن صدورهن التي انتفخـت: "قررتُ أن أعرضها على طبيب نفساني، شاب رقيق، كثير الابتسـام وقليل النظر، وإذا هو -ومن الجلسة الأولى- حطّ عينه علي أكثر من اهتمامه بوضع بابنتي ليليا، قائلا: لا تقلقي يا سيدتي، أمرها بسـيط،

علامات الأنوثة واضحة عليها، متأخرة قليلا، إنها ستستعيد مظهرها الطبيعي بعد أن تقيم العزاء لشيء في قلبها.

ثم بدأ يسألني عن طبيعة علاقتي بزوجي. حكيت له انفصالنا الناتج عن فقدان شخصيته، وأنه يؤمر من أمه ولا يبادر بأي شيء إلا إذا سمحت له بذلك، حتى ممارسة الجنس كان لا يقوم بها إلا إذا أخذ منها الموافقة، وكانت هي من تشتري له الواقيات الجنسية، وتعدها واحدة واحدة، كي تعرف تفاصيل سريرنا".

كنت أستمع إلى الملكة وأنا أفكر في بوذا، أو في معلمة الموسيقى، لست أدري لماذا أفكر، وفي مثل هذه الساعة، في بوذا وأنا الذي لا دين لي وفي معلمة الموسيقى التي نسيت ملامح وجهها نهائيا؟

"قال لي الطبيب النفساني: ستتخلص ليليا من أزمتها بعد أن تقبل بواقع أبيها الذي فيه من المؤنث أكثر من المذكر، هو الحال الذي شوش عليها نموها الجسدي الطبيعي، فحدث لديها نوع من رفض دخول المنطقة الأنثوية التي يوجد فيها الأب والأم.

قبلتُ بما قاله الطبيب النفساني، وبدا لي توصيفه لحالة ليليا قريبًا من تخميناتي، ومتطابقًا مع بعض هذياها الليلي الذي هو مرآة خوفها من الرجال.

في وضعية نمو جسدية متوترة ومختلة، كنت أصنع لليليا نهدين من الإسفنج وأضع لها حمالة الثدي، أشدها على صدرها الصغير، وكانت ترتاح لذلك؛ لأنه يخفف عنها النظرات القاسية لزميلاتها المراهقات، بنات يمتلئن حيوية، وأجسادهن تتفجر يوما بعد يوم أنوثة".

كنتُ أتابع حكايتها من خلال حركات شفتيها، وفمها الصغير الذي ينفتح وينغلق بحكمة وسحر.

ابتسمت الملكة ابتسامة عميقة وحزينة، وكأنما أرادت أن تغلق ملف حكاية ليليا التي كلما التقينا تعيد روايتها وبنفس الحرارة، قائلة، وقد غيرت الموضوع نهائيًا: "سلم العمارة يعبق برائحة البهارات الشرقية، من مدخل البناية وحتى باب شقتك، ما الذي يحصل في هذا الحي؟".

قلتُ لها، وقد جلستُ قبالتها غارقًا في حياء هجم علي من كل جهة، وقد أثارني عطرها الدافئ: "جميع سكان البناية صينيون، عدا ساكن الطابق الأرضي، وأعتقد أنه هو الآخر يستعد للرحيل. لقد اشترى الصينيون جميع الشقق، فكما في باريس وواشنطن ونيويورك ولندن وغيرها من مدن العالم الكبيرة هناك أحياء خاصة بالأقلية الصينية، فقد أصبح لصينيي الجزائر حي خاص بهم. وقد بلغ عددنا رقمًا خياليًا لا تستطيع الدولة المستقبلة الإفصاح عنه. إنها أضحت قضية سياسية، إنني أعتقد أننا سنشكل في آفاق السنوات العشر القادمة بلدية خاصة بنا، يديرها رئيس صيني منتخب".

كنت أتحدثُ، وهي تنظر إلي دون أن ترفع عينيها عني، ثم علقت: "أصبحتْ عربيتك أحسن من عربيتي. على كلٍ: من يتكلم الصينية قادر أن يتحدث بأي لغة ولو كانت السنسكريتية".

ابتسمتُ..

قلتُ لها: "إنني أتعلم الأمازيغية أيضًا، وهي لغة يسيرة ولا تحتاج لمجهود خاص لإتقانها. اتفقت مع زميل لي اسمه إيدير آيت مسعودان، مهندس معماري ومناضل في الحركة الثقافية البربرية، من قرية بني يني أن يعلمني كل يوم ست كلمات جديدة، بحساب بسيط سأكون بعد سنة ونصف السنة قد تعلمت هذه اللغة دون أي مشكلة". لاحظتُ

علامات الاستغراب على ملامح وجهها من فضولي هذا في تعلم اللغة الأمازيغية، ثم علقتْ: "النظام لم يجرؤ على رفع مقامها إلى مرتبة لغة رسمية، وأنت الصيني تأتي من بلاد بوذا لتتعلمها، مؤمنًا أنها تؤدي لك خدمة اجتماعية وتواصلية واقتصادية ونفسية أيضًا؟!".

قلتُ لها: "أنا لا أحب السياسة ولا أريد الخوض فيها، وتعلُّمي اللغة الأمازيغية هو طريق لمعرفة صادقة وعميقة لهذا البلد الذي نعيش عليه وفيه، وننوي المشاركة في بناء اقتصاده وتاريخه المستقبلي".

تمنّته لو قال: "أنا أتعلم الأمازيغية كي أتسلل إلى مسامات جسدك، ونبرات قلبك يا ساكو".

لم يقل شيئًا من ذلك، وتذكرتْ رسالة صديقتها ليندا الحواس وتعليقاتها على رغبتها العارمة في تعلم الصينية، لغة للشيطان.

ثم بدأتْ تحدّثه بالأمازيغية، وتركا العربية جانبًا، معلقة بأن أباها كان يمنعها وأخواتها وإخوتها من الحديث بالعربية بمجرد تخطي عتبة المنزل؛ ففي الأسرة لا حديث سوى بالأمازيغية:

"... كان أبي يصاب بنوبة عصبية حين يسمعنا وأخواتي نتحدث بالعربية، وكانت أحلك أيامه هي أيام الامتحانات المدرسية، تلك التي نراجع فيها دروسنا فنخرج كتبنا وكراريسنا وكلها مكتوبة بالعربية، كان والدي يغلق على نفسه في غرفة لا يخرج منها إلا بانتهاء فترة الامتحانات والاختبارات، وكنا نرتاح لاختفائه؛ لأن في ذلك حرية لنا. كان والدي ضد هذا الخيار اللغوي السياسي الذي يمنع أبناء الوطن من لغة كالفرنسية التي غنمناها من الاستعمار، أو يحرمهم من اللغة الأمازيغية التي هي لغة البلاد الأصلية، لغة الأجداد".

اغتنمتُ فرصة ردها على مكالمة هاتفية، فهمت بأنها من ابنتها ليليا، فوضعت قرصًا مضغوطًا في جهاز الستيريو، وصعد صوت متناغم لمجموعة صوتية لأوبرا بكين وهي تؤدي أغنية "قم ترى" الأندلسية الشهيرة، كانت تستمع لابنتها، وهي تتابع الأغنية محركة برأسها ذات اليمين وذات اليسار في توحد جميل، وكأنما سبق لها وأن استمعت إليها. حين أنهت المكالمة وأعادت الهاتف إلى قلب الحقيبة اليدوية، طلبت مني إعادة الأغنية مرة أخرى. بعد انتهائها علقت قائلة: "هل تعلم أن عنوان هذه الأغنية "قم ترى" رفعه حزب جبهة القوى الاشتراكية شعارًا لحملته الانتخابية في النيابيات الأخيرة؟".

شربنا كأسًا من مشروب كحولي صيني قوي، ثم أخرى.

تناول يدي وبدأ يقرأ شعرًا، ثم غنى لي وأخذني بين أحضانه، ورقصنا فوق الزربية التي لا تصلح سوى للصلاة أو الحب أو الرقص.

ثم كأسًا أخرى، شعرت بأنفه يتشممني على مستوى الرقبة. أنفاسه تثير رعشة في ركبتي، وسقطنا على الزربية التي بألوانها ورسوماتها تشبه قطعة من الجنة، وصلينا. وشعرت بجسد دافئ وعنيف وخشن فوقي.

كان الصيني الصغير كبيرًا كبيرًا كبيرًا!

19

أشعر بدوار أو دوخة في رأسي وأنا أدخل مكتبـــي، أفـتح النافذة على مصراعيها، هواء بحري ناعم يتسلل بصـعوبة، شـراب البارحة الذي لم أذق مثله من قبل قد يكون هو السبب، خاصـة أن تناولي للمشروبات الكحولية القوية نـادر، فأنـا لا أشـرب إلا في المناسبات أو في الساعات التي أشعر فيها باليتم، يتم من نوع خاص، كلما تذكرت زوجي السابق وهو بين ذراعي أمه شبه عاريين أرغب في الشراب، أرغب في السكر، أرغب في الهروب من هذا المنظر.

أبحث عن أحضان غريب كي أطرد غربتي!

طلبت فنجان قهوة مركز، جاءني به عبد الرحمن وتمنيت ألا يأتي به هو، فأنا لست قادرة على الاستماع إلى حديثه الطويل عن كـل شيء وعن لا شيء، عن تيتو النقابـي وعن يونس الشينوي وسيارته الرباعية الدفع من نوع زوطي الصينية، والتي يقال إنها تشتغل بالمـاء والهواء (يروج البعض أن الصينيين سيسوّقون في السـنوات القليلـة القادمة سيارة تسير بالهواء، تتنفس كالإنسان، لها رئة ولهـا قلـب وعينان)، وعن الجو الذي أصبح حارًّا بين عشية وضـحاها، وعـن علاقة منظفة بيت الجثث الآنسة سهام بوزيـدي بأحـد العمـال الميكانيكيين المكلفين بورشة تصليح أجهزة التبريد، وأنهمـا فوجئـا نائمين في وضعية مخلة بالحياء بين الأموات النائمين في ثلاجاتهم، وأنه

رفع تقريرا من عشرين صفحة عنهما إلى المدير ونسخة منه إلى الوزارة الوصية.

أحاول أن أستعيد تفاصيل سهرة البارحة صحبة يونس الشينوي، وإذا بضباب يعبر دماغي فيحجب عني عسل تلك الليلة التي قضيتها ممددة على سجاد أصيل، على قطعة من الجنة بطواويسها وأشجارها المثمرة وخمرها وعسلها وغنائها، وكنت الحورية الوحيدة، وكان يونس الوحيد معمر الجنة من الرجال.

الرجال الجزائريون لن يدخلوا الجنة لأنهم يكرهون النساء. من يكره المرأة أو يحتقرها أو يشتمها لا طريق له إلى الجنة، أهل الجنة ستر تاحون دون وجود للجزائريين.

ما جذبني إلى يونس، منذ الوهلة الأولى التي رأيته فيها، هو الغموض أولا؛ فالصيني مقفل الشخصية، أبوابه مشمعة ولا نوافذ له، كل شيء مسدود بقفل من حديد، لا مفاتيح بين اليد مع أنك تعتقد بأنها جميعها في جيبك. أسوار عالية مشيدة حول هذا الهدوء الذي أتصوره يحمل علامات العاصفة القادمة في كل حين، تسونامي ستجرفني، أو أنا التسونامي التي سأجرفه، أزعزعه، أزلزله.

يقال، قرأت ذلك في كتاب لا أذكر عنوانه، إن الديانة الصينية (التي حاربتها اليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام ثم الشيوعية، ولم تستطع أي واحدة من هذه الديانات أن تهدد وجودها، بل ظلت متمكنة من قلوب المؤمنين) قد أولت عناية خاصة لتعليم أتباعها كيف يجب أن تُمنح المرأة التي نقاسمها السرير جنة المتعة، وبستان اللذة الجسدية. أنا لا أعرف سوى القليل عن هذه الديانة التي يدين بها المليار أو أكثر، والتي كثيرًا ما تساءلت في شأنها: "لماذا الرسول

محمد نبــي الإسلام جاء على ذكر الديانات السابقة عن الإســلام كاليهودية والمسيحية، و لم يذكر الديانة الصينية التي كان أتباعها أكثر بكثير من أتباع الديانتين المذكورتين؟".

حين أفكر في يونس الشينوي، أتساءل: "هل هو الآخر يفكــر فيّ كما أفكر فيه؟ إن هذا الرجل الصغير يكبر بســرعة في قلبـــي ليصبح على صغر قامته شجرة تغطي غابة الرجال الكبار جميعهم. إنه شيئًا فشيئًا يسكن كريات دمي!".

ثم أطرد سؤالا يخيفني، وأشرب قهوة عبد الرحمن وقد بردت:

هل حقيقة ما يقال عن الرجل الصيني، إنه يعبر حياته منشــغلا بعمله، وبمردود عمله، وبسيد عمله، وبرأسمال عمله، وبساعة عمله، وبمنافسه في العمل، أكثر من انشغاله بمشاغل القلب الذي حَطَّبه المرأة المعشوقة والعاشقة؟ هل إن هذه أشياء تعد صغيرة وتافهــة في حيــاة وفلسفة الصيني، وأن العمل هو كل شيء، وهو آخــر شــيء وأول شيء يجب أن يضحي الإنسان لأجله؟

حين مسك يدي أول مرة، وأسكنها راحتي كفيه الصــغيرتين ذات الأصابع الناعمة النابتة بانسجام على أطراف الكف، زُلزلــتُ. كان متعثرًا في خجلٍ بادٍ على ملامح وجهه، وقف بقامة أقصر مــن قامتي بأزيد من عشر سنتمترات، مرحبًا بــي دون أن يرفع عينا إليّ. كان ذلك في مقهى -مطعم المراح (Le Patio) الذي اختاره، وقــد سبقني إلى الموعد بنصف ساعة أو أكثر. نظر هو إلى بســتان عــيني الغارقتين في خضرة قلقة، نظرت أنا إلى الحذاء الصغير الململمع الــذي يلبسه في رجليه، وقد بدتا لي كرجلي لعبة عروسة مــن المطــاط، ثم قلت بيني وبين نفسي: "هل ينطبق على الصيني ما كانت تقوله جدتي

وتكرره في كل فرصة، وهي تُعيّر عمي ساخرة منه: إن الرجـــل ذا الرجلين الصغيرتين لن يكون إلا بعضو جنسي أصغر لا يبهج المرأة في سريرها؟".

أحب القهوة الإيطالية المعصورة التي يحسن صـــناعتها بامتيـــاز صاحب محل المراح.

بعد احتساء فنجان القهوة، وقد تشعب الحـــديث بنـــا غربًـــا وشرقًا، اكتشفت بأن يونس الشينوي يحـــب الأدب والتكنولوجيـــا والموسيقى والرياضيات. وحين طلبت منه بعـــض المعلومـــات عـــن الروائي الصيني مو يان الحائز على جائزة نوبل لـــلآداب، أفـــاض في الكلام وحكى لي كثيرًا من قصصه ورواياته، والتي قال إنـــه قرأهـــا حين كان في الثانوية، وأنها تنتمي إلى الكتابة الـــتي تلاحـــق الحيـــاة الاجتماعية والأخلاقية والعادات والتقاليد الصينية، وهـــي كتابـــات كلاسيكية وشعبية.

لم أرد أن أقول له إنني قرأت له روايتين هما: **بلـــد الكحـــول، وثديان جميلان، ردفان مثيران**، وأن لي مكتبـــة في الآداب الصـــينية بدأت تأسيسها منذ عرفته أول مرة، حين جاء بصحبة ضابط الشرطة لمعاينة جثة الصيني الذي عثر عليه مقتولا في بناية قيد الإنجاز بضواحي العاصمة، هكذا قيل.

دق هاتفي المحمول، عرفت على التو ودون أن أفتحه أن المكالمة من ليليا التي تكون قد عادت إلى المنـــزل من متوســـطتها، وهـــي تريد أن أخلصها من الثديين الصناعيين الاسفنجيين، ومـــن حمالـــة الصدر. كتبت لها على وجه السرعة رسالة من كلمـــتين: "أنـــا في الطريق (En route)".

بمجرد أن افترقنا، دخلت مقهى للإنترنت غير بعيد عن المحل الذي كنا جالسين به. طلبت جهازًا، وفتحت على محرك غوغل، وبدأت في البحث عن مقالات تتحدث عن علاقة الصيني بالجنس والمرأة والجسد. وفي كل ذلك كنت أبحث عن جواب لسؤال أساسي: "هل يملك الرجل الصيني القوة والفعالية المطلوبتين والقادرتين على إخماد نار الجنون على سرير مرأة جزائرية بربرية؟ هل سيأكلها أم ستلتهمه؟". كنت أقرأ بسرعة وعيني على شاب ملتح يجلس أمام جهاز بجواري، كان غارقًا في زيارة لمواقع دينية وجهادية. كنت أخشى أن يرمي بنظره تجاهي فيجدني أقرأ بعض المقالات التي بها صور ورسومات لأجساد عارية لنساء ورجال صينيين ويابانيين في وضعيات جنسية مختلفة ومثيرة.

أقلقني وجودي في مقهى الإنترنت الغاص بالشباب المتحمس لكرة القدم، وللعلاقات مع النساء الأوروبيات، وللمواقع الخاصة بالفتاوى التي يديرها نجوم الدين وتجار الإسلام من المصريين والسعوديين واليمنيين.

على عجل، من خلال زيارة خاطفة لبعض المواقع والنوادي، تأكد لي بما لا يدع للشك طريقًا إلى قلبي أن للصيني عضوًا جنسيًّا صغيرًا؛ فشعرت بما يشبه الخيبة. لم تكن القضية مزاحًا كما هو الشأن في كلام جدتي لعمي. كآبة سكنت قرارة قلبي ونزلت حتى بطني. أنا التي لا تحب الصغير، أريد في الرجل الذي يقاسمني الفراش أن يكون له قضيب كقضيب الكلب أو الحمار، وهما الحيوانان اللذان أشغف بحجم قضيبيهما، وفي ذلك أنا أغار من الكلبة والأتان.

ولأن الصيني لا يحلق شعر العانة ولا يعرف هذه الثقافة أصلا، فإن قضيبه الصغير يكاد لا يرى، ضائع في كثافة الشعر سواء أكان في حالة الانتفاض أو في حالة الخمود.

قبل أن أغادر مكتبي دخل عليّ رئيس النقابة بمعهد باستور الذي أعمل به منذ ست سنوات تقريبًا، طالبًا مني السماح له بنسخ بيان نقابي داخلي على جهاز التصوير. العم تيتو (هكذا كنا نناديه على اسم الرئيس تيتو، لا أحد يتذكر اسمه الحقيقي) أحد التروتسكيين الذين لا يزالون يؤمنون بأن العالم، على الرغم من سقوط جدار برلين، سيعود إلى الاشتراكية وإلى الشيوعية، وأن الدين أفيون الشعوب، وأن الاتحاد السوفياتي عائد لا ريب في ذلك، يحب بوتين الذي كان قائدًا للكاجيبي المخابرات السوفياتية، ويعتقد بأنه شيوعي متخفٍّ في ثياب رأسمالي، يبحث عن ربح الوقت لاستعادة زمام الحرب والمبادرة من دول الاتحاد الأوروبي المتكالبة على جمهوريات الاتحاد السوفياتي ومجمل جمهوريات المعسكر الشرقي سابقًا، والتي تمّ ابتلاعها واحدة بعد الأخرى من خلال سلسلة مطاعم الماكدونالد وقناني الكوكاكولا مختلفة الأحجام، وأن بوتين سيؤسس لكتلة اشتراكية جديدة قادرة على توقيف الزحف الرأسمالي الوحشي، وأنه سيتعاون مع الصين التي تحقق نموًا تجاريًا واقتصاديًا وماليًا عالميًا كبيرًا ومتصاعدًا غير مسبوق، وبدأ في كيل جمل الإعجاب بالصين وبالنموذج الصيني في النمو وفي الخروج من التخلف نحو الحداثة العادلة. اغتنمت فرصة وصوله إلى الصين، وقد نسي البيان الذي جاء لأجل نسخه، فقلت له وأنا أرغب في إثارته كي يخرج ما عنده من معلومات عن هذا البلد التنين: "إن مأساة

حياة الصينيين ناتجة عن انعدام الحرية الفردية، فالجنس في الصين يعد من الطابوهات، وهو في عين السلطة والنظام نفاق أخلاقي، لذا فالصينيون غير أسوياء في حياتهم الجنسية، ونحن نلاحظ ذلك في مدينتنا هذه التي هجمت عليها قوافل العمالة الصينية. إننا لا نلاحظ سوى الرجال دون نساء، فهل من يصل إلينا من الصينيين هم من المِثْليين المغضوب عليهم، والذين يرمى بهم في أوراش البناء كبديل لفترة سجن محكومين بها؟ وإذا كان العكس، كيف يحلون مسألة الجنس لديهم؟". نظر تيتو إلي مستهزئًا بمنطقي، قائلا: "اسمعي يا ساكو، إن ثقافتك ومنهجك في نقد الثقافة الصينية ينتميان إلى الثقافة الغربية، واعتمادك هذه المقاربة يوصلك إلى نتيجة خاطئة، فالصيني يعيش الجنس على طريقته، وهو في ذلك مبتهج وقادر على إبهاج المرأة؛ لأن الجنس بالمفهوم الغربي قائم على منطق وجنون وثقافة مختلفة المرجعيات". سكت قليلاً ثم أضاف، وقد ظهرت عليه بعض ملامح الخجل: "إن النساء الأوروبيات يبحثن اليوم على علاقات جنسية مع الصيني والياباني أكثر من بحثهن عنها مع الإفريقي أو العربي كما كان ذلك في القرن التاسع عشر والعشرين. لقد انتهت خرافة الفحولة العربية والإفريقية بالنسبة للمرأة الأوروبية والفرنسية على وجه الخصوص. إن إقبال الأوروبيين والأمريكيين واحتفالهم بالأدب الياباني والصيني والكوري يؤكد على أن الذوق الجمالي تغير، وأن شيئًا ما يحدث في عقلية الغرب تجاه الشرق، أعني أقصى الشرق حيث مطلع الشمس. الصين هي صباح العالم الجديد".

سكت ثم أضاف، وقد ارتسمت ابتسامة على طرف فمه، وهو يشعل سيجارة دون أن يطلب مني الإذن في ذلك: "وأنا متأكد

يا ساكو بأن الجزائريات، لن يتأخرن عن ذلـــك. ســـتلهث المـــرأة الجزائرية بحثًا عن الرجل الصيني، وفي العشرية القادمة ستتسابق النساء للزواج بالصينيين، وسيتكون لنا في ربع القرن القادم جيـــل بعيـــون صينية وأقدام جزائرية. الصينيون قادمون من أرحام نسائنا".

أعجبني حديث النقابـــي تيتو كثيرًا، ولأول مرة أشعر تجاهـــه بكثير من الود، وأثار لدي كلامه فضولا أكبر ورغبة في اكتشاف ما يدهش المرأة الأوروبية في الصيني، وها هي الفرصة متاحة أمامي. لقد أرسلت لي السماء شينويا فيه كل المواصـــفات الشـــرقية، فيـــونس الشينوي شاب لطيف، ومثقف ومهندس ورئيس فرعي لشركة صينية عملاقة في البناء، وربما أكثر من ذلك فهو يحبني، الحب بمنطق الصين مسألة غامضة كحروف اللغة لديهم! أشـــعر وكـــأنني بحاجـــة إلى وجوده، مع ذلك يتعبني هذا الشعور، يؤرقني، يخيفني.

صيني يسكن قلبـــي!

كيف يسكن صيني قلب جزائرية، من أي طريق تسلل إليه؟

منذ أن عدت إلى بيت الطفولة مطلقةً، وأمي تلاحقني كشرطي لا تنام لها عين. تراقب سلوكي، لباسي، أحمـــر الشـــفاه، ســـاعات خروجي ودخولي، هاتفي، كعب حذائي.. وكأنما بدأت تستشـــعر بداية تحليقي نحو الشرق البعيد.

لماذا فتحت ممرًّا للصيني كي يتسلل إلى قلبـــي؟ أبحثًا عن عـــالم بطعم غير جزائري؟ كرهت الرجـــل الجزائـــري، أتعـــبني الرذكـــر الجزائري، ، قاتلة برودته، ثقيلة ذكورته، إنه خشن ومنافق وكـــذاب وأناني لا يحب في المرأة سوى تلك التي تخدمه، المرأة إما عبدة أو أم. منذ اليوم الأول لمجيئه إلى الحياة يُنصب أميرًا على مملكة من الـــوهم،

يتم تنصيبه من قبل أمه وجدته وأخته وعمته وجارته، وتظل صـورة الأمير تلاحقه في فشله كما في نجاحه الفاشل، فيعيشها وهمًا. المـرأة التي في سرير الرجل الجزائري ليست أكثر من صورة أمه، عليهـا أن تخدمه، تغسل له ثيابه، وتلد له ما يحفظ ويحافظ على اسمـه واسـم سلالته، سلالة من شقاء.

مللت.. كرهت.. انفجرت..

ممارسة الجنس مع الرجل الجزائري هي ممارسة التابعة والمتبوع، الجار والمجرور، المهيمِن والمُهيمَن عليها، السفاح والقتيل. في سـرير الرجل الجزائري تتجلى صور الطغيان والاستبداد في أعلى درجـات الهمجية، حتى في مثل هذه اللحظات التي من المفـروض أن تكـون حميمية يظل أنانيًا ومسيطرًا لا يسمح لجسد شريكته أن يحلـق نحـو السماء ليلامس أطراف جنة الرغبة. وأما الشـبق في رأس الرجـل الجزائري فهو حالة ذكورية فقط، وإذا ما أظهرت المـرأة شـريكة السرير قليلا من لهفها وجنونها في لحظة الممارسة فهي في عينه عاهرة من بنات الرذيلة. المرأة التي تصل بجسدها منـزلة الشبق امرأة بائعـة الهوى، هي في رأس الجزائري قحبة.

لهذا فتحت بابًا كي يتسلل الغريب الصيني إلى قلبـي.

إن في ممارسة الجنس-الحب مع الغريب، الغريـب الغريـب، تتحقق الحرية الكبيرة، فيها اكتشاف بستان الجسد المثنى، عسل جسد الأنا وشهْد جسد الآخر، اكتشاف فيه دهشة لا تشبهها سوى دهشة كريستوف كولومب وهو يطل على شواطئ القارة الجديدة. ممارسة الجنس-الحب مع الغريب هو التخلص من اللاوعي المريض الـرابض في الذاكرة وفي الإحساس، لا وعي مشكل تحت أعباء الدين بتعاليمه

الصارمة الباردة الزاجرة. ممارسة الجنس-الحب مع الغريب الغريب هو التحرر من الثقافة الذكورية التسلطية التي تجعل المرأة في مرتبة المذعنة، الخانعة، إناء للتفريغ. هو الانفكاك من سلم الأخلاق المنافقة التي تتستر بالطهرانية الفاسدة، والتحرر من العادات التي تكرس فكرة العالي والداني في أعمق عملية حميمية وهي الجنس، والتي قال عنها أحد المتصوفة واعتقد أنه ابن عربي: "الجنس صلوة".

حين يتحرر الجسد من الدين والأخلاق والعادات وما تراكم منها فيه من ثقافات القمع والحجر والتهميش يعود الإنسان، ذكرًا كان أو أنثى، إلى الطفولة المدهشة، هي لحظة الالتقاء بالإنسان في الإنسان.

الذهاب في البحث عن مغامرة عاطفية جسدية مع الغريب، الغريب الغريب، هي مواجهة الغربة التي نعيشها في هذا الزمن القاسي. البحث عن الغريب هو بحث عن بداية اكتشاف العالم بعين الإنسان، لا بعيني الرجل الجزائري.

لست أدري لماذا حين أفكر في يونس الصيني أتذكر ذلك التلميذ الذي قبلني أول مرة ونحن نستقل حافلة النقل المدرسي، تلميذ لا أعرف اسمه ولا حتى شكله، خطف قبلة مني ونزل مسرعًا. عسل تلك القبلة لا يزال في فمي حتى الآن، وقد مضى على تلك الواقعة أزيد من ربع قرن.

أأنا التي خطفت منه القبلة أم هو الذي سرقها؟

لماذا حين قابلت يونس الصيني تذكرت ذلك التلميذ الذي سرق قبلته وهرب؟ كان خائفًا من العيون التي تراقب النوايا والحركات وتعد نبضات القلب حرامها وحلالها؟ لماذا حين أنظر إلى قامة يونس

الشينوي وإلى عينيه اللتين لا لون فيهما أشعر وكـــأن ذاك التلميـــذ سارق القبلة مني يعود اليوم، رجلاً، يوقظ فيّ رغبة الجري خلفه كما كنت أرغب في الجري خلفه وهو يقفز من الحافلة وهي تقلع؟ مـــاذا كنت سأفعل له لو أني نـــزلت، ولحقت به، وألقيت القبض عليـــه؟ هل كنت سأطالبه باسترجاع قبلتي؟ كيف يمكن استرجاع قبلة؟ هل بقبلة أخرى؟

وبدأت الجري في الاتجاه الصحيح.

20

جاء عبد الرحمن يسبقه صوت غجغجة مفاصل ساقه الاصطناعية، ورنين شتلات المفاتيح المعلقة في خصره على الجنب الأيسر والأيمن، وكمشة أخرى يلعب بها في يده. كعادته، دفع باب مكتبي دون استئذان، رفعت عيني عن ملف كان بين يدي، فتحت النافذة على وسعها لمقاومة رائحته الكريهة، ثم قلت له: "خيرًا يا عبد الرحمن، في عينيك ذئب أم ثعلب أم أفعى؟".

عدت إلى تصفح الملف، دون مقدمات، بدأ في قص تفاصيل حكاية طويلة عن عطب أصاب سيارة الإسعاف مما حرمه من استعمالها كسيارة أجرة، وبالتالي هدد ميزانيته الشهرية.

ظل واقفا ثم تكلم:

"الصينيون يهجمون على البلد من كل الجهات، على الاقتصاد والتجارة والنساء. السيارات الصينية والكورية الصنع لا خير فيها ولا متعة، أحسن السيارات هي الماركات الألمانية والفرنسية، على الإدارة ألا تقتني سيارات الخردة الصينية".

ثم وجه إلي سؤالا مباشرًا: "هل قرأت الجريدة هذا الصباح؟".

أخرج الجريدة مطوية على أربعة من جيبه، معلقًا: "الطوفان الصيني بدأ!".

"دعت الصين الحكومة الجزائرية إلى معاقبة المتسببين في صدامات وقعت بين عمال صينيين وسكان ضاحية شرق مدينة الجزائر، وهي الأولى من نوعها بهذا البلد. وقال بيان للخارجية الصينية إن سفارة الصين في الجزائر طلبت من حكومة الجزائر "تهدئة الوضع ومعاقبة المتسببين في الأحداث، بما يوافق القانون ويمنع تكرر الحادث". وجاء في البيان أن "الصين تولي أهمية كبيرة لسلامة رعاياها في الجزائر وحقوقهم القانونية". ونقلت عن السفير الصيني في الجزائر دعوته إلى احترام القوانين والتقاليد الجزائرية.

ووقعت الاشتباكات الاثنين، في حي باب الزوار شرق مدينة الجزائر العاصمة، وبدأت بعراك بين صيني وصاحب محل جزائري قال إنه طلب منه ألا يركن سيارته قرب متجره. واستعملت السكاكين والعصي في اشتباكات شارك فيها أكثر من مائة من الطرفين، وانتهت بتخريب محال يملكها صينيون ونهب أغلبها حسب شهود. وتحدث ناطق باسم سفارة الصين عن عشرة صينيين جرحوا، لكنه اعتبر الاشتباكات حادثًا معزولا لا يعكر "الصداقة القوية مع الجزائر"، وأكد ثقة بلاده بتحقيق الشرطة الجزائرية. وقال سكان إن الصينيين لا يحترمون العادات الجزائرية، وطلب بعضهم ترحيلهم من المكان الذي يقطنونه المعروف محليًّا بحي الشّناوة (حي الصينيين)".

شعرت بقلق على يونس، تحسست وجوده القوي في قلبي. إنه كالنفس أو التنفس، خفت أن يرمى به في أول طائرة متجهة إلى بكين، فينهي حياته في غولاك صيني.

لم أرد أن أظهر قلقي أمام عبد الرحمن الذي كان يتفرس ملامحي قارئًا كل شيء. ولأول مرة، أشعر بما يشبه الغيرة في عينيه،

وكأنما كان يتمنى أن يرحل هذا اليونس ومعه جميع الصينيين كي يجرب حظه معي. مع ذلك حاول أن يلطف الجو قائلاً: "معارك الحارات لعب أطفال، لا أكثر ولا أقل، الجرائد تزيد النار تبنًا، وتطعمها حطبًا، وتصب عليها زيتًا".

لم أعلق على كلامه، تمنيته أن يغادر المكتب كي أتنفس الهواء نقيًّا، لكنه وبمجرد أن شعر بتوتري، وتلذذًا بانتصاره عليّ، شرع في سرد حكاية أخرى عن رجل يعمل حارسًا في ورشة من أوراش البناء التي تتولاها الشركة التي يشرف على إدارتها يونس الشينوي:

"حكى لي عمي محمد، أنتِ لا تعرفين عمي محمد يا ساكو، إنه رجل لا يكذب، مجاهد أسقط طائرة عسكرية عدوة ببندقية صيد أيام الحرب ضد فرنسا الاستعمارية! وعمي محمد، البطل هذا، أنتِ لا تعرفين عمي محمد يا ساكو، يعمل حارسًا ليليًّا ونهاريًّا في ورشة البناء الصينية المكلفة ببناء ثلاثة آلاف مسكن في إطار برنامج فخامة رئيس الجمهورية، وهي الشركة التي يرأسها أو يشرف عليها أو يديرها السيد يونس، يونس الشينوي، الذي زارك خمس مرات، كانت أول مرة يوم جيء به للتعرف على جثة الصيني الذي مات في ظروف غامضة، ثم المرات التالية كانت: يوم الثلاثاء 8 أكتوبر، ويوم الخميس 19 نوفمبر، ويوم الأربعاء 4 ديسمبر، ويوم الأحد 19 يناير.. والتقيتِ به مرات كثيرة في مطعم "البوسفور" بوادي حيدرة، والتقيت به أيضًا في مطعم "خيمتنا" بشارع فرعي غير بعيد عن مقر المحافظة السامية للأمازيغية.. حكى لي عمي محمد حين زرته بصحبة فريق تليفزيوني أمريكي يحضر لإنتاج فيلم ضخم عن الثورة الجزائرية

بمناسبة الذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر، يا الله خمسون سنة مرت على هواء الاستقلال و لم نشعر به، هل رأيت كيف يمر العمر سريعًا يا ساكو؟ الحقيقة إن الأمريكيين ذئاب، شعرت بهذا من خلال أسئلتهم الموجهة لعمي محمد. لم يجيئوا لتصوير فيلم عن الثورة الجزائرية العظيمة، بل كانوا يريدون تصوير شريط عن الحياة اليومية للصينيين في الجزائر. إن وجود أبناء التنين في الجزائر بدأ يقلقهم سياسيًّا واقتصاديًّا وتجاريًا، وهم يعرفون أن عيون الصينيين على الصحراء: ببترولها، وشمسها، ومعادنها، وأنهم سيضعون يدهم، إن آجلا أو عاجلا، على هذه الثروة من خلال التنافس والجدية والالتزام والانضباط، وأنهم بذلك سيزيحون الشركات الأمريكية من الصحراء. عرفت ذلك من خلال الأسئلة التي كان الصحفي يطرحها على عمي محمد، أسئلة لا علاقة لها بحادثة إسقاطه لطائرة عسكرية فرنسية ببندقية صيد. كان الحديث عن يوميات العمال الصينيين خارج ساعات العمل، كيف يقضون أوقات فراغهم، كيف ينظمون حياتهم من أكل وشرب وملبس وموسيقى، علاقتهم مع النساء الجزائريات، كيف يعيشون حياتهم الجنسية. أول سؤال طرحه الصحفي الأمريكي ذو الأصول اللبنانية على عمي محمد كان عن سر قطعان الكلاب الكثيرة التي تعيش داخل الورشة، وعلى أطراف المهاجع القصديرية التي ينام فيها العملة من البنائين والكهربائيين والمساعدين من اليد العاملة العادية، مع أن عمي محمد الذي أسقط طائرة حربية فرنسية ببندقية صيد كان يتمنى أن يحكي تفاصيل سقوط الطائرة، ولكن خاب ظنه في الصحفي، ومع ذلك أجاب وكأنما كان ينتظر هذا السؤال لاحقًا:

"لقد رأيت ما يشيب له شعر الرأس، فهؤلاء القوم لا يتركون شيئًا يدب على الأرض إلا أكلوه، فهم يجيئون بنوع من الكلاب السمينة. أنا لا أفهم في سلالات الكلاب، ولا أعرف أسماءها، يجيئون بها ويربونها، فتلد الكلبة جراء، خمسة أو سبعة، يطعمونها مما يفضل عليهم من أكلهم، حتى تكبر الجراء فيتم ذبحها وأكلها، ثم تحمل الكلبة فتلد، وهكذا دواليك..".

اقتربتُ من النافذة إذ شعرت بنَفَسي كاد ينقطع، وهممت بطرد عبد الرحمن من مكتبي، ولكني لم أجد الشجاعة للقيام بذلك. شعرت بما يشبه الهوان وخارت قواي. دارت الأرض من تحت قدمي. كان ينظر إلي مستملحًا قلقي، مبتهجًا لتأثيره عليّ.

واصل عبد الرحمن كلامه:

"وحين سأل الصحفي الأمريكي ذو الأصل اللبناني عمي محمد عن علاقة الصينيين بالنساء، نظر إليّ عمي محمد وقد شعر بالحرج، ولكنه أجاب بعبارة واحدة: إنهم مثل قوم لوط لعنهم الله. ولم يزد كلمة واحدة عن هذه العبارة، لكنه عاد للحديث عن أكلهم الدواب الغريبة، قائلاً بنوع من الحزن والتأثر: لقد شاهدهم بأم عيني ذات مرة إذ مررت، وبالصدفة، للاستفسار عن أمر ما؛ فوجدهم وقد طرحوا حمارًا أرضًا، وربطوا أقدامه بحبل وهم يستعدون لذبحه. وحين خاطبت أحدهم بالعربية، رفع الحمار رأسه ونظر إليّ، وكأنما يطلب مني أن أخلصه من هؤلاء القتلة، ولو كان معي ما أدفعه لهم مقابل ثمن الحمار لكنت خلصته منهم. إن الحمار حين سمعني أتحدث العربية استأنس بصوتي، وكأنما كان يطلب مني أن أنقذه، وما استطعت لذلك سبيلا، واختفيت من المكان وقد أصابتني صدمة من هول ما رأيت".

تركت عبد الرحمن يتحدث، وأسرعت إلى المرحاض فأفرغت ما في بطني دفعة واحدة. غسلت وجهي بماء بارد، وقفت أمام المرآة قليلا، تبين لي أن كثيرًا من ملامح وجهي قد تغيرت، فجأة شعرت بخوف من الزمن. هربت من المرآة إلى الرواق الطويل الذي يفصل بين مجموعة من المكاتب على اليمين واليسار، وحين عدت إلى مكتبي كان عبد الرحمن قد غادره فارتحت، وفتحت الهاتف على الفور لأكلم يونس، لكني انتبهت إلى أن الساعة هي ساعة عمل، وهو في مثل هذا الوقت يغلق هاتفه؛ ممنوع على جميع عمال الورشة استعمال الهاتف النقال ساعة العمل، باستثناء خط داخلي يربط ما بين رؤساء الوحدات الميدانية والمصالح الإدارية والتقنية.

شعرت برغبة كبيرة في الحديث إلى يونس. فكرت في أن أسأله عن حكاية تربية الكلاب وذبحها وأكلها في ورشات عمل الصينيين. ثم قلت في نفسي: "ما الفرق بين ذبح كلب وذبح شاة، بين ذبح عجل وذبح حمار؟ الصينيون يذبحون الكلاب والجزائريون يذبحون النساء، لكل ضحيته!".

انتبهت فإذا بيونس قد سكن دمي قبل أن يسكن الجزائر، وتربع على عرش قلبي، على الرغم من حكايات عبد الرحمن وصاحبه الذي أسقط طائرة عسكرية نفاثة ببندقية صيد.

21

قبل أن أدخل قرية بني فرطاس أو قرية الحاج الشينوي، قادمًا إليها، على متن تاكسي جماعي، من الجزائر العاصمة، وفي آخر منعطف على التلة التي تشرف عليها، تأملتُ البيوت البسيطة وبعض الأشجار التي تتوسط الأحواش، وبعض قطعان أغنام تثغو راجعة إلى زرائبها لتقيِّل، تذكرت حكاية أمي مع خالع الأضراس:

قررت أمي أن تكون جميلة، و"اللي بغى الشبح ما يقول آح". ثلاث مرات في الأسبوع، صباحًا، أركب خلفها على ظهر البغلة الشهباء العجوز لننطلق إلى القرية المركزية، التي تبعد عن بيتنا الريفي المعزول على رأس تلة في الخلاء حوالي ساعة. كانت قرية بني فرطاس المركزية تثيرني بناسها وبعالمها الضاج، خاصة يوم السوق الشعبي الأسبوعي الذي جئته مرات بصحبة والدي قبل أن أدخل المدرسة لتصبح القرية فضاء عاديا.

كان قالع الأضراس رجلاً ستينيًّا بلحية طويلة مصبوغة بالحناء، وقد بدأ الشيب يغزوها من الذقن ومن طرفي الحنكين، قصير القامة، واقفًا لا يكاد يرى من خلف بعض الأكياس المكدسة في غرفة صغيرة مظلمة أو تكاد، بدون نافذة، مساحتها لا تتجاوز أربعة أمتار مربعة، رطبة، تعبق منها روائح كريهة، ستار وسخ من ثوب خشن رمادي يقوم مقام الباب، ينزل حتى الأرض فيقطع كل ضوء وكل هواء.

الغرفة مليئة بالكلاليب مختلفة الأحجام، وبصف أكياس من الأعشاب اليابسة المدقوقة والورقية، وبمجموعة من الكتب والمخطوطات المهترئة، وثلاثة أكياس كبيرة بطول الرجل أو تزيد مملوءة بالأضراس والأسنان التي تم اقتلاعها من أفواه الزبائن، والتي يصر على عرضها على الملأ، إذ وضعها قبالة الباب الخارجي لتكون على مرأى من جميع المارة. كانت الأكياس كالمتاريس الرملية معروضة في الشارع، أسنان وأضراس بأحجام مختلفة مسوسة أو كاملة، سوداء الأطراف أو بيضاء أو صفراء، بعضها لا يزال معلقًا فيه بقايا اللحم الذي سحب مع الضرس ساعة القلع. حين نظرت إلى الأكياس الثلاثة الكبيرة، لأول مرة وفي أول زيارة، شعرت ببولة دافئة تنزل لتصل جواربي وحذائي، وأحسست بأن أسناني كلها تؤلمني، وخفت أن يهجم علي ويبدأ في سحبها واحدة واحدة. شددت على طرف عباءة أمي التي بدت لي هي الأخرى خائفة. جلست أمي على هيدورة تيس وسخة، اقترب الرجل القصير الذي بدا لي أصغر مني طولا، شمر عن ذراعيه كأنما يستعد لذبح أضحية العيد. طلب من أمي أن تفتح فاها، فعلت، شعرت ببرودة البولة من خلال جواربي المبللة. نظرت إلى أمي، كانت ترتجف، خفت عليها وقد اصفر وجهها، وفجأة هجم الرجل بكلاب يشبه ذاك الذي يستعمله الإسكافي في سحب المسامير المهترئة من حذاء بال، شد على شفته اليسرى بأسنانه الصفراء ثم قال: يا باسم الله. بعد أن دفع بالكلاب إلى الفم المفتوح، شد بعنف على الضرس ثم، وبقوة، بعد أن تأكد أنها أصبحت بين فكي الكلاب صرخ: الله أكبر، وسحب بقوة نحو الخارج، بعد حركة ذات اليمين وذات الشمال التي أنّت لها أمي أنين

الطفلة المتألمة، وكانت الضرس وأشلاء اللحم في رأس الكلاب، وسال الدم كثيرًا من فم أمي، ناولها كأس ماء به حفنة ملح وقال لها: شللي الجرح سيتطهر، واذكري الله، وموعدنا يوم الأربعاء.

بشق الأنفس قامت أمي من على الهيدورة، وهي تبصق دمًا متكبدًا في خرقة كتان كبيرة أخرجتها من صدرها. تمضمضت بالماء، ولكن النزيف لم يتوقف. سحبت ورقة نقدية من صدرها وناولتها للرجل الذي نظر قليلا إلى الضرس وجذورها ملفوفة في قطع اللحم، ثم رمى بها في الكيس الذي امتلأ على آخره. أخذ الرجل الورقة النقدية، ثم نادى على زبون آخر ليتقدم، وخرجنا. كانت أمي لا تزال ترتجف، وأنا أمسك بتلابيب عباءتها وهي تتألم.

غادرنا القرية، لم تتكلم أمي طول الطريق. بعد ثلاثة أيام لم يتوقف نزيفها، لكن قلبها توقف.

حزنت لأن أمي ماتت قبل أن يتحقق حلمها بتركيب أسنان صناعية جميلة مغلفة بالذهب تتباهى بها أمام نساء الدشرة من زوجات أعمامي وخالاتي. ماتت ولا أحد عرف كيف ماتت، مع أنها كانت متشبثة بالحياة. سمعت أبي يقول إن نزيفًا في مخها، من شدة خلع الأضراس هو الذي قتلها.

وكان خالع الأضراس على رأس السائرين في الجنازة، وأول المعزين بأمي.

تمشي الطفولة في غبار الطفولة.

ذكرني موت أمي التي كانت تريد أن تكون أجمل نساء الدشرة جميعًا بحركة القرية في يوم "صلاة الاستسقاء"، لماذا تذكرت صلاة الاستسقاء وأنا أدخل القرية وأسير في شارعها الرئيسي؟ لا أدري!

لا شيء يدعو لتذكر يوم صلاة الاستسقاء الذي لا علاقة له بموت أمي. ضف إلى ذلك فأنا لم أحضر مثل هذا الحدث في حياتي سوى مرة أو مرتين. مع ذلك أتذكر منه وفيه كثيرًا من التفاصيل، كنت أجري في غبار المصلين ضاحكًا أو خائفًا، فرحًا أو حزينًا، إحساس غامض، ولكنه عميق، كان يستبد بي.

طفلاً، كنت أتمنى أن يضرب القحط والجفاف قريتنا كل سنة حتى تتكرر مثل هذه الصلاة التي تثيرني جدًّا. ففي هذا اليوم، تعيش القرية حركة غير عادية، الرجال يلبسون بطريقة مثيرة للضحك والاستغراب، يرتدون معاطفهم وجلابيبهم بالمقلوب، كأنهم في كرنفال أو في حفلة تنكرية! في هذا اليوم، الناس لا تنظر إلا إلى السماء، وكأن الله يجلس فوق غيمة ينتظرها الجميع كي تنزل ماء يسقي الأرض والقلوب. وكان أبي في المساء الذي يسبق موعد صلاة الاستسقاء، يجمعنا جميعًا ليحكي لنا حكاية أصل صلاة الاستسقاء، قائلا بعربية فصيحة تنطق بلكنة أمازيغية: "في قريتنا هذه، كان ذات زمن عجل قوي أصفر اللون، يسميه الناس عجل السقي؛ إذ كانت تشد حول عنقه وقرنيه الدلاء التي تنزل بحبال طويلة إلى قعر البئر لتمتلئ، بشكل آلي، بحكم العادة، يدور العجل دورة أو دورتين حول البئر على مسافة معينة، على إثرها تصعد الدلاء مليئة لتصب بشكل أوتوماتيكي في صهريج صنع من إسمنت على حفافي البئر، منه يسقي أهل القرية، ومنه ترتوي الحيوانات من معز وأحمرة وبقر ونعاج وغيرها. وكان هذا العمل مضنيا بالنسبة لهذا العجل، ومما زاد في تعبه وألمه هو تقدمه في السن وشعوره بالهوان، وقلة الأمطار الموسمية التي جعلت منسوب الماء ينقص في البئر؛ مما يضطره

لبذل مجهود أكبر نظرًا للمسافة العميقة التي عليه أن يسحب منها الدلاء. ذات يوم، وبعد أن أنهكه سحب الدلاء، و لم يعد قادرًا على رفعها من قعر بئر تكاد تكون جافة، اختفى العجل دون أن يعلم الناس أين ذهب؛ فكان أن هب جميع سكان القرية للبحث عنه، بعد أن أدركوا أن الصهريج لم يبقَ فيه ماء، وأن الحيوانات والأطفال يطلبون ماء للشرب. وبعد نهار وليلة من البحث عنه وجدوه واقفا على حافة أعلى قمة في أعلى جبل اسمه جبل زندل مستعدًا للانتحار. اقتربوا منه وإذا هو ينظر إلى السماء وعيونه دامعة، كان يصلي ويطلب من السماء أن تمطر ماء حتى يخف عنه عناء السقي من بئر تكاد توشك على اليباس، وظلوا ينظرون إليه وهو يتذرع السماء حتى أمطرت، وعادوا به إلى القرية، وكرموه وأصبحوا يعبدونه! ومن يومها، بدأ الناس كلما أصاب البلد جفاف يصلون صلاة الاستسقاء، وبعضهم يسميها صلاة العجل، وبعضهم يسميها صلاة جبل زندل".

كانت قصة العجل وصلاة الاستسقاء تثيرني. أذكر أن الناس صلوا صلاة العجل و لم يسمع الله صلاتهم و لم يرها، و لم ينزل مطرًا؛ لأنه يعلم أنهم يفعلون ذلك دون إيمان، وكان أبي يقول بنوع من التأسف: "العجل أكثر إيمانًا من بني البشر. لو أننا تركنا الحيوانات تصلي مكاننا صلاة الاستسقاء لأمطرت الدنيا وأثلجت، ولو أننا تركناها تصلي مكاننا الخمس صلوات اليومية لذهب جميعنا إلى الجنة.. لكن..".

الطفولة تمشي في غبار الذاكرة.

حين دخلتُ القرية، وجدت السكان وكأنما هم بالفعل يستعدون لأداء صلاة الاستسقاء، فرادى وجماعات، يسيرون بصمت وتأمل في اتجاه ضريح الحاج الشينوي.

اليوم حار جدًّا، جهنم في مايو، والناس لا تزال تتأمل سقوط الأمطار الأخيرة الضرورية لانضاج الغلال وبعض البقوليات. سرت مع السائرين بعد أن قلبت معطفي على الوجه الآخر، كنت أريد أن أسبق الجميع حتى أعرف ما الذي حدث في غيابي، وما الذي تغير في القرية بعد بناء الضريح بالقبة والسقيفة. استطعت، على الرغم من ساقي الاصطناعية، أن أسبق الجميع، وأن أصل إلى رأس القافلة. قلت، عليَّ أن آخذ المبادرة وأقوم بالإشراف على تنظيم المصلين حتى لا يتم المشي فوق القبور.. وبالفعل، طلبت من الجميع التوقف عند حدود السقيفة، وجاء الإمام وأخذ مكانه للصلاة. سالت الدموع ورفعت الأيدي بالدعوات طالبين من الحاج الشينوي أن يرفع عن القرية جفافها وعجاجها وعوجها وبأسها. وبمجرد أن انتهى الإمام من دعواته، وقبل أن يتفرق الناس ليعودوا إلى بيوتهم، تغيمت السماء، ودوى رعد وومض برق في الأقاصي، وسال الماء غزيرًا، كأنما من حنفية إلهية.

سبحانك ربي!

اختفت الطفولة في غبار الواقع.

كان زهير ابن عمي، رئيس البلدية، منزعجًا قليلاً لوجودي بين المصلين، وكأنما أراد أن يتفرد وحده بمثل هذه البركة وهذا الجاه. مع ذلك، ببرودة ومجاملة، ابتسم لي وعانقني بحرارة، وكأنه لم يرني منذ قرن!

على عجل، خلا المكان من المصلين، وكأنما انسحبوا للبحث عن سبيل لإنقاذ بيوتهم من الأمطار، والتي قد يرمي بها إلى البحر فيضانُ الوادي الذي يقطع القرية نصفين. اقتربت من ابن عمي أكثر،

وقلت له كأنما أسرُّ له بأمر مهم: "لقد قررت العودة للإقامة في القرية للإشراف على الضريح".

قال لي: "عليك أن ترحل؛ فرأسك مطلوب من ذاك الذي لأجله خرجت هاربًا من القرية منذ عشرين عاما، الدم ليس ماء يا لعوج".

ها هو ابن عمي يفتح جرحًا اعتقدت أن الناس نسوه، في غمرة قانون المصالحة الوطنية.

"القلوب لم يبرأ جرحها بعد. يكذب عليك من يقول إن الصفحة قد طويت. قانون السلم والمصالحة كذبة لا تصدقها سوى الحكومة في العاصمة..".

آه.. لقد ذكرني زهير ابن عمي وأخي من الرضاعة بما كنت أحاول أن أنساه، بل كنت أفتعل نسيانه. وتذكرت حفيظة وهي تهذي عن ابنها الذي تركته في الجبل.

الجبل!

22

مرة أخرى، خميسٌ آخر، موعدنا في مطعم "خيمتنا". وصلت قبله بعشر دقائق، تسع دقائق على الأصح. كنت سعيدة؛ إذ وجدت فريدة بكل أناقتها وابتسامتها تستقبلني، كعادتها تقبلني بحرارة، هي الوحيدة في هذه المدينة التي أشعر أن لها قلبًا يدق. أنيقة دائمًا، إنها أجمل وأوسم من صورتها في البورتريه الذي تعلقه وسط المطعم، والذي رسمه هدية لها واحد من أكبر التشكيليين الجزائريين الذي توفي قبل سنتين بسكتة قلبية، وهو في مرسمه يحاول أن يعيد رسم البورتريه. كان الرسام، كما تقول فريدة، كلما دخل المطعم ونظر إلى البورتريه ونظر إلى وجه فريدة، قال بصوت عالٍ، موجهًا كلامه للزبائن جميعًا: "أنا الخائن، أنا الفاشل، أنت أجمل من البورتريه. عليّ أن أعيده، أن أبعث فيه منك، وهو ما لا يوجد في غيرك".

سألتني فريدة عن ليليا وعن نهديها، قلت لها لقد كبرا، وأصبح لها عشيق تصفعه على خديه وتبكي إذ تؤلمه. وحكيت لها حكاية ابنتي مع زميلها في القسم، وضحكنا كثيرًا. رافقتني إلى طاولتي المعتادة، في الركن الأيسر، لم يكن في المطعم سوى بعض الزبائن يتحلقون حول طاولات الزوايا، هي عادة مطعم "خيمتنا"؛ فزبائنه لا يجيئون إلا في ساعات متأخرة، ابتداء من التاسعة والنصف ليلا.

وصل يونس خجولاً، لم يتوقف عن الاعتذار عن تأخره، اعتذار بحركات تشبه الصلاة تارة، وتارة أخرى بكلمات تشبه التوسل. كان يرتدي قميصًا أبيض اللون، من عادته ارتداء اللون الأزرق، هو لونه المفضل، لماذا غير لون قميصه يا ترى؟

قلت له: "سيارتي معطلة، جئت في سيارة أجرة".

بعد صمت، سألني عن أحوال ليليا.

جاءت فريدة، فقطعت حديثنا قائلة، وهي تفتح لنا قنينة نبيذ من نوع مونيكا (مونيكا هو اسم أم سانت أوغسطين):

"لقد توفي المفكر محمد أركون بباريس، وسيدفن بالرباط بالمغرب. إنه ابن قريتي تاوريرت ميمون".

قلت في نفسي: إنها أيضًا قرية مولود معمري، صاحب رواية **الربوة المنسية** التي يقرأها أبي مرتين في السنة.

إلى الطاولة المجاورة يجلس ثلاثة رجال وامرأتان. المرأة الثخينة التي تشرب النبيذ كما يشرب الماء البارد، تتابع حديث الزبائن على الطاولات المجاورة أكثر من متابعتها لحديث الذين يجلسون إلى طاولتها. تقول إنها سمعت بأن زيارة ضريح الولي الصالح الحاج الشينوي شيء معجزٌ وملفت للانتباه؛ إذ إن كل من طلب منه شيئا استجابت له السماء!

"وزير سابقة في حكومة الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية نصحه أصحاب النصيحة الحسنة بأن من يذبح أضحية يرد له الحاج الشينوي ما يكون قد ضيعه، ويحقق له مبتغاه لذا أقام سبعة أيام في المقام، كل يوم بأضحية عجلا. صلى فيه جمعتين متتالتين ثم عاد ينتظر منصبا ساميا".

كنت أستمع إلى ما تقوله المرأة الثخينة وكأس النبيذ لا ينـــزل من فمها، وكأنما نبرة صوتها ارتفعت قليلا مع زيادة وتيرة استهلاكها للنبيذ.

قلت ليونس، تعقيبًا على حديث السيدة المسموع، وقد طلبت قنينة نبيذ أخرى:

"إننا شعب غريب يا يو تزو صن، يا يونس، يذم الحي ويمـــدح الميت. يلعن الحي ويقدس الميت. يطاردني الناس بمجرد أن أمشي إلى جوارك خطوة في الشارع، ويسبني بعضهم الآخر بمجرد أن أجلـــس إلى طاولة معك في مطعم أو مقهى؛ لا لشـــيء إلا لأنـــك صـــيني، وبالمقابل: يذهب السياسيون، ورجال الأعمال، وأساتذة الجامعـــة، والولاة، والجنرالات لزيارة قبر ابن مربـــي الحجل سون بـــا ســـن، يطلبون منه المناصب العالية ويذبحون له الذبائح الكبيرة!

إننا شعب يقدس الشهداء، وهم أهـــل للتقـــديس، ولكـــن في المقابل: نرمي بشبابنا من أبناء الشهداء إلى البحر، في قوارب تنتـــهي بهم في جوف الحوت!

إننا، يا يونس، شعبٌ يقدس الموت، ولا ينتبه للحياة، يعيش مع الموتى في المقابر، ولا يعانق الحياة في المدن والمداشر!".

سكت، أخذت كأسًا أخرى، وقلتُ في نفسي:

"لماذا أحكي ليونس الشينوي هذه الحياة بتفاصيلها، بتعبها وسمّها؟ أحكي للغريب؛ لأنه الوحيد الذي يراني ويسمعني. الرجـــل الجزائـــري يرى فيّ الأنثى والسرير والأم، يرى فيّ فرصة ساعة لا تضيع، يـــرى فيّ غنيمة. الغريب آكلُه ويأكلني، يبلعني وأبلعه، والجزائري يأكلني بقـــرف، وحين أقترب منه لا أستطيع مضغه، لحمه مرّ المذاق.

أحكي ليونس الشينوي؛ لأنني حين حاولت أن أحكي ألمي للسيد قاسي منعته عني زوجته، وجعلت بيني وبينه حائط الشك، ورغبة الشيطان، فسكتّ..

وحين حاولت أن أفتح قلبي للطبيب النفساني الذي زرته لأجل ليليا، وجدتني أنا المريضة، نظر إلي نظرة الثعلب، وكان يريد أن يراني على سرير النوم، لا على سرير الاعتراف، فهربت..

حين أردت أن أقص حكاية نزيم المخنث لأمه خفت منها؛ لأن السيدة طاووس لا ترى في ابنها سوى الرجل بقضيب يساوي جيش سليمان القانوني قادر على غزو الدنيا به بأكملها، وأنه لولا رجولته وفحولته لما كان لها حفيد سمته باسم الرسول عليه الصلاة والسلام محند (هو محمد بالأمازيغية). خفت أن أقول لها إنه يتعطر بعطر النساء ويلبس ألوان النساء؛ لأنني لو قلت لها ذلك لكانت رمت بي في الشارع بتهمة الخيانة الزوجية، مع أن ابنها كان يتعطر بنفس العطر الذي تستعمله.

لو قلت لمديري في معهد باستور الذي لا يتصورني إلا عارية على الكانبيه إني عاشقة ليونس الشينوي، لكان سيطردني دون تردد قائلا: تفضلين خردة صينية على ابن بلدك ومديرك وولي نعمتك؟!

الجميع من رجال هذا البلد لا يرون فيَّ إلا امرأة للسرير، أو للإنجاب، أو للبكاء، لذلك: فضلت أن أحكي للغريب غربتي..

أن تحكي للغريب فأنت حر.. أن تحكي لابن البلد فأنت متهم، ومشكوك في أمرك.

أن تحكي للغريب فأنت تطارد غربتك بغربة متحررة ومُحرِّرة".

طلبنا الحساب، جاءت فريدة، جلست بعض الوقت إلى طاولتنا قائلة: "الديسي (التحلية) على حساب المطعم، كانت بابتسامتها أجمل مما هي عليه في البورتريه".

غادرنا المطعم، أخذ يدي بين يديه، سرنا في الشارع. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحًا، لا شيء في شوارع العاصمة. كان يونس صامتًا، يشبه بوذا في صمته، يمشي غارسًا نظره بين خطواته المتثاقلة. كنت أراقبه وكان يراقبني، حين اقتربنا من السيارة وركبت إلى جواره، لم ندرِ إلى أين نتجه.

سرنا خارج المدينة، السيارة صغيرة ورغبة ممارسة الجنس في السيارة والتي تسكن هواجسي منذ سنوات، تسيطر على دماغي الآن، وهذا الصيني بجسده الصغير كأنما صنع لممارسة الجنس في السيارة، مثل هذه السيارة وفي مثل هذا الليل، ليل الجزائر العاصمة، وتسللت يدي إليه، قبلته على رقبته وهو يسوق، دخلنا في غابة، أوقف السيارة، وشعرت به كما كنت أتصوره:

لم يكن صغيرًا، كان كبيرًا كبيرًا كبيرًا!

قلت له بالصينية: وو آي ني Wo aï ni (أحبك).

أجابني بالأمازيغية: هملاغك (أحبك).

تذكرت ليليا التي كبر نهداها، وأصبح لها عشيق تصفعه ثم تبكي لأنها ربما آلمته.

قبل أن تقلع السيارة ونخرج من الغابة، تمنيت أن أصفعه على وجهه لكن دون أن أوجعه.

وضحكنا مثل طفلين.

شنغهاي- بكين- الجزائر

2007 - 9 جولية 2014

واقفــة في البلكون، أنظر إلى ميناء مدينة الجزائر، وأنتظر عودة يو تزو صن. أرقب ظهوره كأنني لم أره قبل اللحظة. أبحث له عــن شَبَه، لا شبيه له في هذا الخلق الذي يسير في الشارع كما في الحشر.

الــزواج ليس خاتمة الحب، الحــب ليست نهايتُه الزواج.. نهاية الحب هي الحب.

الإدهاش الذي يثيره الغريب يتطلب الحفاظ عليه في باب اللغز، متى سقط اللغز عن الغريب مات في قلبنا، وأصبح ظل حائط.. برودة.

فــي أحشائي ينام شــيء من دم يو تزو صــن.. يتحرك.. تتحرك البواخر على الميناء.

لا زلت أحــب الغريب، أحبه لأنه لا يــزال غريبًا بغموض عسله، فيه أكتشف كل يوم سماء أو حكاية أو شبقًا.

حين يفقد الغريب شهوة الغريب فيه، أفقد أنا السماء التي غرست فيها جذوري.

حين يفقد يو تزو صن شهيــة الغريب سأتركه؛ سأغادره، لأن صــدأ الروتين سيسكــن مفاصل حكايتنــا. وسيكون سعيــدًا لأنني أنا الأخرى أكــون ساعتها قد فقدت غرابتي في عينيه، و لم أعد ملكة عسل.

الحب ليســت نهايته الزواج، والغريــب ليست نهايته أن نعرفه، بل أن يظل غريبًا؛ كي يكون مثيرًا لرغبة الاكتشاف المستمرة التي هي أصل الحب.

أنا حامل من غريب. في شهري السابع، وسيجيء من هذه الغربــة طفل يكون أول السلالــة الجزائرية الصينية التي ستحكم البلاد مع نهاية هذا القرن.



أميــن الــزاوي

روائي جزائري يكتب بالعربية والفرنسية من أعماله:

- الرعشة
- شارع إبليس
- حادي التيوس
- لها سر النحلة
- نزهة الخاطر

صدر للمؤلف عن الدار







منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com